أحمد السامرائي

البحتري

في سامراء بعد عصر المتوكل

ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
رابط بديل
lisanerab.com
www.lisanarb.com

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

المكتبة المر...
...بغداد

يونس أحمد السامرائي

البحتري

في سامراء بعد عصر المتوكل

ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره

مطبعة الارشاد ــ بغداد
١٩٧١

PJ
7745
.B8
Z85
V.2

الى

زوجتي

وطفلتي

أهدي

هــذا

الــكتاب

مقـــدمة

هذا هو القسم الثاني من كتابنا « البحتري في سامراء » ، تناولنا فـي القسم الاول منه حياة الشعر في هذه المدينة حتى نهاية عصـر المتوكل • وعقدنا هذا القسم على حياته بعد عصر المتوكل • وانتهجت في البحث كلـه منهجاً واحداً أشرت اليه في مقدمة القسم الاول وقلت فيه : « كتب عن الشاعر الكثيرون ، ولكنني حاولت في هذا البحث أن اكتب عن البحتري بطريقة أخرى ، حاولت أن أتسلسل مع الشاعر منذ وطئت قدماه أرض سامراء مسترفداً ، وحاولت أن استشهد بكل ما نظمه في خلفاء هذه المدينـة ورجالها ، وكنت أجتزىء أحياناً باجزاء من القصائد وأهمل في الغـالب المقدمات الغزلية التي التزمها البحتري في عموم شعره •

وأنا أعرف جيداً ان في النصوص التي استشهدت بها شيئاً من التكرار، تكرار المعاني والاوصاف التي كان الشاعر يقيم فيها قصيده ، ولكني أزعم أن البحتري كان ـ على الرغم من ذلك ـ بارعاً في تناول الموضوع وانتقاء اللفظ حتى ليخيل الى القارىء أن ليس هناك تكرار يدعو الى الســأم والملل » •

يتناول هذا القسم حياة البحتري في سامراء في الحقبـة التي أعقبت مصرع المتوكل ، وهي حقبة قلقة مضطربة ، هزت فيها الخلافة العباسية هزاً عنيفاً في أكثر أقطارها ، وظهرت فيها غطرسة العنصر التركي وجبروته ، فعمل بالخلفاء والخلافة ما لم يعملـه غيره من قبل • وانعكس أثر ذلك بطبيعة الحال على حياة شاعرنا ، فعاش هذه الفترة عيشة قلقة مضطربة حائرة اللهم الآمدة استخلاف المعتز ، حيث وجد فيها بعض ما فقده في عصـر المتوكل من حفاوة وتقدير واعطاء !

واني لأرجو ـ كما رجوت في القسم الاول ـ أن أكون قد وفقت في رسم صورة واضحة لهذا الجزء المضطرب من حياة هذا الشاعر الكبير !

يونس أحمد السامرائي

الفصل الاول

البحتري والمنتصر

المنتصر :

بويع ابو جعفر محمد المنتصر بعد مصرع أبيه المتوكل في يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين بالجعفرية (المتوكلية) ، مدينة والده . بيد انه لم يمكث فيها سوى بضعة أيام تحوّل منها الى سامراء ومعه أسرته وقواده وجنوده[1] .

وولد المنتصر في سامراء من أم ولد رومية اسمها « حبشية »[2] . وكان مليح الوجه أسمر ، أعين ، أقنى ، قصيراً ، جسيماً ، بطيناً ، مهيباً[3] .

ووصفه المسعودي بانه كان واسع الاحتمال ، راسخ العقل ، كثير المعروف ، راغباً في الخير سخياً ، أديباً ، عفيفاً ، وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق ، وكثرة الانصاف ، وحسن المعاشرة ، بما لم يسبقه خليفة الى مثله »[4] .

كما أشاد كثير من مترجميه بعمله تجاه العلويين الذين اضطهدوا في عهد أبيه المتوكل ، ولعل قيامه بهذا العمل وتظاهره بكثير من الصفات التي تدل على المسامحة والانصاف والخير لا تعدو ان تكون انعكاساً وتخفيفاً لما

---

(١) الطبري ٢٣٤/٩ ، مروج الذهب للمسعودي ٤٦/٤ .

(٢) الطبري ٢٥٤/٩ ، مروج الذهب ، التنبيه والاشراف للمسعودي ص٣١٤ ، الكامل في التاريخ ١١٥/٧ .

(٣) الطبري ٢٥٤/٩ ، التنبيه والاشراف ص٣١٤ ، الكامل ١١٥/٧ ، تاريخ الخلفاء ص٣٥٦ .

(٤) مروج الذهب ٥١/٤ . والغريب ان المسعودي نفسه يقول في التنبيه والاشراف ص٣١٤ « وكان ... ذا شهامة ومعرفة وامساك للمال وحفظ له حتى أنكر الناس عليه البخل وشدة المنع » . وانظر : الكامل ١١٦/٧ ، وتاريخ الخلفاء ص٣٥٦ .

كان يشعر به من الجرم العظيم الذي اجترحه في حق والده القتيل • ولعل القول بانه كان فاتكاً سفاكاً يصدق كثيراً عليه[1] •

وشخصية المنتصر – على الرغم من كل ذلك – ما تزال مكتنفة بالغموض ، وملفعة بشيء غير قليل من الابهام والتعمية ، ولا سيما فيما يتصل باسباب خلافه مع ابيه وفيما يتعلق بوفاته !

وتجمع المصادر التي تحدثت عنه على انه كان أحد المتآمرين على اغتيال والده ، بالاشتراك مع عدد من قواد الأتراك ، وعلى رأسهم وصيف وبغا الشرابي[2] •

ويبدو انه سرعان ما شعر بالجرم الخطير الذي ارتكبه ، وبالاثم الشنيع الذي اقترفه والذي أخذ يعصره عصراً ، فانقلب على من تآمر معهم من الأتراك ، حتى قيل انه كان يقول : « يا بغا أين أبي ؟ من قتل أبي ؟ ويسب الاتراك ،ويقول : هؤلاء قتلة الخلفاء »[3] • وحاول ان يدبّر مكيدة لابعاد وصيف عن مسرح السياسة في سامراء ، فأوعز اليه في سنة **٢٤٨**هـ ، القيام بغزو بلاد الشام ، وجهزه بجيش كبير لهذا الغرض[4] •

ولعل ما روى له من أن « لذة العفو أطيب من لذة التشفّي ، وذلك لان لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفي يلحقها ذم الندم »[5] نابع مما كان يشعر

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقى ص٢٣٩ •

(٢) انظر البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص٢٧٠ •

(٣) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢/٣٧٢ •

(٤) الطبري ٩/٢٤٠ – ٢٤١ ، الكامل ٧/١١١ •

(٥) انظر : زهر الآداب ١/٢٢٦ ، وعلق الحصري ص٢٢٧ على قول المنتصر هذا بقوله : « والمنتصر يقول عن تجربة ، لانه قتل أباه المتوكل ، والأمر في ذلك أشهر من ان يذكر » • وانظر ايضاً : مروج الذهب ٤/١٣٧ ، والمستطرف للابشيهي ١/١٨٧ ، وتاريخ الخلفاء ص٣٥٧ •

به من وخز الضمير ، وعظم الجناية. بل ان ما كان يراه في منامه ـ اذا صح ـ من مقاضاة أبيه له ، وتعزيره على فعلته صدى لما كان يكابده من الشعور بالذنب ، ولما يعتلج في صدره من العذاب النفسي [١] .

ولعل قصة البساط وما احتواه من صور لبعض من سبق المنتصر من القتلة لآبائهم وذوي رحمهم ، صورة أخرى من صور استنكار الناس لهذا العمل الفظيع . فقد أشار كثير من المراجع الى قصة هذا البساط وفحواها : ان بساطاً فرش في أحد أروقة قصر المنتصر وكان يشتمل فيما يشتمل على صورتين ، احداهما تمثل صورة (شيرويه) قاتل أبيه (أبرويز) وقد ملك ستة أشهر ، وثانيتهما ، تمثل صورة يزيد بن الوليد بن عبدالملك قاتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبدالملك وقد ملك ستة أشهر ، وحين رأى هذا البساط بعض حاشية المنتصر أخبر وصيفاً وبغا بأمره ، فأمرا برفعه واحراقه . وتربط القصة بين الصورتين ومدة حكم كل من صاحبهما ، وبين عمل المنتصر ومدة حكمه وهي ستة أشهر [٢] .

وأكبر الظن ان هذا الأمر ـ اذا صح ـ كان مدبراً من قبل الاتراك أنفسهم للنيل من المنتصر وارهاق أعصابه ، وتذكيره بجرمه العظيم دائما .

على ان شكاً يخامرنا في صحة هذه الحكاية ، حكاية البساط ، ولا يستبعد أن يكون أحدهم وضعها توخياً لاظهار الأثر السيء لفعل الابن ازاء والده !

ان قتل المنتصر لوالده كان عملاً فظيعاً استنكره الكثيرون ، حتى روى عن والدته حبشية قولها : « بات عندي المتوكل ليلة وخرج من عندي نصف الليل ، فغلبتني عيني ، فرأيت قائلاً يقول لي في النوم ، يا حبشية ؟ حملت

---

(١) الطبري ٩/٢٥٢ ، الكامل ٧/١١٥ .

(٢) انظر : المروج ٤/٤٦ ـ ٤٧ ، ذيل الأمالي للقالي ص٨٦ ، وتاريخ الخلفاء ص٣٥٧ .

الليلة بأشأم خلق الله ، فكان المنتصر ... »[١] . وسواء صح الحلم أو لم يصح فانه يدل دون ريب على استفظاع العمل الذي ارتكبه المنتصر هذا .

ولم يُمدَّ للخليفة الجديد في عمره طويلاً اذ وافاه أجله بسامراء بالقصر المحدث بعد نحو ستة أشهر من استخلافه ، وقد اختلف في وفاته[٢] .

لقد امتدح المنتصر عدد من الشعراء ، في مقدمتهم يزيد بن محمد المهلبي ، والحسين ابن الضحاك[٣] .

أما شاعرنا البحتري فله فيه مدحة واحدة ، تقع في ستة وثلاثين بيتاً ، ويبدو انها المدحة التي أوصلها احمد بن الخصيب للخليفة الذي كان غضبان على الشاعر ، لامر قد يكون استبطاؤه له هو السبب لهذا الغضب . ومن الجدير ذكره ان القصيدة لا تنطوي على أية اشارة يستشف منها غضب الخليفة عليه .

وقد استهلها بالغزل الذي شكا فيه من كبر سنه وصدود محبوبته علوة عنه ، ثم أشار الى حجته ، وهي الحجة الاولى له التي ـ كما يظن ـ كانت بسبب اغتيال المتوكل ، وشعوره بالأسى والحزن ، لما آل اليه أمره بعد مقتل وليّ نعمته . ويبدو ان هذه الحجة لم تكن للتقى وقضاء الفريضة ، بدليل اشارة المعريّ الى ذلك في قوله :

جحَّ من غير تقىً صاحبُنا ... كأخي بحترَ عام المنتصرْ

واذا صحّ هذا فقول الشاعر في أمر هذه الحجة ، بعيد عن الحقيقة ، ثم استطرد البحتري بعد هذا البيت مثنياً على خلال الممدوح وصفاته ، فنعته

---

(١) ذيل الأمالي ٨٧ .

(٢) انظر : الطبري ٢٥٤/٩ ، ومروج الذهب ٤٩/٤ ، والكامل في التاريخ ١١٤/٧ ـ ١١٥ وتاريخ الخلفاء ٣٥٧ .

(٣) انظر : اخبار البحتري ١٠٠ ـ ١٠١ ، الاغاني ١٧٠/٨ ـ ١٧١ ، مروج الذهب ١٣٥/٤ ، معجم الادباء ٦/١٠ ـ ١٢ .

بالحلم والحزم ، والانعام والعفو ، وبالسير على خطة ثابتة قويمة ليس فيها تناقض ولا تنافر ، وأشار الشاعر الى تلافي الخليفة الرعية من فتنة عمياء كادت ان تعمَّ الناس ، ويستفحل أمرها ، ولعله يشير الى ما أصاب الناس من اضطراب بعد اغتيال والده ، وان كانت المراجع لم تشر الى شيء من هذا .
وعاد البحتري بعد سرد عدد من صفات الحزم والعزم والسداد أيضاً التي تحلّى بها المنتصر في القضاء على الشغب الذي استطار في البلاد الى الاشادة بعمله الذي فرح به البحتري حقاً وهو رفع الحيف عن الطالبيين الذين وجدوا العنت والاطراح في عهد أبيه المتوكل . فقد ذكر الصولي انه « لما تمت بيعة المنتصر ، كان اول شيء عمله ان عزل صالح بن علي[1] عن المدينة وولاها علي بن الحسين بن اسماعيل بن العباس بن محمد ، وقال له : انما وليتك لتخلفني في برّ آل أبي طالب وقضاء حوائجهم ورفعها اليّ ، فقد نالتهم جفوة ، وخذ هذا المال ففرقه فيهم وفي أهلك على أقدارهم ، فقال : سأبلغ بعون الله رضا أمير المؤمنين ، قال : اذن تسعد بذلك عند الله تعالى وعندي . وأحبَّ المنتصر ان يشتهر فعله ذلك ويمدح به فكان اول من فطن له البحتري فأنشده :

تبسَّم عن واضح ذي أشر وفيها :
وآل أبي طالب بعدما أُريع بسربهم فابذعر

فوصله وأجزل ، ولم يكن يصل الشعراء الا قليلاً ... »[2] .

ولا أدلّ على فرحة البحتري بهذا العمل من استرساله في التحدث عنه ، وتخصيص عشرة أبيات من القصيدة في الثناء على الطالبيين وحقهم في

(١) جاء في الديوان ٢/٨٥١ هامش (٣٦) ــ نقلاً عن الطبري وابن الاثير ــ كما يقول الشارح صالح بن وصيف ، ولكن الطبري لم يشر الى اسم الوالد ٩/٢٥٤ ، اما ابن الاثير فذكر انه صالح بن علي ٧/١١٦ .
(٢) اخبار البحتري ص١٠٠ ــ ١٠١ وانظر : الطبري ٩/٢٥٤ ، ومروج الذهب ٥/٥١ .

الانصاف وصلتهم بالعباسيين ، والتذكير بما بينهما من اواصر القربى ووشائج الرحم • ولم يخف الشاعر – وقد وجد متنفساً للقول – ما كان يشعر به من ميل نحو الطالبيين لم يتسنَّ له الافصاح عنه في عهد المتوكل – ففاضل بين الامام علي وبين عمر بن الخطاب ، فأشار الى تفضيل الاول على الثاني ، وان لم يجحد فضل الأخير ، فقال :

تبسَّمُ عن واضحٍ ذي أُشُر ... وتنظر عن فاترٍ ذي حَوَر
وتهتز هزَّة غصن الأرا ... ك عارضه نشر ريح خصر
وماذا أرادت الى مُحْرِمين ... يجرّون وهناً فضول الأزر
سروا مُوجفين لسعي الصفا ... ورمي الجمار ، ومسح الحجر
حججنا البَنيَّة شكراً لما ... حبانا به الله في المنتصر
من الحِلم عند انتقاص الحلو ... م ، والحزم عند انتقاض المِرر
تطوّلَ بالعدل لما قضى ... وأجملَ في العفو لما قدر
ودام على خلق واحدٍ ... عظيمَ الغناء ، جليل الخطر
ولم يسعَ في الملك سعي امرئٍ ... تبدَّا بخير ، وثنّى بخير
ولا كان مختلفَ الحالتين ... يروح بنفعٍ ، ويغدو بضر
ولكن مصفّى كماء الغما ... م طابت أوائلُه والأخر
تلافى الرعيّة من فتنة ... أظلَّهم ليلُها المعتكر
ولما ادلهمتْ دياجيرها ... تبلّجَ فيها فكان القمر
بحزم يجلّي الدُّجى والعمى ... وعزم يقيم الصِّغا والصَّعَر
سداد فتلتَ به يومَ ذا ... ك حبلَ الخلافة حتى استمر
وسطو ثبتَّ به قائماً ... على كاهل المُلْك حتى استقر
ولو كان غيرك لم ينتهضْ ... بتلك الخطوب ، ولم يقتدرِ
رددتَ المظالم واسترجعتْ ... يداك الحقوق لمن قد قهِر
وآلُ أبي طالب بعدما ... أُذيع بسربهم فابذعر
ونالت أدانيهم جفوةٌ ... تكاد السماءُ لها تنفطر

وصلتَ شـوابكَ أرحامهـم ... وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقرّبت مـن حظهـم ما نأى ... وصفيّتَ من شربهم ما كدر
وأيـن بكـم عنهـم واللقـا ... ءُ لا عن تناءٍ ولا عن عُفُرْ[1]
قرابتكُـمْ بـل أشـقاؤكم ... واخوتُكم دون هذا البشـر
ومن هُمْ وانتم يدا نصـرةٍ ... وحدًا حسـام قديم الأثر
يُشـاد بتقديمكم في الكتابِ ... وتُتْلَى فضـائلكم في السـور
وانّ عليـاً لأولى بكـم ... وأزكى يداً عندكم من عمر
وكل له فضـلُهُ والحُجُـو ... ل يوم التفاضل دون الغُرَرَ
بقيت امامَ الهـدى للهـدى ... تجدِّد من نهجه ما دثر[2]

والقصيدة ـ في ظننا ـ لا ترتفع الى مستوى مدائحه في المتوكل ، فهي ـ كما نرى ـ فاترة العاطفة ، يغلب عليها طابع التكلف • والشاعر لم يحاول ان يهنىء المنتصر بالخلافة التي اكثر منها في مدائحه لوالده ، وكرّر صفات الحزم والعزم والسداد وما الى ذلك اكثر من مرة • والبحتري في هذا غير ملوم ، فهو لم يجد مادة للقول حتى يقول ، واكبر الظن ان ما في قرارة نفس الشاعر من البغض للخليفة الجديد واستكاره لفعلته بوالده ، حالا بينه وبين ما يريد قوله فيه ، ومن هنا نجد ان مرثيته في المتوكل كانت الثورة الحقيقيلة لنفس البحتري المتألمة ، والتي جهد ان يضع فيها المنتصر موضعه الحقيقي من المؤامرة ، وعلى الرغم من قدرة الشاعر على التلون والتقلب ومراعاة الظروف ، فانه ـ كما يخيل الينا ـ لم يستطع ان ينجح في موقفه مع المنتصر هذا • ولعل هذا هو السبب في استطراده الكثير في الاشادة بالطبيين ، ووجوب رعايتهم ، ورفع الحيف عنهم •

والقصيدة بعد ذلك جيدة السبك ، رائعة اللفظ ، لا تخلو مـن التقسيم في بعض أبياتها ، ومن الترصيع بشيء من الصناعة اللفظية • ولا سيما الجناس والطباق •

---

(١) العفر : البعد وطول العهد •

(٢) الديوان ٢/٨٤٨ ـ ٨٥١ •

الفصل الثاني
البحترى والمستعين

المستعين :

المستعين هو ابو العباس احمد بن محمد المعتصم[1] ، وأمه أمّ ولد صقلبية اسمها مخارق[2] . استخلف بعد وفاة المنتصر سنة ٢٤٨هـ . ويبدو مما ذكره المؤرخون ان استخلافه كان بموافقة كبار قادة الأتراك كوصيف وبغا وأوتامش ابن اخت بغا الكبير[3] ، ذلك انهم أبعدوا عن الترشيح للخلافة اولاد المتوكل خشية منهم ان يأخذوا بثأر أبيهم[4] ، وانفرد ابن شاكر الكتبي بالقول في ان المستعين كان قبل استخلافه ! « خاملاً يرتزق بالنسخ »[5] .

---

(١) أشار كثير من المصادر الى انه (أحمد بن محمد بن المعتصم) ، انظر : الطبري ٢٥٦/٩ ، مروج الذهب ٦٠/٤ ، التنبيه والاشراف ص٣١٥ ، وفيه « أحمد بن محمد بن محمد المعتصم » ، تاريخ بغداد ٨٤/٥ ــ ٨٥ ، الكامل ١١١/٧ ، وحاول ابن الاثير ص١١٨ ان يفنّد ما ذكره ابن مسكويه في تجارب الامم من ان المستعين أخو المتوكل لأبيه ، بيد ان الحصري ذكر في جمع الجواهر ص٢١ انه احمد بن المعتصم ، كما ذكر ذلك السيوطي في تاريخ الخلفاء ص٣٥٨ ، وذكر ذلك ايضاً صاحب محاضرة الابرار ٣١/١ ، وجاء ذلك ايضاً في اخبار أبي تمام للصولي ص٢٣٠ ، ٢٣٢ ، في معرض مدح ابي تمام للمستعين قبل ان يلي الخلافة ، وانظر : الموشح للمرزباني ص٥٠١ ، وديوان أبي تمام ٢٤٢/٢ ، ٢٥٠ .

(٢) انظر : العقد الفريد ١٢٣/٥ ، المروج ٦٠/٤ ، التنبيه والاشراف ص٣١٥ ، تاريخ بغداد ٨٤/٥ ، محاضرة الابرار ٣١/١ ، وفيها ان امه سقلابية ، يقال لها محارفة ، وهو تحريف كما ترى .

(٣) التنبيه والاشراف ص٣١٥ .

(٤) الطبري ٢٥٦/٩ ، تاريخ اليعقوبي ٢٢٦/٣ ، الكامل ١١٧/٧ ، ١٣٩ ، فوات الوفيات ١٢٦/١ .

(٥) فوات الوفيات ١٢٦/١ .

وكان مربوعاً ، أحمر الوجه ، أشقر ، مُسْمِناً ، عريض المنكبين ، ضخم الكراديس ، خفيف العارضين ، بوجهه أثر الجدري ، ألثغ بالسين »[1] . كما أشارت المصادر أيضاً الى شيء آخر من صفاته ، فقال صاحب كتاب الفخري : « واعلم ان المستعين كان مستضعفاً في رأيه وعقله وتدبيره . ولم يكن فيه من الخصائص المحمودة الا انه كان كريماً وهوباً»[2]. وذكر صاحب النجوم الزاهرة بانه كان « جواداً سمحاً يطلق الألوف ، وكان متواضعاً »[3] . كما كان لطيف الأخلاق ، ليّن الطبع »[4] .

وأشار المسعودي الى انه « كان حسن المعرفة بأيام الناس وأخبارهم ، لهجاً باخبار الماضين »[5] .

ويبدو ان المستعين كان ـ كما قال ابن الطقطقى ـ مستضعفاً ، ولعل ما ذكره ابن تغري بردي من انه « قال يوماً لأحمد بن يزيد المهلبي : يا أحمد ، ما أظن أحداً من بني هاشم الا وقد طمع في الخلافة لما وُليتُها لبعدي عنها »[6] دليل على هذا الضعف الذي لمحه فيه بنو هاشم . كما ان من دلائل استضعافه حيال الأتراك الذين جاؤا به الى الخلافة ، ما قاله أحد الشعراء فيه :

---

(١) العقد الفريد ١٢٣/٥ ، التنبيه والاشراف ص٣١٥ ، تاريخ بغداد ٨٥/٥ ، تاريخ الخلفاء ص٣٥٨ ، فوات الوفيات ١٢٤/١ .

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ص٢٤١ .

(٣) النجوم الزاهرة ٣٣٦/٢ .

(٤) فوات الوفيات ١٢٥/١ .

(٥) مروج الذهب ١٥٦/٤ .

(٦) النجوم الزاهرة ٣٣٦/٢ .

خليفـــةٌ فـــي قفصٍ بينَ وصـــيفٍ وبغـــا
يقـــولُ ما قالا لـــه كمـــا تقولُ الببغـــا[1]

وقد استغل ضعفه عدد من الامراء والقواد فشقوا عليه عصا الطاعة، وحاولوا الاستقلال باجزاء مختلفة من الدولة[2] . وقد أشار ابن الطقطقى الى ذلك في قوله : « وكانت أيامه كثيرة الفتن، ودولته شديدة الاضطراب[3] . وقد أطلق يد والدتـه ويد أوتامش وشـاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكـانوا يقتسـمون الأموال التـي ترد من الآفاق فيما بينهم[4] ، ويحـرم الناس الآخرون منهـا . ومن أجـل هذا فقد عظمت ثروة والدته وزادت زيادة فاحشة . وقصة بساطها ـ اذا صحت ـ أكبر مثال على هذا الثراء العريض . ولعل من المستحسن ذكر قصة هذا البساط لما فيها من دلالة على البذخ والاسراف الكثير ، والعبث بأموال الدولة . فقد روى الابشيهي في المستطرف ان احمد بن حمدون النديم قال : « عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب ، وأعينهم يواقيت وجواهر ، أنفقت عليه مائة الف الف دينار وثلاثين ألف دينار ، وسألته أن يقف وينظر اليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته ، قال أحمد بن حمدون : فقال لي ولا ترجة الهاشمي : اذهبا فانظرا اليه وكان معنا الحاجب فمضينا ورأيناه فوالله ما رأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه ولا شيئاً حسناً الا وقد عمل فيه ، فمددت انا يدي الى غزال من ذهب ، عيناه ياقوتتان فوضعته في كمي ، ثم جئناه فوصفنا له أحسن ما رأينا ، فقال أترجة : يا أمير المؤمنين انه قد سرق منه شيئاً وغمزه على كمي فأريته الغزال فقال : بحياتي عليكما ارجعا فخذا ما أحببتما

---

(١) مروج الذهب ٤/١٦١ ، تاريخ الخلفاء ص٣٥٨ .
(٢) انظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٩ ، الطبري ٩/٢٦٦ ـ ٢٧٥ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ ـ ٣٧٣ ، الكامل ٧/١٣٤ .
(٣) الفخري ص٢٤١ .
(٤) الكامل ٧/١٢٣ .

فمضينا فملأنا أكمامنا وأقبيتنا وأقبلنا نمشي كالحبالى ، فلما رآنا ضحك ، فقال له بقية الجلساء : ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين ، فقال : قوموا فخذوا ما شئتم ، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك . ونظر يزيد المهلبي سطلاً من ذهب مملوءاً مسكاً فأخذه بيده وخرج ، فقال له المستعين : الى أين ؟ فقال : الى الحمام يا أمير المؤمنين ، فضحك من قوله .

وأمر الفراشين والخدم ان ينتبهوا الباقي فانتهبوه ، فوجهت اليه امه تقول : سرّ الله أمير المؤمنين ، لقد كنت أحب ان يراه قبل ان يفرقه ، فانني انفقت عليه مائة الف الف وثلاثين الف دينار ، فقال : يحمل اليها مثل ذلك حتى تعيد مثله ، ففعلت ومضى حتى رآه ، وفعل به كفعلـه الاول »[1] .

لقد وصف المستعين بالكرم ، كما أسلفنا ، فكان يجزل العطاء للادباء والشعراء ، كما كان يخصص مرتبات لبعضهم ، فقد أعطى محمد بن يزيد المهلبي مائتي الف درهم عند زيارته له ، فقال في ذلك :

وخصصتني بزيارة أضحى (لها)[2]	مجدي بها طولَ الزمان مؤثـــل
وقضيت دِيْني ، وهـــو دين وافر	لم يقضه ـ معْ جوده ـ المتوكل[3]

---

(١) المستطرف ١٦٤/١ ، وانظر : تاريخ التمدن الاسلامي ١٣١/٢ ، وقد شك زيدان في ان يكون المبلغ دنانير ، فقال : « ربما دراهم » . ومرّ بنا في الكلام على بذخ المتوكل في اعذار المعتز اشارة الثعالبي الى مثل ، وكان القائل ابن حمدون القديم .

ومن الجدير بالذكر ان الصولي اشار في أخبار البحتري ص١٠٤ ـ ١٠٥ عن عبدالله بن المعتز انه قال : « كان أبي يحب أن يسمع ثلب المستعين، ويقول : انه خرّب الملك خراباً لا ينجبر بعده ، وما اشبّهه الا بلص دخل الى دار مملوءة ، فجعل يستلب ويأخذ ما ليس له ! فما فطن لذلك أحد كما فطن البحتري ، فصارت بذلك له عنده حظوة وتمكن » .

(٢) في المستطرف (لنا) ولعل الصحيح ما أثبتناه .

(٣) نفسه ١٢٥/١ .

كما خصص مرتباً للبلاذري أحد جلسائه لاجادته القول فيه[1] .

وأشار البحتري في احدى مدائحه فيه الى اعادة رزقه الجاري عليه ، كما سنذكر فيه بعد .

وبقي المستعين في سامراء الى سنة ٢٥١هـ حيث اضطر الى الفرار مع وصيف وبغا والانحدار الى بغداد ، بعد ان تألب ضده الموالي بسبب قتل باغر التركي قاتل المتوكل[2] وقصده بعض قادة الاتراك من سامراء ملتمسين منه الرجوع اليها ، وطالبين الصفح عما بدر منهم ، وانهم يعاهدونه على الطاعة والخضوع ، غير ان هذا الالتماس لم يفلح ، فاضطر الاتراك في سامراء الى مبايعة المعتز بن المتوكل ، وخلع المستعين من الخلافة ، فانقسم الناس فئتين : فئة تشايع المستعين وهم أهل بغداد وأخرى تساند المعتز وهم اهل سامراء ، وحدث بينهما صراع دموي عنيف استمر الى اول سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، حيث خلع المستعين نفسه ، فأحدر الى واسط ، وأقام فيها تسعة أشهر ثم ردّ الى سامراء حيث قتل في منطقة القادسية وله من العمر احدى وثلاثون سنة وقيل غير ذلك[3] .

مدائح البحتري فيه :

للبحتري اربعة مدائح في المستعين ، يبلغ عدد اباتها (٨٣) ثلاثة وثمانين بيتاً ، تناول فيها الى جانب مدحه مدح ابنه العباس ، ومدح وزيره ابن يزداد ، كما هجا فيها وزيرين من وزراء المستعين ايضاً ، وهما اوتامش واحمد بن الخصيب .

---

(١) انظر : وفيات الاعيان ٧٦/٥ ـ ٧٧ .

(٢) الطبري ٢٨٧/٩ ـ ٢٨٠ ، المروج ٧٧/٤ .

(٢) انظر : الطبري ٣٦٢/٩ ـ ٣٦٤ ، مروج الذهب ٧٧/٤ ، التنبيه والاشراف ص٣١٥ ، تاريخ بغداد ٨٤/٥ ـ ٨٥ ، تاريخ الخلفاء ص٣٥٨ .

مدح الخليفة وهجاء وزيره :

ولعل من اوائل مدائحه فيه لاميته التي تقع في (١٩) تسعة عشر بيتاً ، خمسة الأبيات الاولى منها في مدح المستعين ، وما تبقى في هجاء احمد بن الخصيب ، والصفات التي أسندها الشاعر للخليفة هي الصفات نفسها التي نعت بها سابقيه من الخلفاء والأمراء . فهذا الغيث في انهماره وانصبابه ، وهذا الليث في وقاية أشباله وحياطتهم لا يدانيان المستعين المستعان الذي تمت له النعماء ، وبان احسانه وافضاله . والجدير بالذكر ان البحتري استخدم فيما بعد نفس كلمة المستعان في معرض هجائه للمستعين . وهذا الخليفة يسير على هدى رسول الله ، وانه ابن احفاده المشهورين المعروفين ، وان حسن الزمان مرتبط باحسانه ، ورخاءه منوط بتفضله وانصاله ، وانه يحفظ ملكه باشرافه على أقطاره ، ويحصنه بتيقظه وانتباهه . وبعد هذه الأوصاف التي تلوح عليها أمارات التكلف ينتقل الشاعر الى صب جام غضبه على ابن الخصيب فينعته بخيانة الخليفة في نفسه ، وفي حاشيته وامواله، وبعد ان يتسلسل الشاعر في ثلب المهجو بألفاظ لا تخلو من الشماتة والحقد، يلفت نظر الخليفة الى وجوب الاسراع في قتله ، واستصفاء امواله ، جزاء عمله وخيانته .

ولكي تبدو الصورة اكثر وضوحاً يحسن أن نشير الى شيء يتصل بابن الخصيب هذا ، والشاعر نفسه ، فابن الخصيب وزر للمستعين في أول استخلافه ، ولكنه لم يمض على استيزاره سوى أشهر قليلة حتى غضب عليه الموالي فنفاه المستعين الى جزيرة اقريطش في جمادى الآخرة سنة ٢٤٨هـ[١] .

وذكر الصولي في أخبار البحتري ما يتصل بهذا الهجاء فقال :

---

(١) انظر : تاريخ اليعقوبي ٢٢٦/٣ ، والطبري ٢٥٩/٩ ، المروج ٤٨/٤ ، الكامل في التاريخ ١١٩/٧ ، الفخري ص٢٣٩ ، ٢٤٢ .

• حدثني سوار ابن أبي شراعة قال : قال لي أحمد بن ابي طاهر : ما رأيت أقلَّ وفاء من البحتري ، ولا اسقط ، رأيته ينشد أحمد بن خصيب مديحاً له ، فحلف عليه ليجلسن ، ثم وصله واسترضى له المنتصر ، واوصل مديحه اليه ، وأخذ له منه مالاً ، ثم نكب المستعين احمد بن الخصيب بعد نعله هذا بمديدة فاذا هو ينشد :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى ... بافكـــه المـــردي وابطالـــه

وصار ابن القحبة فقيهاً يفتي الخلفاء في قتل الناس ، فختم قصيدته بقولـــه :

والـــرأي كل الرأي فـــي قتلـه ... بالسيف واستصـــفاء أموالـــه(١)

أما القصيدة فمنها :

ما الغيث يَهمي صـــوب اسباله ... والليث يحمى خيس أشباله
كالمستعين المُـــستعان الـــذي ... تَمّتْ له النعمى بافضـــاله
تلوِ رســول الله في هديـــه ... وابن النجوم الزُهر من آلـه
من تحســنُ الدنيا باحســانه ... ويجمــل الدهرُ باجمالـــه
ويحفظ الملـكَ باشـــرافه عـــلى ... نواحـــيه واطـلالـــه

* * *

لابن الخصيب الويلْ كيف انبرى ... بافكـــه المـــرْدي وابطالـــه
كـــادَ أمين الله في نفســـه ... وفي مَواليـــه ، وفي مالـــه

(٢) اخبار البحتري ص١١٢ ـ ١١٣ ، وانظر : الموشح للمرزباني ص٥١٥ ـ ٥١٦ · ومن الجدير بالذكر ان الدكتور طه حسين قد وهم حين تحدث عن هجاء البحتري للقواد والامراء والوزراء ، فزعم انه مدح كاتباً من كتاب المستعين هو شجاع ، ثم لما غضب المستعين على شجاع وسجنه أسرف البحتري في الشماتة به ، ودخل على المستعين وانشده قصيدة يحرضه فيها على قتله واستصفاء امواله · وكما مرّ في الخبر الآنف ان الذي هجاه البحتري وطلب قتله واستصفاء أمواله هو أحمد بن الخصيب وزير المستعين لا شجاع، أما شجاع هذا وهو كاتب اوتامش فقد قتل بأيدي الاتراك كما سيأتي ·

ورامَ في الملك الذي رامه … بغشّه فيه وادغاله
فانزل الله به نقمة … غيّرت النعمةَ من حاله
وساقه البغي الى صرعة … للحَين لم تخطر على باله

* * *

يا ناصر الدين انتصرْ موشكاً … من كائد الدين ومُغتاله
فهو حلال الدم والمال ان … نظرتَ في باطنِ أحواله
رام الذي رام ، وسدّى الذي … سداه من مُوبق أفعاله
والرأي – كلُّ الرأي – في قتله … بالسيف واستصفاءِ أمواله[1]

مصرع اوتامش وكاتبه :

ويبدو ان المدحة الثانية التي أنشأها في المستعين كانت بعد مصرع اوتامش وكاتبه شجاع بن القاسم . وكان اوتامش هذا من قواد الاتراك الذين لعبوا دورا كبيرا في ترشيح المستعين للخلافة ، فكان ثالث ثلاثة اطلقت أيديهم للاستحواذ على أموال الدولة والتصرف بها ، كما جعل المستعين ابنه العباس في حجر اوتامش هذا ، وعقد له في سنة **٢٤٨**هـ على مصر والمغرب ، واتخذه وزيرا ، وما لبث ان استولى على الخليفة ، وأخذ ينفذ أمور الخلافة كما يشاء ، حتى اوغر ذلك صدور الموالي ضده ، فتألبوا عليه وحاولوا الفتك به ، وكان يقيم مع المستعين في الجوسق ، وحين بلغه الخبر أراد الهرب فلم يمكنه ذلك فاستجار بالمستعين فلم يجره ، فأخذه الموالي وقتلوه وكاتبه شجاع بن القاسم في سنة **٢٤٩**هـ وانتهبوا داره[2] .

وقصيدة البحتري هذه تؤرخ هذا الحادث ، وهي من **(١٩)** تسعة عشر بيتا أيضا ، خصص الأبيات الستة الاولى منها في هجاء اوتامش وكاتبه

---

(١) الديوان ٣/١٦٣٦ – ١٦٣٧ .
(٢) انظر : الطبري ٩/٢٦٣ – ٢٦٤ ، تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٦ ، الكامل ٧/١١٧ – ١٢٠ ، الفخري ص ٢٤٢ .

شجاع ، وأشار الى انتصار الخليفة على خصومه ومعاديه ، فوطد بهذا النصر أركان دولته وأساطين ملكه ، ثم انتقل الى النيل من اوتامش وكاتبه ، فذكر كيف كانت عقبى فسادهما ، وانهما نالا ما نالا من الفتك بهما جزاء تماديهما في الغي ، ولجاجتهما في العناد والفساد ، وان مخالفتهما للموالي (الاتراك) لم تعد عليهما الا بالخسران والضلال ، وانهما كانا مبتدرين في انتهاب أموال الدولة ، وماضيين في افساد أمور الملك ، وهذا يعني هضم الخلافة ، وظلم الرعية واضطهادها • وبعد ان بين الشاعر مساوىء هذين الرجلين وفسادهما التفت الى الخليفة مخاطبا اياه وداعيا له بالسلامة ومشيرا الى قيامه بملافاة الأمر ، وتصحيح الخطأ ، وانه بعمله هذا وهو التخلص من هذين العابثين ، قد أعاد الامور الى حالتها الطبيعية : من العدل والانصاف ، فشمل عطاؤه وكرمه آفاق البلاد وارجاء الدولة •

والبحتري لا يريد ان يجعل قصيدته هذه في هجاء اوتامش وكاتبه وانما سلك مع هذا الغرض غرضا آخر وهو تعرضه لمدح ابن المستعين الذي رغب والده في توليته العهد بعده ، وقد أشار الى ذلك صراحة في مدحة أخرى له •

والبحتري في عمله هذا يحذو حذو أبي تمام الذي أثنى على المستعين حين كان صبيا لا يتجاوز العاشرة من عمره • فالبحتري يهنىء المستعين بهدى ابنه العباس ورشاده ، ويشير الى ولايته العهد • وقد ذكرت المراجع التاريخية عمل المستعين هذا ، فقال المسعودي : « وفي سنة تسع وأربعين ومائتين عقد المستعين لابنه العباس على مكة والمدينة والبصرة والكوفة ، وعزم على البيعة له ، فأخرها لصغر سنه ... »[1] فالرعية قد باركت هذا هذا العمل وأخلصت له الود ، وهذا العباس ــ وهو طفل ــ ملك أجمعت قلوب الناس على محبته ، وسر به القريب والبعيد ، ووضع أمله فيه الموالي

---

(١) المروج ٤/٧٠

والمعادي ، وانه شفيع المسلمين الى الخليفة في ما يرجون من عطاء ، وفيما يأملون من صنيع ، وان اباه ـ تمكينا له وشداً لازره ـ نزل له عن الخمسين مما يجبى من أرض العراق . وبعد هذا الثناء على ابن الخليفة الطفل ، يعلن الشاعر صراحة انه يرجو الخليفة وابنه ، ويأمل منهما عطاء مستفاداً وانه لواثق بأن سعيه لا يخيب ، ما دام الخليفة مقصده ، وما دام اعتماده عليه ؟ وانه ليرجو أن ينال من هباته ما يعود به الى أهله بجر الحقائب ، أو يحصل على شيء في بلاده يعود عليه بالتجلة والتبجيل ، ولعله يلمح بذلك الى منحه ضيعة أو اقطاعه أرضا :

لقد نُصر الامام على الاعادي ... وأضحى الملكُ موطودَ العماد
وعرّفت الليالي في شجاع ... « وتامشَ » كيف عاقبه الفساد

تمادى منهما غيٌّ فلجا ... وقد تُرْدي المجاجة والتمادي
وضلاً في معاندة الموالى ... فما اغتبطا هنالك بالعناد

بدارٌ في اقتطاع الفيء جمٌّ ... وسعي في فساد الملك بادي
بهضم للخلافة وانتقاصٍ ... وظلم للرعيّة واضطهاد

* * *

أميرَ المؤمنين اسلم ، فقدما ... نفيتَ الغى عنا بالرشاد
تدارك عدلُكَ الدنيا فقرّت ... وعم نداك آفاق البلاد

* * *

ليهنك في ابنك العباس هَدْى ... تبيّنَ من رشيد الأمر هادي
أقمت به ، ولم تألُ اختياراً ... سبيلَ الحج فينا والجهاد

تولته القلوبُ وبايعتْه ... باخلاصِ النصيحة والوداد
هو الملك الذي جُمعتْ عليه ... على قدرٍ محبات العباد
فسُرَّ به الأداني والأقاصي ... وأمّله المُوالي والمعادي
شفيعُ المسلمين اليك فيما ... تُنيلُ من الصنائع والأيادي

نزلت لـه عن الخمسين لما تـكلّم في مقاسـمة السـواد
واني أرتجيـك وارتجيـه لديك لنائل بـك مستفاد
أبعدُ حاجتي واليك قصدي بها ، وعلى عنايتك اعتمادي ؟
وأقربُ ما يكون النجح يوماً اذا شفع الوجيـه الى الجواد
لعلي ان أشرّف بانصرافي بطولك ، او أبجل في بلادي[1]

ولهذه القصيدة حكاية ذكرها الصولي في أخبار البحتري تدل على اطراح المستعين للشاعر ، كما تدل على مجازاة البحتري لمن يحسن اليه بالاساءة اذا صح ما ذكر • فقد روى الصولي عن أحمد بن يزيد المهلبي انه قال : « قال لي أحمد بن خلاد لا أعرف أحدا أخبث أصلا وفرعا ، ولا أكفر لاحسان من البحتري : دخل على المستعين بعد قتل اوتامش وكاتبه شجاع ، وانا اذكرته به فأنشده :

لقد نصر الامام على الاعادي وأضحى الملك موطود العماد
وعرفت الليالي في شجاع وتامش كيف عاقبة الفساد

وتمم القصيدة ، فلم يأمر له المستعين بشيء ، فما زلت أصفه ، وأشهد بالموالاة له ، حتى دفع اليه خريطة كانت في يده مملوءة دنانير ، فكانت ألف دينار ، ودعا بغالية فغلفه بيده ، فلما خلع المستعين وولى المعتز ، دخل اليه فأنشده :

يجانبنا في الحب من لا نجانبه

وقد ذكر فيها المستعين بما ذكر ، ثم لم يرض حتى ذكرني في شعره فقال :

يجوز ابن خلاد على الشعر عنده ويضحى شجاع وهو للجهل كاتبه

قال : فوالله ما حظي من المعتز في هذه القصيدة بطائل ، حتى رجع الى منبج خائبا »[2] •

(١) الديوان ١/٥٢٤ ـ ٥٢٦ •
(٢) أخبار البحتري ص١٠٣ ـ ١٠٤ ، وانظر : الموشح ص٥١١ •

اعادة رزقه الجاري :

والمدحة الثالثة تقع في سبعة وعشرين بيتا ، جعل عشرة الأبيات الاولى منها في الغزل ، وخص الخليفة بستة أبيات فقط . أما ماتبقى من القصيدة فكان في مدح ابي صالح عبدالله بن محمد بن يزداد وزير المستعين الذي مدحه البحتري بست قصائد أخرى . وابن يزداد وزير للمستعين بعد مقتل اوتامش . ويبدو ان ابن يزداد هذا قد ضبط الاموال وشدد في المحافظة عليها ، فصعب ذلك على أمراء الدولة ، وكان قد ضيق عليهم ، فتهددوه بالقتل فهرب .

والابيات التي قيلت في المستعين يبدو عليها طابع التكلف وهي ترداد للصفات التي أسندها لغيره من الخلفاء ، فالله ضاعف محاسن الدنيا حين انتخب لها ملكا كالمستعين يتولى ادارة ملكه ، وهو حين يقابل في بني العباس فمحله محل النجوم منهم والأقمار ، وان غرته لتتلألأ وضاءة وضاحة اذا ما أسفر أو لاحت عليه أمارات البشر والانشراح ، وقد عم رعيته بالاحسان وغمرهم بالنعم بعد خصاصة مطبقة ، وفاقة مضنية ، فانقذهم بعد أن أشرفوا على هاوية مخيفة وأمر خطير . وفي الأبيات التي مدح فيها ابن يزداد اشارة الى اعتراف البحتري بأن كان له رزق جارٍ في عهد المستعين رده عليه ابن يزداد هذا :

قد ضاعف الله للدنيا محاسنَها	بمُلك منتخب للمُلك مختار
مقابل في بني العباس ان نُسبوا	في أنجم شُهرت منهم وأقمار
يريك شمس الضحى لألاءُ غرته	اذا تبلج في بشر واسفار
اولى الرعية نُعمى بعد مبأسة	تمت عليهم ، ويسراً بعد اعسار
أنقذتهم يا أمين الله مُقتلتاً	وهم على جُرُف من أمرهم هار

. . .

أأرهب الدهرَ وأخشى تصُّرفه	والمستعين معيني فيه اوجاري

وانت ما أنت في رندى وحيطتي ... قدما ، وايجاب تقديمي وايثاري
فكيف تهمل أسبابي وتغفل عن ... حظي ، وترضى باسلامي واخفاري
تات في رسمي الجاري بعارفة ... كما تأتيت لي في رزقي الجاري [١]

الحث على تجديد البيعة لابنه :

ويبدو ان البحتري قد جعل هذه المدحة وهي الرابعة آخر مدائحه في المستعين ، وفي حثه على تجديد البيعة لابنه العباس، وقد أشار الصولي الى هذه المدحة بقوله : « ولما ولي المستعين دخل البحتري عليه فأنشده ، وقد ولى ابنه العباس العهد والحرمين :

بقيت مسلما للمسلمينا ... القصيدة »[١].

ويخيل الينا ان هذه القصيدة قد قيلت بعد قصيدته (الدالية) التي أشار فيها أيضا الى ولي العهد هذا ، والذي يدعونا الى هذا القول ، اشارة البحتري على الخليفة بتجديد عقد ولاية العهد لابنه ؛ ذلك لان المستعين حين عقد لابنه على مكة والمدينة ، أراد أن يبايعه بولاية العهد ، ولكن صغر سن ابنه حال دون ذلك كما مر بنا .

ويخيل الينا ان هذه القصيدة ترتفع بعض الشيء عن قصائده السابقة في المستعين ، قوة واندفاعا وحرارة ، فهو يدعو للخليفة البقاء والتمتع بالخلافة لانه أنسى البحتري وغيره — لما اتصف به من عدل وبذل — أبوته السابقين وعلل الشاعر تلقيب الخليفة بالمستعين ، فقال : ان هذا الاسم او اللقب كان قد قدره الله للممدوح حين أراد أن يكون معانا مساعدا ، في حين ذكر الخطيب عن أبي مزاحم انه قال : « حضرت المستعين وقد دعي ليبايع له بالخلافة فقال : أستعين بالله ، وأفعل ، فسمي بالمستعين »[٣] .

---

(١) الديوان ٢/٨٥٨-٨٥٩ ، وانظر : حياة البحتري وفقه ص١١٠ .
(٢) اخبار البحتري ص ١٠٢ .
(٣) تاريخ بغداد ٥/٨٤ .

ولم يكتف الشاعر بذلك بل حاول ان يُدخل الخليفة في مسابقة مع الخلفاء فقال : لو جرى معهم في حلبة الفخر لظهر عليهم ظهورا مبينا ، وان خليفة هذه أوصافه لحري ان يفتدي بالارواح ، ولخليق بالمفتدين ان يعدوا عملهم هذا من قبيل الحظ السعيد • وبعد هذا الثناء ينتقل البحتري الى ولاية العهد ، فيشير الى ان مكة التي ولى عليها وعلى غيرها ابنه قد ازدادت حسنا وجمالا حين ولى عنه أمين كابن المستعين ، وان اجتباء الخليفة ابنه لولاية العهد ، قد سر القلوب ، وأقر العيون ، فلهج الحجيج بالدعاء والثناء عند أوبتهم من أداء مراسيم الحج ، لهذا الاختيار والاصطفاء • وكيف لا يكون ذلك وقد اختير لهذا الامر أزكى بني هاشم حسبا ، وأرفعهم شرفا ، وأكرمهم يداً ، وانه شبيه الخليفة في كل شيء ، واذا كان الامر كذلك ، فما المانع من تجديد عقد البيعة مرة أخرى له ، ففي تجديدها تجديد للحياة الغضة الناعمة اللينة ، وان ظنون الناس فيه ـ لتحله محلا علياً ـ فعلى الخليفة ان يحقق صدق هذه الظنون وحسن ما انطوت عليه فيه ، وان مخايل النجابة فيه تحملنا على مباركته وعقد محبة الناس عليه ، واذا كانت نحوس الطوالع قد بدت حينا فهذه سعودها قد طلعت علينا شاهدة بمزاياه وأهليته لهذا الأمر ، ولا أدل على ذلك من انبجاس الغيم ، وعمه الارض بالقطر والري ، فلولا عزمه على تجديد عقد ولايته لبقي الغيث محتبسا ولظل المحل عاما • بيد انه على الرغم من كل ذلك لم ينجح المستعين ـ على ما يبدو ـ في تولية العهد لابنه هذا ، كما ان هذا الابن لم يشتهر بشيء بعد ذلك ؛ اذ لم تشر المراجع الى تسنمه منصبا رفيعا في هذه الحقبة :

بقيتَ مسَلما للمسلمينا وعشت خليفة لله فينا

لقد أنسيتَنا ـ عدلا وبذلا ـ أبو َتك الهداة الراشدينا

أراد الله أنْ تبقى مُعانا فقدَّر أن تسمى المستعينا

اذا الخلفاء عدُّوا يوم فخر   سبقتَ سراتهم سبقا مبينا
وقيناك المنونَ ، وان خطانا   لنا في أنْ نوقيك المنونا
أرى (البلد الامينَ) ازداد حسنا   اذْ استكفيته العفَّ الأمينا
ندبتَ له ابنك العباس لما   رضيت بخلقه عدْيا ودينا
سررتَ به القلوب غداة جاءت   ولايتهُ ، وأقررت العيونا
فقد صدرَ الحجيجُ وهم وفود   بشكرك رائحين ومغتدينا
أقمتَ سبيل حجهم ببدر   أضاء السهل منه والحزونا
بأزكى هاشم حسباً ، واعلا   هُمُ ، شرفاً ، وأنداهم يمينا
وحسبك انه في كل حال   شبيهك يا أميرَ المؤمنينا
يُسَرُّ المسلمون بأن يروه   لديك وليَّ عهد المسلمينا
فجدِّدْ عقد بيعته تجدِّد   لهم خفضا من الدنيا ولينا
ظنونُ الناس تذهب فيه علواً   فحقِّقْ منعما تلك الظنونا
تراه مباركا جُمعت عليه   محبات البرية أجمعينا
تطلعت السعودُ به الينا   وقد غابت طوالعُهن حينا
وكان القطرُ محتبساً فلما   عزمتَ على ولايته سقينا(١)

وظاهر من هذه المدائح ان البحتري لم يكن عميق الايمان بما كان عليه المستعين من الصفات التي كان قد لحظها فيمن سبقه من الخلفاء ، وبخاصة المتوكل . ومن هنا نجد ـ فيما يخيل الينا ـ ان هذه المدائح ظاهرة الكلفة ، لا تنبض بالحيوية والاخلاص ، وهذا ما دعا الشاعر الى يمر سريعا بالثناء على الممدوح ، ثم ينتقل الى التحدث عن الآخرين بالقدح أو المدح ، حتى ليمكن القول بانه لم يخصص مدحة واحدة في المستعين ، وفي التحدث عن أوصافه ، وان مانعته به من صفات لا يعدو ان يكون حديثا

---

(١) الديوان : ٤/٢٢٥٨ ـ ٢٢٥٩ .

عاما غير محدد • ولهذا كله فسرعان ما انقلب ثالبا للخليفة ـ حين نشب الخلاف بينه وبين المعتز ـ وصابا عليه جام غضبه ، وقوارص هجائه ، وهذا دليل على انه لم يكنْ يكنّ له الاخلاص والصدق ، وانما دفعه الى ما دفعه في مدحه حب المال ، وابتغاء الجدا •

هجاؤه للمستعين :

وبعد استمرار النزاع بين المستعين والمعتز وضعف مقاومة الاول وأصحابه ، اضطر تحت ضغط قواده من الاتراك وغيرهم أن يتنازل عن الخلافة ويخلع نفسه منها كما ذكرنا • ووقف الشعراء من هذا الخلع موقفين متضادين : فبعضهم ـ وهم المؤيدون للمستعين ـ قد أسفوا على ما آل اليه أمر الخليفة من هذا الخلع والتنازل ، كما انهم المحوا الى سوء تصرف خلفاء بني العباس جملة ، وتوقعوا لمن يأتي بعده خلعا وقتلا وتنكيلا ، فقال أحدهم :

خلع الخليفةُ أحمد بن محمد ... وسيقتل التالي له أو يُخلّع
ويزول ملك بني أبيه ولايرى ... أحدٌ تملّك منهم يستمتع
إيهاً بني العباس ان سبيلكم ... في قتل أعبدكم طريق مَهْيَع
رقعتم دنياكم فتمزقتْ ... بكم الحياة تمزقا لا يرقع(١)

وقال آخر :

اني أراك من الفراق جَزوعا ... أضحى الامام مُسيَّراً مخلوعا
كانت به الآفاقُ تضحك بهجة ... وهو الربيعُ لمن أراد ربيعا
لبسَ الخلافة واستجدّ محبة ... يقضي أمور المسلمين جميعا
فجفتْ عليه يد الزمان بصرفه ... حرباً ، وكان عن الحروب شسوعا
وتجانفَ الأتراك عنه تمرّداً ... أضحى ، وكان ولا يراع مروعا

---

(١) الطبري : ٩/٣٥١ ، الكامل : ٧/١٦٨ •

فأزاله المقدار عن رُتَب العــلا فثوى بواسط لايحسّ رجوعا
غدروا به ، مكروا به ، خانوا بــه لزم الفراش، وحالف التضجيعا[1]

أما البعض الآخر ، فقد وقف موقف المناوىء للمستعين ، المتشفي بخلعه واقصائه فقال محمد بن مروان بن أبي الجنوب :

ان الامور الى المعتز قد رجعتْ والمُستعان الى حالاته رجعــا
وكان يعلم أنّ الملك ليس له وأنه لك لكن نفسه خدعــا

ان الخــلافة كانت لا تلائمــه كانت كذات حليل زُوّجت مُتعا
ما كــان أقبــحَ عند الناس بيعته وكان أحسن قول الناس قد خُلعا[2]

وانضم البحتري الى هذه الفئة المناوئة فهجاه هجاء قبيحا ساقطا ، وجاء كل ذلك من خلال قصائده ومقطعاته التي انشأها في مدح المعتز .

وقد أنكر كثير من أهل الادب على البحتري تقلبه هذا ، وعدوه ضربا من نكران الجميل ، والاساءة القبيحة لمن أكرمه وحباه ؛ وبخاصة تدنيه في ألفاظه ، وتسفّله في معانيه . يقول المرزباني : « وكثير من أهل الأدب ينكر خبث لسان على بن العباس الرومي ، ويطعن عليه بكثرة هجائه ، حتى جعلوه في ذلك أوحد لا نظير له ، ويضربون عن اضافة البحتري اليه والحاقه به ، مع احسان ابن الرومي في اساءته ، وقصور البحتري عن مداه فيه ، وانه لم يبلغه في دقة معانيه ، وجودة الفاظه ، وبدائع اختراعاته ، اعني الهجاء خاصة ؛ لان البحتري قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحه ، منهم خليفتان ، وهما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ، ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد ان مدحهم وأخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبىء عن سوء

---

(١) الطبري ٣٥٠/٩ ، والمروج ١٦٧/٤ .
(٢) نفسه ٣٥١/٩ .

العهد ، وخبث الطريقة »[1] .

ويقول الدكتور طه حسين : « ولكن لم يكد يتولى المنتصر حتى مدحه البحتري وأثنى عليه ، وما دالت دولته حتى هجاه . وولي المستعين فمدحه وأكثر من مدحه ، ولما خلع المستعين هجاه وأسرف في هجائه اسرافا لا يحتمل من رجل كريم »[2] .

وذهب بعضهم يتلمس العلل لهجاء البحتري المستعين فقال : « أما هجاؤه للمستعين بعد ان مدحه ، فقد كانت الحوادث التي جرت يومئذ تدفع اليه ـ فالبحتري من أنصار المتوكل وأبنائه وكان المستعين يعدّ مغتصبا للخلافة من المعتز بن المتوكل ، وقد جرى التنافس على الخلافة في أيام المستعين ، فلا جرم كان التعرض للخليفة السابق ، والنيل منه ، لابد ان يكون عنصرا من عناصر مدح الخليفة الجديد الذي لا يرضى غالبا الا بالنيل من سابقه مغتصب الخلافة منه »[3] .

ويخيل الينا ان اندفاع البحتري في الثناء على المستعين في بادىء الامر كان مبعثه سوء تقدير الشاعر لامر الخليفة ، فقد ظـن انـه سيستمر في الخلافة ، دون ان يخلع او يضطر الى الخلع ، فاندفع من جراء هذا الظن الى مدحه ومدح ابنه ، ولكنه ما ان رأى خوره ورجحان كفة المعتز حتى انقلب على الأول هاجيا ثالبا ، ناسيا او متناسيا مادبجه فيه من قريض وثناء ، ولا ننسى ان شاعرنا كان عبدا للمادة يجري وراءها الى أبعد الحدود[4] ، وان صلته بالمستعين ـ كما قدمنا ـ لم تكن قائمة الا من هذه الناحية .

والحق ان المستعين قد هجي من غير واحد من الشعراء ، غير ان

---

(١) الموشح ص ٥١٤ ـ ٥١٥ .
(٢) من حديث الشعر والنثر ص ١١٥ .
(٣) حياة البحتري وفنه ص ٩٥ .
(٤) انظر : في الادب العباسي ص ٢٤٠ الطبعة الثانية .

هجاء البحتري له كان أكثر اسفافا ، وأدنى لفظا ومعنى من الآخرين • ولعل مرد هذا الاسفاف راجع الى تخلف البحتري في هذا الفن ، فن الهجاء ، وقد لمح هذا غير واحد من الأدباء والنقاد[1] •

الخليفة الدياك :

ولعل من أوائل أهاجيه فيه قصيدته البائية التي بدأها بالغزل ثم انتقل الى الهجاء مستفهما ممن تغزل بها عن علمها بانحسار ظلام الدجى ، وتسهيل جانب العيش ، وذلك برد المستعين (المستعار) على أهله ، وقيام صاحب الحق وهو المعتز مقامه ، وانه ليعجب من صروف الدهر كيف ولت من لا يستحق الولاية ، ولكن العجب يزول اذا ما علمنا ان الدهر ملآن بالصروف والعجائب ، وهذا المخلوع الذى أبعد الى كسكر – وهي قرية من قرى واسط مشهورة بالفراريج – متى أمل ان تصطفى الخلافة له ، ويبقى التاج معقودا على رأسه ؟

والبحتري هنا جعل من الخليفة وريث النبي ونسيبه كما قال في مدائحه له ، دياكاً • وانه ليعجب من ادعائه حق الخلافة واغتصابها من صاحبها الشرعي وهو المعتز •

والحق ان المستعين لم يغتصب الخلافة من أحد ، وانما جيء به الى هذا المنصب من قبل قادة الاتراك ورجالهم • وان المنبر الذي يصعد عليه الخليفة عادة في أوقات معينة قد بكى حين رقى عليه المستعين الذي شبهه بالثور الخائر المتدلي الغباغب • ولم يكتف البحتري بهذه الاوصاف السمجة حتى أخذ يتهم الخليفة بالشره والنهم ، فاذا ما أحضر الخوان ، ومد السماط رأيته ثقيلا على جنب الثريد ، لا يكاد من شدة الشره والنهم ان يتزحزح بل اذا ماملأ بطنه من الزاد فلا يبالي بأي شيء آخر مهما عظم

---

(١) انظر : الاغاني ١٨/١٦٧ – ١٦٨ ، الموشح ص ٥١٨ ، من حديث الشعر والنثر ص ١١٢ – ١١٣ •

وكبر . وما ندري هل ان المستعين كان أكولا نهما كما يصفه الشاعر ، وأغلب الظن ان هذا من وحي خيال شاعرنا البحتري ! وانه أي المستعين اذا ما وضع في ميزان القدح والمدح رجحت الكفة الأولى ، وتضاءلت الثانية ، وانه تخطى الى الامر ـ وهو الخلافة ـ الذي لم يكن بوسعه القيام به ، ولهذا فقد اختل عليه الامر واضطرب ، ثم يستفهم الشاعر عن حالتي استخلاف المعتز وخلع المستعين ، فالحالة الاولى تمثل الامر المستقر ، والثانية تمثل الظلم الذي آلت اليه عواقبه ! ويندفع الشاعر ليجانس بين لفظتي المعتز والمغتر ، ويريد بالاولى المهجو وبالثانية الممدوح وهو المعتز بن المتوكل . فهذا المغترُ بالله لم يكن ليعجزه بسراه من كان طالبه معتزاً بالله . ويشير البحتري الى ما أخذ من المستعين من شارات الخلافة بعد الخلع وهي : القضيب والبردة والخاتم ، ثم يشير الى نفيه واحداره الى واسط ، وان هذا الخليفة المخلوع الذي أبعد الى كسكر المعروفة بكثرة الدجاج ، ما كان ليستأهل مكانا آخر غيرها ، وانه ليشبه تاجويه في اخلاقه ، كما انه ـ لبلادته وغفلته ـ يجيز الشعراء الخاملين ، ويصطنع الكتاب الجاهلين :

ألاهلْ أتاها أن مُظلمة الدجى	تجلت ، وأن العيش سهلَ جانبه ؟
وأنا رددنا المستعارَ مذمّما	على أهله ، واستأنف الحق صاحبه
عجبتُ لهذا الدهر أعيت صروفُهُ	وما الدهر الا صرفُه وعجائبه
متى أمّل الديلك أن تصطفى له	عُرَى التاج او تثنى عليه عصائبه
فكيف ادّعى حق الخلافة غاصب	حوى دونه ارْثَ النبي أقاربه
بكى المنبر الشرقيُ اذ خار فوقه	على الناس ثورٌ قد تدلّتْ غباغبه
ثقيل على جنْب الثريد ، مراقب	لشخص الخوان يبتدي فيواثبه
اذا ما احتشى من حاضر الزاد لم يبلْ	أضاء شهاب الملك أم كلّ ثاقبه
اذا بكرَ الفراّش ينثو حديثه	تضاءل مطريه ، وأطنب عائبه

تخطَّى الى الأمر الذي ليس أهلَه ... فطوراً ينازيه ، وطوراً يشاغبه

فكيف رأيت الحق قرَّ قرارُه ... وكيف رأيت الظلم آلت عواقبه
ولم يكن المغترُّ بالله اذ سرى ... ليعجزَ والمعتز بالله طالبه

رمى بالقضيب عنوة وهو صاغر ... وعرِّي من برد النبي مناكبه
وقد سرني أن قيل وجَّه مسرعا ... الى الشرق تحدى سفْنُه وركائبه

الى كَسْكَر خلف الدجاج، ولم تكن ... لِتنشب الا في الدجاج مخالبه
له شبهٌ من (تاجويه) مبيَّن ... ينازعه أخلاقه ويجاذبه

وما لحيةُ القصار حين تنفَّشتْ ... بجالبة خيرا على من يناسبه
يجوز ابنُ خلاد على الشعر عنده ... ويُضحي شجاع وهو للجهل كاتبه(١)

ويحسن ان نشير الى قصة ابن خلاد هذا مع البحتري وهي قصة لا تخلو من الدلالة على سوء مجازاة البحتري لمن أحسن اليه أيضا • فقد روى المرزباني في موشحه عن أبي بكر الصولي قال : « حدثني أحمد بن يزيد المهلبي • قال لي أحمد بن خلاد ؛ لا أعرف أحداً أخبث أصلا ولا فرعا ، ولا أكفر لاحسان من البحتري ؛ دخل الى المستعين بعد مقتل اوتامش وكاتبه شجاع ، وانما اذكرت به ، فأنشده :

لقد نصر الامام على الأعادي ... وأضحى الملك موطود العماد

(وذكر ستة أبيات) ، فلم يأمر له المستعين بشيء فمازلت أصفه وأشهد له بقديم الموالاة حتى دفع اليه خريطة كانت في يده مملوءة دنانير ،

---

(١) الديوان ١/٢١٤ ـ ٢١٦ • أشار الراغب في محاضراته الى جهل شجاع هذا فقال : « تولى شجاع بن القاسم وزارة المستعين وحرص كل الحرص على ان يتعلم الكتابة فما تهيأ له ، وكان يحضر معه كاتبا يلقنه فيفهم عنه جل ما في الكتب ، فيعرضه على المستعين » محاضرات الادباء ١/١٨٥ ، وانظر جمع الجواهر للحصري ص ٢١٢ •

فكانت ألف دينار ، ودعا بغالية فغلفه بيده • فلما خلع المستعين وولى المعتز كان أول ما أنشده قصيدة أولها :

يجانبنا في الحب من لا نجانبه (وذكر أحد عشر بيتا) • قال ابن خلاد :

فهجاه بأصناف الاهاجي ، ثم لم يرض حتى ذكرني ، فقال :

يجوز ابن خلاّد على الشعر عنده ويضحى شجاع وهو للهجل كاتبه

قال : فوالله ما حظي من المعتز في هذه القصيدة بطائل حتى رجع الى بلده خائبا »[1] •

عجل اليهود :

وهجاه ايضاً من قصيدة مدح بهـا المعتز ، وذكر ان المعتز قد انقذ الناس من خبال (المستعار) الذى أوبأ البلاد سوء صرفه وخطل تفكيره • وكانت ولايته شؤما على الرعية ، وبلوى أصابت الناس وخذلتهم ، وعزله من الخلافة التي لج في الاحتفاظ بها ، وكان مثله مثل العجل الذي اتخذه اليهود إلهاً • وكان المعتز مثل موسى الذى أدرك غيّ قومه ، وما كانوا عليه من الضلال والجهالة ، فانتشلهم من وهدتهم ، وهداهم سبيل الرشاد ، كما كان كالجسد الذى امتحن الله به تعالى سليمان حين ولد له طفل شغفه حبا ، فقتلته الشياطين وألقته على كرسيه جسداً لا حراك به ، فأدرك سليمان ان الله امتحنه فرجع اليه •

فالدين بعد استخلاف المعتز قد عاد بهجاً ضحكاً ، والكفر ـ بعد خلع المستعين انحسر من كل جانب في الارض وجلاّ مذعوراً •

يا من له أوّل العليا وآخرها ومن بجود يديه يضرب المثل
أنقذتنا من خبَال المستعار وقد أوبا البلاد علينا رأيه الخطل

(١) الموشح ص ٥١١ ـ ٥١٣ ، وانظر أخبار البحتري ص ١٠٣ ـ ١٠٤ و ص (٢٢) من هذا البحث •

هو المشوم الذي كانت ولايتـــه … بلوى تهالك فيها الناس اذ خذلوا
عزلتَه وهو مذموم على صغر … ولم يكد للجاج الغيِّ ينعزل
وكان كالعجل غُرَّ الجاهلون به … وكنت موسى هدى القوم الالى جهلوا
وكان كالجسد المَلقى، فجئت كما … جاء سليمان يتلو قولَك العمل
فالدين في كل أُفقٍ ضاحك بهج … والكفر في كل أرض خائف وجل(١)

ويحلو للبحتري ان يكرر صورة الجسد الملقى على كرسي سليمان التي شبه بها المستعين المخلوع فيقول، وفي معرض مدحه للمعتز أيضا، متمنياً أن تعود اليه بلهنية العيش، وغضارة الحياة التي وجدها في كنف أبيه المتوكل، كما يتمنى ان يستعيد مكانته في عهد المعتز هذا، ثم يعرج على المستعين فيعيد تشبيهه بالجسد الملقى على كرسي سليمان، ويشير الى انه أصبح ملعونا على الأفواه، وينسى وينسى :

ألاهــل يحسنُ العيـش … لنـا مثلُ الــذي كانا ؟
وهـل ترجعُ يـا « نـا … ئـلُ » بالمعتز دنيـانا ؟
عدِمتُ الجســد الملقـى … عـلى كرســي سليمانـا
فقــد أصبــح للعنــ … ــةً نقــلاه ويقلانا(٢)

الركيك الأحمق :

ويبدو ان البحتري قد لمس رغبة من المعتز في ثلب المستعين والنيل منه، ولهذا فهو ما يفتأ يذكره في خلال مدائحه له، وها هو الآن ينعته بالمفرّق الأشر، والأحمق الركيك، والمتخلف الغبي، ولكنه في هذه المرة يمسه مساً خفيفاً، أقرب الى التلميح منه الى التصريح، فيقول :

فلقد وليت فكنت خير مجمّع … اذ كان من ناواك شرَّ مفرق
وعفوتَ عفواً عمّ أمة أحمد … في الغرب من اوطانهم والمشرق

(١) الديوان ٣/١٧٢٦ .
(٢) الديوان ٤/٢٣٧٣ ـ ٢٣٧٤ .

ولقد رددتَ على الأنام عقولهم بهلاك سلطان الركيكِ الأحمق
والقوم خَرْقى ما تطلّب رشدهم وأدير أمرهم بعزمةِ أخرق
كيف اهتداءُ الركب في ظلماتهم ودليلُهم متخلف لم يلحق[1]

الجلف المستعار :

ولعل من أقبح أهاجي البحتري في المستعين رائيته التي انشأها في مدح المعتز ، فقد أسفَ فيها اسفافاً كثيراً ، سواء في اللفظ أو في المعنى ، فهو بعد ان تغزل في القسم الاول منها ، انتقل الى التي تلومه على حبيبته ظلما ، وتتظاهر باجراء الدموع الغزيرة كذبا وميناً ، فهو يقول لهذه العاذلة ، متى عاودت لومك في حبيبتي فلتكوني ضجيعة للمستعار (المستعين) ، جزاء لومك وعذلك ، وما ذاك الا لانه يفوق الحبارى في السلح ، والحمار في الحباق ، وانه من قصور الهمة والقعود عن الخير ، بحيث لو أمسى أحبابه عشياً لما وجدوا سوى الهلاك والدمار ، وانه ليدنس مضجعه وسراويه ليلاً بما يسلح على نفسه ، فيصيب ضجيعه ما يصيب من الدنس والعذرة ، وان حلل الملك ما كانت لتحشى بجناية شخص فيه هذه الصفات الذميمة ، وانه ليستكثر عليه البسط والطنافس ، ولو كان بوسعه لافتداها بالحصر والبواري .

ويعود البحتري مرة أخرى فيصم المستعين بالشره والنهم ، فهو اذا ما حضر مجلس الندماء أتى على ما دار فيه من الراح ، وأفنى ما أعدَ من طعام ، وانه لا يعدو ان يكون جلفاً ينفد الصهباء بعبّه لها ، وانه لقريب العهد بالدبس ، ولما كانت هذه اوصافه ونعوته فقد ردَّ الى ما كان عليه ذليلاً مهانا بعد أن عم الناس بالدمار وسوء الحكم ، ولكي يجلو الصورة ، صورة الخراب والدمار ، أشار الى انه كان أضرَّ على الناس من النجم سهيل ، اذا أوبأ وأشأم من قدار ، عاقر ناقة النبي صالح ، وان عهده يتسم

---

(١) الديوان ٣/١٤٨١ ـ ١٤٨٢ .

بالانحلال والتقاتل والتناحر حتى ليمكن تشبيهه بأيام حرب البسوس او الفجار :

أعاذلتي على أسماءَ ظلماً ... واجراءِ الدموع لها الغزار
متى عاودتِني فيها بلوم ... فبتّ ضجيعة للمستعار

لأسلحَ حين يمسي من حبارى ... وأضرط حين يصبح من حمار
اذا أحبابه أمسوا عشياً ... أعدُّوا ، واستعدوا للبوار

اذا أهوى لمرقده بليل ... فياخزيَ البراذع والسرارى
ويا بؤسَ الضجيع وقد تطلى ... بخلطى ْ جامد معه وجار

فلو انا استطعنا لافتدينا ... قطوع الرَّقم منه بالبواري
يبيد الراح في يوم الندامى ... ويُفني الزاد في يوم الخُمار

يعبُّ فينفد الصهباء جلْف ... قريب العهد بالدبس المدار
رددناه برمّته ذليلا ... وقد عمَّ البرية بالدمار

وكان أضرَّ فيهم من سهيل ... اذا أوبا ، وأشأمَ من قُدار
تفانى الناس حتى قلتُ عادوا ... الى حرب البسوس أو الفِجار[1]

وغير خاف ما في هذه الابيات من الاسفاف الكثير ، سواء في اللفظ أو المعنى ، وكان المرزباني على حق حين علق عليها بقوله : « وهذه الابيات من أقبح الهجاء واضعفه لفظا ، وأسمجه معنى ، ولاسيما بيت البواري ، وهي أيضا خارجة عن طريق هجاء الخلفاء والملوك المألوفة وهي بهجاء سفلة الناس ورعاعهم أشبه ، مع ما جمعت من سخافة اللفظ ، وهلهلة النسج ، والبعد من الصواب »[2] .

---

(١) الديوان ٢/٩٣٥ ـ ٩٣٧ .
(٢) الموشح ص ٥١٤ .

البحتري وابن يزداد :

ممن امتدحهم البحتري في عهد المستعين أبو صالح عبدالله بن محمد ابن يزداد الذي استوزره المستعين بعد مقتل اوتامش سنة ٢٤٩هـ • وكان أديباً فاضلا ، ذا توقيعات وأجوبة حسنة ، كما كان ضابطا للأموال ، متشددا مع امراء الدولة ، فضاقوا به ذرعا وهددوه بالقتل فهرب الى بغداد بعد فترة وجيزة من استيزاره[١] •

وللبحتري في ابن يزداد هذا عدة مدائح ، يبدو من بعضها ان العلاقة بينهما كانت تعود الى ما قبل استيزاره ، بدليل خلوها من الاشارة الى قيامه بادارة الدولة وتصريف شؤونها[٢] • وهذه المدائح جميعها تتألف من (١٥٧) سبعة وخمسين ومائة بيت •

دعوة لزيارة سامراء :

ولعل من أوائل مدائح البحتري في ابن يزداد هذه القصيدة التي انتقل بعد المقدمة الغزلية الى امتداح بني يزداد فأشاد بمجدهم وشيمهم وكرمهم ، ونعتهم بالاقمار والنجوم التي تبدد بضوئها دياجير الخطوب ، وحنادس الظلام ، وبانهم ذوو أحلام كالجبال رزانة ووقارا • ثم يتحدث عن ابن يزداد الذى ـ كما يبدو ـ كان قد آب من الحج ، فنعته بالكرم والعزيمة والتواضع ، وبأنه ملجأ المعتفين ، ووزر المعوزين ، وبعد ان وصف مشاعر الحج ، هنأ الممدوح بحجه المبرور ، وبأوبته سالما •

ويظهر ان الشاعر قصد الممدوح في بغداد للتهنئة بهذه المناسبة ، فادعى انه يمثل وفد النازلين في الشام ، كما يمثل لسان أهل العسكر • ويشير على الممدوح بعد ان نالت بغداد من زيارته الحظ المقدم ، والنصيب

---

(١) انظر : الطبري ٩/٢٦٤ ، والفخري في الآداب السلطانية ص ٢٤٢ ، ومروج الذهب ٤/٦٠ ، حيث أشار الى ان الذي تولى بعد اوتامش أحمد بن صالح بن شيرزاد •

(٢) ماعدا اشارة واحدة جاءت في القصيدة الثانية ، ويخيل الينا انها لا تشير الى استيزاره •

الاوفر – ان ينصف سامراء فيؤمها ويقصدها لتفرح قلوب الأولياء وتسر .
ويستطرد البحتري في وصف ما يضمره أهل سامراء للمدوح من الحب له والتطلع لزيارته ، وما يجدونه في قربه من الخير والنعيم ، فيقول :

زادت بني يزداد في عليائهم ... شيمٌ كرمن وأنعم لم تُكْفَرَ
أقمار « مرو الشاهجانِ » اذا دجا ... خطبٌ ، وانجم ليلها المستحسر[1]
أحلامهم قلل الجبال رسابها ... وزنٌ وأيديهم غمار الأبحر
فسقتْ عبدالله والبلد الذي ... يحتله ديمُ الغمامِ المغزر[2]
أمل يُطيف الراغبون بظله ... ومعاذُ خائفة القلوب النفَّر
عضْبُ العزيمة لايزال معرّفا ... معروف عائدة ومنكر منكر
متواضعٌ ، وأقلُ ما يعتده ... في المجد يوجب نخوةَ المتكبر
إن يدنُ يكف الغائبين وان يغب ... لا يكفنا منه دنوُ الحضَّر
حج تقبّله الاله وأوبةٌ ... كانت شفاء جوى لنا وتذكر
نفسي فداؤك ان شوقا مُفْرطا ... من معشر وتولّهاً من معشر
انا وفدُ نازلة الشآم لعظم ما ... يعنيهم ولسانُ أهل العسكر[3]

(١) مروالشاهجان : هي أشهر مدن خراسان (مراصد الاطلاع ١٢٦٢/٣) .

(٢) المعروف ان اسم ابن يزداد « عبدالله » لا عبيدالله .

(٣) يقول الشارح في كلمة (العسكر : لم يحدد هنا الموضع ، فهناك عسكر أبي جعفر المنصور مدينته التي سماها دار السلام ، وعسكر سامراء ينسب الى المعتصم ، وغيرهما عساكر أخرى) . وواضح ان المقصود بالعسكر هنا ، عسكر سامراء ، وهناك ثلاث قرائن في القصيدة تدل على ذلك :
(أ) البيت الذي يلي البيت الذي وردت فيه كلمة العسكر ، وقد أشار الشاعر الى انصاف المدوح مدينة سامراء .
(ب) الابيات بعد البيت الذي وردت فيه كلمة سامراء الى ما قبل البيت الأخير ، وفيها اشارة الى تطلع أهل سامراء لزيارة المدوح لهم « انظر : الطرائف الادبية ص ٢٥٣ هامش ٤ » .
(جـ) البيت الاخير حيث طلب من الشاعر المدوح ان يوجه ركابه (مصعداً) والتصعيد يكون عادة من بغداد الى سامراء .

قد أعطيتْ بغداد منك نهاية الـ حظ المقدَّم والنصيب الأوفر
فاقسمْ لسامراء قسمة منصف تجذلْ قلوب الأولياء وتسرر
ألمْ بقوم أنت أرضى عندهم وأجدُ من عهد الربيع الازهر
متطلعَين الى لقائك أصبحوا بين المخبِّر عنك والمستخبر
من وامق متشوق أو آمل متشوفٍ ، أو راقب متنظر
سكنوا اليك سكونهم لو نالهم جَدْب الى صَوْب السحاب الممطر
وجهْ ركابك مصعدا يصعدْ بنا جد يحل بما نروم ونظفر(١)

بنو يزداد :

ولعل القصيدة الثانية في بني يزداد هي السينية التي اطراهم فيها ونعتهم بالجود الفياض ، والحسب الزاكي ، والمحتد العريق ، وبأنهم بهجة المراكب ، وبدور المجالس ، وابناء الكرماء الأماجد ، والابطال البواسل ، وان ولاءهم في هاشم يوازي علاهم في فارس ، وهم أرباب أقلام كالرماح مضاء . وان لبعدالله مهابة معروفة يطأطىء لها لحظه المتكبر المتغطرس ، وانه سليل ملوك أماجد ، وسادات عظام الجدود ، ثم يمضي في اسباغ النعوت عليه ، فيصفه بالاسراع الى المجد ، والبشر الى المعتفين ، وباحكام التدبير ، وجمع الفيء ، وحياطة الدين ، وحراسة الملك ، وبأنه يجاري في كل أعماله أباه الذي ساس الخلافة برأي ثاقب مجرب للامور . وعلى هذا فان حزمه مستمد من حزم أبيه ، وسياسته مستقاة من سياسته(٢) ، وان الرجال النابهي الاخطار ، الشم الأنوف لو شاءوا مجاراة بني يزداد في

---

(١) الديوان ٢/٨٦٠ ـ ٨٦٢ .

(٢) كان أبو الممدوح وزيرا للمأمون .

المجد لتخلفوا عنهم • وبعد ان يبين ما للمجد والعطاية من الاهمية في طيران الصيت ، وخلود الذكر ، يعود مرة أخرى الى الممدوح مثنياً على محامده ورحابة فنائه ، وفيض كرمه ، وتشبهه في اخلاقه بجدّه ، وانجاحه لآمليه ، وبث الرجاء في نفوس الآيسين ، وينهي المدحة باقتداء أبناء الخمول ، وأرباب الخلال الخسيسة له ـ على الرغم من انه قد أخر ذكر معونته ، وألغى ما كان مرسوما له :

لِيهنِئْ بني يزداد أن أكفهم — خلائفُ أنواء السحاب الرواجس
ذوو الحسب الزاكي المنيف علوُّه — على الناس،والبيت القديم القُدامس
اذا ركبوا زادوا المراكبَ بهجة — وان جلسوا كانوا بُدورَ المجالس
لهم منتمىً في هاشم بولائهم — يوازي علاهم في أرومةِ فارس
وأقلامُ كتّاب اذا ما تَصتتها — الى نسب كانت رماح فوارس
يـرون لعبدالله فضـل مهـابة — تطأطىء لحظ الأبلخ المتشاوس(١)
تردُ شـذاةُ الدهر منه بمسرح — الى المجد لا الواني ولا المتقاعس
بأبلجَ ضحاك الينا بمـا انطـوت — على منعه كَلْحُ الوجوه العوابس
ومستحصد التدبـير للفيء جامعٍ — وللدين محتاطٍ ، وللملك حارس
يجاري أبا ساس الخلافة دهـره — برأي مُعانٍ للامور ممارس
وليس يلقّى الحزم الا ابنُ حازم — وليس يسوس الناس الا ابن سائس
أبا صالح ان المحـامد تلتقي — بساحة رحْب من فِنائك آنس
بحيث الثرى رطْب يرفُ نباته — رفيفا ، وعهد الدهر ليس بخائس
وما برحتْ تدني نجاحا لآمل — مـرجّ ، وتستدعي رجـاة لآيس
فداؤك ابناءُ الخمول اذا هم — ألاموا ، وأربابُ الخلال الخسائس

---

(١) الأبلخ : المتكبر • المتشاوس : التيّاه الذي ينظر بمؤخر عينه تكبرا أو غيظا •

وان كنت قد أخرّت ذكر معونتي وألقيت رسمي في الرسوم الدوارس[1]

ولاشك في ان هذه القصيدة جيدة النسج ، محكمة البناء ، عالية الاسلوب ،لطيفة المعاني ترتفع الى مستوى مدائح البحتري الجيدة ، وان كانت تفتقر الى شيء من الاتساق .

والبحتري ـ كما هو معروف عنه ـ لا يتقيد بما يسمى وحدة القصيدة ، فتراه في مدحته هذه ينتقل بين الممدوح واسرته أكثر من مرة .

نصيحة :

وهذه أبيات للبحتري أنشأها بعد مصرع شجاع واتامش سنة ٢٤٩هـ كما أسلفنا ، يثني فيها على ابن يزداد ، ويعلن سروره بما آل اليه أمر أتامش وشجاع ، من الاطاحة برأسيهما ، ويصمهما بخبث الظاهر والباطن ، وبقبح المنظر والمخبر ، وبالاقامة على الغيّ والضلال ، حتى قتلا أشنع قتلة ، بعد ان عصيا ما أمرا به من اتباع الهدى والرشاد ، وبعد ان صب البحتري حمم هجائه على المقتولين ، ونال منهما ما أراد ، أخذ ينصح المستعين بأن يعهد الى ابن يزداد باقامة الأمور وتسييرها ؛ لانه يمتاز بالامانة والكفاءة ، وبالعزم والهمة ، وان في اسناد الأمور اليه دليلا على صحة الرأي ، واقبال الرشاد .

ويظهر ان هذه المدحة أنشئت قبل ان يستوزر ابن يزداد ، فقال :

وليكمُ اللهُ الذي لم يزل لنا	وليّ دُروء عنكم ودفاع
لقد سرّني ان العواقب روّعت	عداكم برأسي تامش وشجاع
وكانا خبيثيْ ظاهر وسريرة	لكم ، وقبيحي رؤية وسَماع
وقد أُمرا بالرشد حينا فعاصيا	وكم آمر بالرشد غيرِ مطاع
فقل للامام المستعين الذي له	تُراث قصيّ من علا ومساعي

(١) الديوان ٢/١١٢٣ ـ ١١١٢٦ .

أقمْ بابن يزداد الامور فـانه لها خير والٍ تصطفيه وراعي

أمانةُ صدر ، واضطلاع كفاية وصحةُ عـزم ، واتـساع ذراع

الان ابتعثت الرأيَ غير مثبّج به ، واقبلت الرشد غير مضاع[1]

التماس :

وهذه أبيات من قصيدة في مدح المستعين ، يثني فيها على ابن يزداد وزيره وهي بلاشك قد أنشئت بعد الأبيات السابقة ؛ بدليل اشارة الشاعر الى ذلك في اثناء مديحه له ، فبعد ان فرغ من امتداح الخليفة المستعين ، أخذ في اطراء عبدالله الذي أعطيت الرعية به رضاها فأوت منه الى ركن ركين ، واستظلت بعدله ، واناصاعت لأمره ، وقد ردّ المظـالم ، وأخـذ للضعيف حقه ، وأسا الجروح الدامية ، وكان يجمع بين احكام التدبـير ، وابتغاء النصح ، واعجال الايراد والاصدار ، كمـا كان كريما مسماحا ، تفيض يداه بالعطاء فتحكي البحر سيحا واغزارا ، وقد زكت صنائعه لدى الشاعر ، كما زكت مدائحه فيه ، ويبدو ان البحتري مازال يجد نوعـا من الاطراح والتلكؤ في تقريبه والانعام عليه ، ولهذا فهو يستفهم عن اهمال أسبابه ، والاغفال عن حظه والرضاء باسلامه واخفاره ؛ مع انه له علاقـة تشهد بقديم رفده وتقديمه وايثاره ، وينهي المدحة ملتمسا الترفق في اعادة ما كان مرسوما له ، كما ترفق في اعادة رزقه الجاري :

أعطيتهم بابن يزدادَ الرضا فأوَوا منه الى قـائم بالعـدل أمار

ردّ المظالم فانتاش الضعيف وقـد غصتْ به لهواتُ الضيغم الضاري

يأسو الجراحة من قوم وقد دميتْ منهم غواشمُ أنياب وأظفـار

يـرضيك والى تدبير ، ومبتغيا نصحا ومُعْجل ايراد واصدار

فالله يحفظ عبدالله انّ لـه فضلَ السماحوزند المؤدد الواري

---

(١) الديوان ١٢٤٢/٢ .

زكتْ صنائعه عندي وأنعمه ... كما زكتْ مدحي فيه وأشعاري
إيهاً أبا صالح والبحر منتسب ... الى نوالك في سيْح واغزار
حكى عطاؤك جدواه وحمته ... فيْضا بفيض وتيارا بتيار
أأرهبُ الدهر أو أخشى تصرّفه ... والمستعين معين فيه أو جاري
وأنت ما أنت في رفْدي وحيطتي ... قدْما ، وايجاب تقديمي وايثاري
فكيف تهملُ أسبابي ، وتغفل عن ... حظي، وترْضى باسلامي واخفاري
تأتٍ في رسمي الجاري بعارفة ... كما تأتيت لي في رزقي الجاري (١)

طلب جواد :

وهذه مدحة أخرى للبحتري مهد لغرضه ـ بعد الغزل ـ بأربعة أبيات ندد فيها بضن البخيل وعذر نفسه في اطراحه له وجفائه اياه ، وانتقل الى الثناء على أسرة الممدوح فنعتهم بالجود والصباحة ، واختص منهم عبدالله الذي وصفه بالقسوة على تبديد الاموال وتفريقها وبحياطته للخلافة ونصرها وتدبيرها ، واستطرد يطري جوده الذى سمع به ، والذى اجتاز اليه السباسب والقفار ، وتساءل عن ابلاغه ما يتمناه منه وهو اهداؤه جوادا أغر او ارثم ، متقارب الأقطار ، جميل المنظر :

جزتُ البخيل وقد عثرت بمنعه ... صفحا ، وقلت رمية لم تكثب
وعذرتُ سيفي في نبوٍّ غراره ... أني ضربت فلم أقع بالمضرب
كم مشرقيٍّ قد نقلت نواله ... فجعلته لي عدة بالمغرب
وأحبُ آفاق البلاد الى الفتى ... أرضٌ ينال بها كريم المطلب
ولدى بني يزداد حيث لقيتُهم ... كرم كغادية السحاب الصيِّب
فاذا لقيتهم ، فموكبُ أنجم ... زهر ، وعبدالله بدرُ الموكب
قاسي الضمير على التلاد كأنما ... يغدو على تفريقِ مال مذنب

(١) الديوان ٢/٨٥٨ ـ ٨٥٩ .

حاط الخلافة ناصرا ومدبّرا ... بوفاء مجتهد وحزم مجرب
ولو انهم ندبوه للأُخرى اذاً ... دُفع اللواء الى الشجاع المحرب
أفديك من عتب الصديق ، فانه ... لأشدُّ من كيد العدوّ المجلب
لاقيت جودك بالسماع ودوننا ... شُغُل المهاري من فضاء سبسب
هل أنت مبلغيَ التي أغدو لها ... بمقلّص السربال أحمر مذهب
لو يوقَد المصباح منه لسامحت ... بضيائه شيةٌ كضوء الكوكب
أما أغرُّ تشقّ غرته الدجى ... أو أرثم كالضاحك المستغرب
متقاربُ الأقطار يملأ حسنه ... لحظاتِ عين الناظر المتعجب(١)

سياسي يقظ :

ومن مدائح البحتري في ابي صالح بن يزداد وآله هذه الدالية ، وهي أطول مدائحه فيه ، استهلها بمقدمة غزلية ثم انتقل انتقالا بديعا ـ وهو قلما يفعل ذلك ـ الى الغرض الأصلي وهو امتداح بني يزداد الذين ذكرهم في أغلب القصائد التي وجهها الى عبدالله فوصفهم ـ كما وصفهم من قبل ـ بالجود والرشاد ، والمحتد الكريم ، وبحياطة الملك وتأييده ، بنصح محض ، وعزم منجرد ، وحزم متئد ، ثم اختص منهم عبدالله الذي نعته بوفرة المكارم ، وفيض الجود ونباهة الكتابة ، وخلوص النية ، والقدرة على الادارة والحنكة في السياسة التي كان يدبرها بيقظة واحتراس والتي سار فيها على نهج أبيه الذي كان وزيرا للمأمون ، كما قدمنا ـ فكان من جراء اخلاصه ومقدرته ان دارت الخلافة على قطب من رأيه الثابت ، والتجأت الى سند قوي منه ، فصان حوزتها ، وردّ عنها أعداءها •

والبحتري ـ كما قلنا ـ على الرغم من اسباغه النعوت العامة على ممدوحيه فانه كان يعمد الى الوقوف على صفة بارزة في من يمتدحه فيأخذ في ترديدها والاشادة بها في تضاعيف مدائحه ، وهو قد وجد في ابن يزداد

(١) الديوان ١/٢٨٢ ـ ٢٨٤ •

مكنة على الادارة ، وقدرة في السياسة ، واخلاصا للخلافة ، فاتخذ من هذه النعوت مادة لمديحه يكررها ويعيد تكرارها وان كان يعرضها باسلوب رشيق ، وألوان مختلفة ، تدل على براعة في البيان وحذق في التصوير .

وانهى قصيدته بالدعاء لابن يزداد في البقاء والسلامة للمكرمات التي احيى مواتها ، فعمت فواضله المرتجين ، وبعثت الآمال في نفوس القاعدين ، وان تدبيره ردَّ للدنيا صلاحها ، فأصبحت الخلافة قوية ، وقناة الملك مستقيمة والأيام بهيجة :

تنصَّبَ البرق مختالا فقلت له : لوجُدتَ جود بني يزداد لم تزد
الجاعلين على علاّت دهرهم كرائم المال في الانعام والصَّفَد

تيمموا الخطة المثلى على سَنَنٍ لم يظلموه ، وباعوا الغيَّ بالرشد
بنو أغرَّ من الاقوام شادلهم مجدَ الحياة وأقفاهم على الأبد

يقفون منه خلالا كلها حسن ان عددتْ غادرت فضلا على العدد
وما تزال أواخي الملكِ ثابتةً منهم بكل رحيب الباع والبلد

بنصح مجتهد صحَّتْ عزيمته أو عزم منجرد أو حزم متئد
فالله يكلأ عبدالله انَّ له مكارما من يخوّلْ بعضها يسد

بحرٌ متى تستمح أمواجُ جمته تفِضْ وغيث متى ما يستجد يجد
تفرَّجتْ حَلْبَةُ الكتاب حين جروا عن سابق بخصال السبق منفرد

ان يُعملوا الجورَ يقصد في تصرفه أو يسرفوا في فنون الأمر يقتصد
أدّى الأمانة لم تعجز كفايتُه عنها ، ولم يستنم فيها الى أحد

مُشارفا لأقاصي الأمر يكلأها برأي محتفلٍ للامر محتشد
انَّ السياسة قد آلت الى يقظ موفّق لسبيل الحق معتمد

لم يرجها بأكاذيب الظنون ولم يمتُتْ الى نيلها اذمتً من بعد

ألفي أباه على نهْج فطاولَه على السواء ، وجاراه الى الأمد
بمذهب غير مدخولٍ ولا طبع ونائل غير منزورٍ ولا ثمد

اسلم أبا صالح للمكرمات فقد أحييتَها وهي من موت على حدد
ما في الخلافة من وَهْيٍ فيجبره آسٍ ، ولا في قناة الملك أوَد
ولا الكواكب في ليل الربيع تلتْ غيثا بأبهجَ من أيامك الجدد[1]

مجد موروث :

وهذه أبيات مرفوعة الى ابن يزداد أيضا ، وهي تنحو منحى مدائحه السابقة فيه ، ولم يمهد الشاعر كعادته لها بمقدمته الغزلية ، كما ان البيت الاول غير مصرّع مما يحملنا على الظن انها جزء من قصيدة اقتطع منها جزؤها الاول ، فخلال الممدوح تشبه ما شاده من المجد في السمو والرفعة ، وانه حوى ما حوى من المفاخر والمكارم عن أبيه الذي حاز هو ما حازه عن أبيه أيضا ، فليس هناك من علاً لم ينل فخرها ، ولا من هدى لم يسر على قصده ، وهو في كرمه كالغيث غزارة وعذوبة ، وان كل ما يتمناه له العزّ والبقاء ؛ اذ لا نظير له يوم يجد الجد • ويبدو انه كانت للبحتري حاجة لدى صالح بن وصيف المكنى بأبي الفضل ، فأراد ان يكون عبدالله وسيطه في انجاحها ، وهذا ما المح اليه في أبياته الأخيرة ، فقال :

(وجدنا خلالَ أبي صالح شبايهَ ما شدْنَ من مجده)
حوى عن أبيه الذي حازه أبوه المهذّب عن جدّه

عفافٌ يعود على بدئه وهديٌ يسير على قصده
فايُّ علاً لم ينلْ فخرها وجزل من النَّيْل لم يسده

(هو الغيث ينهلّ في صوبه دِراكا ، ويعذب في ورده)
(لقد علقتْ منه آمالنا بحبلٍ غريب الندى فرده)

---

(١) الديوان ٢/٦٥٨ ـ ٦٦١ •

(مُنانا وحاجتُنا أن يعزَّو أن يمنع الله من فقده)
أبا صالح انت من لا يدلُّ يوم الفَعال على نده

فداك البخيلُ من النائبات وصرف الليالي ولا تفده
أصطنعُ اليوم أكرومة الى مُتْشمر لك من ودّه

فقد شارفَ النجح من سيد اذا جاد بالعُرْف لم يكده
وأمْر أبي الفضل في حاجتي بما فُزتَ بالشطر من حمده

فمن عندك القولُ مستأنفا لتقبلَ الفعل من عنده[1]

وواضح ان مدائح البحتري في ابن يزداد عموما ترتفع الى مستوى شعره الجيد ، وان الشاعر قد جهد في صوغها وسبكها واحكامها ، وانها كانت أمتن وأصدق مما أنشأه في المستعين •

ويبدو ان البحتري قد أعجبته أبيات من القصيدة الاخيرة فنقلها الى احدى مدائحه في المعتز[2] بعد ذلك • وقد حصرناها ـ للتوضيح ـ بين معقوفتين •

ومن الجدير بالذكر ان البحتري أدشأ أكثر مدائحه هذه في ابن يزداد ولما يبق في الوزارة سوى ثلاثة أشهر ، في حين لم ينشيء مثل ذلك في المستعين الذي بقي في الخلافة زهاء ثلاث سنوات •

---

(١) الديوان ٢/٦٨٥ ـ ٦٨٦ •
(٢) انظرها في الفصل الخاص بالمعتز •

الفصل الثالث

البحتري والمعتز

المعتـز :

هو ابو عبدالله الزبير ، وقيل محمد بن جعفر المتوكل ، وأمه أم ولد رومية تسمى « قبيحة »[1] . ويبدو ان اسمها من الأضداد ، ذلك أنها ـ كما يقال ـ كانت فائقة الجمال ، رائعة الحسن[2] .

ولد بسامراء سنة ٢٣٢هـ ، وفي سنة ٢٣٥هـ عقد المتوكل البيعة لبنيه الثلاثة : لمحمد وسماه المنتصر ، والزبير أو محمد وسماه المعتز ، ولابراهيم وأسماه المؤيد بولاية العهد ، وضمّ الى كل واحد منهم جزء من الدولة . ويظهر ان المتوكل ـ بدافع من زوجته قبيحة ـ كان كثير الميل والتحيز الى ولده المعتز هذا ، فقد ضمّ اليه في سنة ٢٤٠هـ خزن بيوت الاموال في جميع الآفاق ، ودور الضرب ، وأمر بضرب اسمه على الدراهم[3] . وقد مرّ بنا وصف حفلة اعذاره التي أقامها له أبوه المتوكل في قصر بكلوارا ، وما كان فيها من الاسراف والبذخ[4] .

وحين استخلف المنتصر بعد مقتل والده المتوكل ، خلع أخويه :

---

(١) انظر : الطبري ١٧٥/٩ ، ٣٩٠ ، تاريخ اليعقوبي ٢٣١/٣ ، مروج الذهب ٨١/٤ ، التنبيه والاشراف ٣١٦ ، تاريخ بغداد ١٢٢/٢ ، فوات الوفيات ٣٧٣/٢ ، تاريخ الخلفاء ص٣٥٩ .

(٢) انظر : الكامل في التاريخ ٢٠٠/٧ ، ونساء الخلفاء لابن الساعي ص٩٤ هامش (١) .

(٣) الطبري ١٧٥/٩ ـ ١٧٦ .

(٤) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ، ١٦١ ـ ١٦٤ .

المعتز والمؤيد من ولاية العهد في القصر الجعفري المحدث[1] . وبعد موت المنتصر واستخلاف المستعين من قبل قادة الاتراك ، تتبع المعتز والمؤيد أيضاً فاتباع جميع ما كان لهما من دور ومنازل وضياع . ثم امر بحبسهما فحبسا في الجوسق سنة ٢٤٨هـ[2] وبقيا في الحبس الى سنة ٢٥٠هـ ، وهي السنة التي قتل فيها باغر التركي قاتل المتوكل، فاضطر المستعين الى الفرار والانحدار مع وصيف وبغا اللذين كانا غالبين عليه الى بغداد . وحاول كبار قادة الاتراك في سامراء أن يحملوا المستعين على القفول الى العاصمة سامراء ، مبدين أسفهم لما بدر منهم ، وملتمسين منه الصفح عنهم ، ولما فشل مسعاهم ، وخاب رجاؤهم ، اضطروا الى اخراج المعتز من حبسه ومبايعته بالخلافة[3] .

وابتدأ الصراع الدموي بين المعتز ومسانديه من أهل سامراء ، وبين المستعين ومؤيديه من أهل بغداد مدة سنة تقريباً ، قتل فيها من الجانبين الكثير ، وأصيبت المرافق الحيوية بأضرار جسيمة حتى ملّ الناس التقاتل والتناحر . ولعل ما أصاب بغداد وأهلها من العنت والارهاق بسبب القتال والحصار يفوق ما حلّ بسامراء ، واضطر المستعين تحت تهديد القادة ورجالات الدولة أن يذعن للامر الواقع فأعلن تنازله عن الخلافة وخلعه نفسه منها في شهر محرم من ٢٥٢هـ ، وبذلك صفا الأمر للمعتز وكان عمره آنذاك (١٩) تسع عشرة سنة[4] .

---

(١) الطبري ٢٣٧/٩ .

(٢) نفسه ٢٥٨/٩ ـ ٢٥٩ .

(٣) الطبري ٢٨٣/٠ ـ ٢٨٤ وانظر : ص ٩ .

(٤) الطبري ٣٤٨/٩ ، تاريخ اليعقوبي ٢٣١/٣ ، فوات الوفيات ٣٧٣/٢، تاريخ الخلفاء ٣٥٩ ، المروج ٨١/٤ حيث أشار الى ان عمره كان ثماني عشرة سنة ، كما ذكر الاصفهاني في أغانيه ٣٢٢/٩ (دار الكتب) .

لقد كان المعتز وسيماً ، جميل الطلعة ، فارع الطول ، حسن العينين ، وقد أطراه الكثيرون وأشادوا بأوصافه هذه فقال الخطيب البغدادي : « كان المعتز بالله رجلاً طويلا جسيما وسيما ، أبيض مشربا حمرة ، أدعج العينين حسنهما ، أقنى الأنف ، حسن الوجه ، مليحا جعد الشعر ، كث اللحية ، مدور الوجه ، حسن المضحك ، شديد سواد الشعر ، أكحل العينين»[(١)] •

وروى عن البحتري انه قال : « نظر الي المعتز وانا أنظر في وجهه فقال : الى أي شيء تنظر ؟ قلت : الى كمال أمير المؤمنين في جمال وجهه وجميل أفعاله »[(٢)] • ومن هنا نجد البحتري قد نعت المعتز بهذه النعوت في معرض مدائحه له التي سنتكلم عليها فيما بعد • ووصفه بأنه فارع طوال ، فهو لم يكن « ربعة » كما جاء في العقد الفريد • ونعت المعتز الى جانب ما تقدم بنعوت أخرى فقد وصفه المسعودي بأنه كان : « يؤثر اللذات ، ويعدم الرأي ، تدبّره أمه قبيحة وغيرها ، وغلب على أموره ، وقهر على سلطانه »[(٣)] • في حين وصفه الشابشتي بقوله : « وكان المعتز سمح الأخلاق ، واسع النفس ، له أدب وفهم ••»[(٤)] • وقال فيه ابن الطقطقي : « ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس ، الا ان الاتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة ، واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة في يدهم كالأسير ، ان شاءوا أبقوه ، وان شاءوا خلعوه ، وان شاءوا قتلوه »[(٥)] •

---

(١) تاريخ بغداد ٢/١٢٤ وانظر ايضا الطبري ٩/٣٩٠ ، والتنبيه والاشراف ٣١٦ والديارات ١٦٥ الطبعة الثانية ، والعقد الفريد ٥/١٢٤ ، وقد أشار الى انه كان « ربعة » • وثمار القلوب ١٥٤ ، الفخري ٢٤٣ وفوات الوفيات ٢/٣٧٤ •

(٢) تاريخ بغداد ٢/١٢٥ •

(٣) التنبيه والاشراف ٣١٦ •

(٤) الديارات ١٦٥ •

(٥) الفخري ٢٤٣ •

والحق ان اشارة صاحب الفخري لم تعد الصواب ، فالمعتز لم يعدم الرأي أو الهمة ولكن الأمور اختلفت تماما في عهـده عما كانت عليه في في عهد غيره من الخلفاء !

فنحن نعرف ان الاتراك قويت شـوكتهم ، وازداد خطرهم عـلى الخلافة منذ مصرع المتوكل على ايديهم ، وان ترشيحهم المستعين للخلافة زاد من خطرهم وتدخلهم في شؤون الدولة ، وكان على رأسهم وصيف وبغا اللذان كان لهما أثر كبير في الهيمنة على أمور الخلافة والخليفة ، وقد اشتركا ـ كما مرّ ـ في تدبير مقتل المتوكل[١] .

لقد أصبح الأتراك قوة لا يستهان بها في التدخل بشؤون الخلافة ، وفي التحكم بمصائر الخلفاء ، واذا صح ما ذكره صاحب الفخري عـند استخلاف المعتز على لسان أحد الظرفاء من انه « لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : انظـروا كـم يعيش وكم يبقى في الخلافة ؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ! فقالوا له : فـكم تقول انـه يعيش ؟ وكم يملك ؟ قال : مهما أراد الأتراك »[٢] . أقول اذا صح هذا الخبر ، فمعنى ذلك ان التردي السياسي قد وصل الى حالة مخيفة ، وقد نسب الى البحتري ـ وهو ما نشك فيه ـ أبيات يصف فيها الحالة السياسية بعد خلع المستعين واستخلاف المعتز وهي :

لله درّ عصـــابة تركيـــة ردّوا نوائب دهرهـم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بنَ محمد وكسوا جميع الناس ثوبَ الخوف

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ٢٧٠ .
(٢) الفخري ص ٢٤٣ .

وطغوا فأصبح ملكنا متقسماً   وامامُنا فيـه شبيهَ الضيف[1]

لقد حاول المعتز كما حاول أبوه وأخوه المنتصر من قبل النيل من الأتراك وخضد شوكتهم ، فقد كتب الى والي بغداد محمد بن عبدالله بن عبدالله بن طاهر سنة ٢٥٢هـ في اسقاط اسم بغا ووصيف ومن كان في رسمهما من الدواوين ، ولـكنه اضطر تحت تأثير زعماء الاتراك وأتباعهم الآخرين الذين عضدوه ضد المستعين أن يعلن رضاه عنهم ، وان يكتب في احضارهما الى سامراء العاصمة فيردّ اليهما اعتبارهما وما أخـذ منهما ، ويخلع عليهما ويعقد لهما على أعمالهما التي كانت لهما قبل ارتحالهمـا مع المستعين في انحداره الى بغداد بعد مقتل باغر التركي[2] .

بيد ان علاقة المعتز بهذين القائدين كانت مشوبة بالريبة والحذر ، ولعل تحريض أمـه قبيحة لـه في النيل من الأتراك بسبب قتلهم وزجهـا المتوكل كان من الاسباب القوية في دفعه الى ملاحقتهما ومحاولته الايقاع بهما ، فقد روى الشابشتي في هذا الصدد أن قبيحة كانت تحرض ابنهـا المعتز على الاتراك وتقول : « يا بني اقتلهم في كل مكان ــ وتخرج اليه قميص أبيه المتوكل مخضبا بدمائه فيطلب منها ان ترفعه خشية أن يصير القميص قميصين[3] .

ويبدو ان وصيفاً المذكور الذي رضي عنه المعتز قد اختلف مع فئات

---

(١) مروج الذهب ٨٣/٤ ، ديـوان البحتري ٢٦٠٦/٤ . والذي يدعونا الى الشك في نسبتها الى البحتري ان الشاعر لم يكن من مؤيدي المستعين ، بل هو على النقيض من ذلك فقد هجاه هجاء سوقيا مقذعا أكثر من مرة ، وكان من حزب المعتز ، كما ان البحتري لم يهج أحداً من الاتراك في تلك الحقبة ، وانما كان كثير الاشادة بالموالي ورؤسائهم كما سيأتي ، ولعل هذه الابيات من نظم أحد الشعراء المعاصرين لتلك الاحداث .

(٢) انظر : الطبري ٣٥٤/٩ ــ ٣٥٥ .

(٣) انظر : الديارات ص ١٦٩ ــ ١٧٠ ، وثمار القلوب ص ٨٦ .

أخرى من الأتراك والجند حول دفـع الارزاق اليهم ، فتألبوا ضـده وأجهزوا عليه في سنة ٢٥٣هـ[١] .

أما بغـا الصغير الذي رضي عنه المعتز كذلك وخلع عليه وألبس تاج الملك فيبدو انه كان من ألد خصوم المعتز ، وأشدهم بغضا ، وأكثرهم ترصدا ، فكان المعتز من جراء ذلك حذرا متيقظا حتى قيل : انه في غيبة بغا لا ينام الا في ثيابه ، وعليه السلاح ، ولا يشرب نبيذا ، وجميع جواريه على رجل »[٢] . وروى عنه انه قال : « لا أزال على هذه الحـالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي »[٣] . وهـذا دليل ـ اذا صح ـ على همة المعتز وتيقظه وحزمه ، ولكن ماذا تجدي صفات العزم والحزم ، والأمور كلها في تدهور وانحلال ؟

وكانت عقبى بغا هذا الفرار في سنة ٢٥٤هـ الى ناحية الموصل حاملاً معه أمواله التي احتجنها وهي ـ كما قيل ـ تسع عشـرة بدرة[٤] دنانير ، ومائة بدرة دراهم ، ثم الانحدار الى سامراء في زورق للايقاع بالمعتز ، غير انه لم يفلح في مسعاه اذ انه عند وصوله الى جسر سامراء قبض عليه من قبل الموكلين بالجسر ، وأوصلوا خبره الى أحد رجال المعتز الذي أوصل خبره بدوره الى المعتز فأمر بالاسراع في قتله ، فقتل ونصب رأسه بسامراء ثم ببغداد ، واحرقت جثته[٥] .

---

(١) الطبري ٣٧٤/٩ ، والمروج /٩١ .

(٢) الطبري ٣٨٠/٩ ، الكامل : ١٨٧/٧ .

(٣) المروج ٩٢/٤ .

(٤) البدرة : ألف درهم او عشرة آلاف درهم .

(٥) انظر : الطبري ٣٧٩/٩ ـ ٣٨١ ، ومروج الذهب ٩١/٤ ـ ٩٤ ، والتنبيه والاشراف ص ٣٠٦ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٥٩ .

غير ان القضاء على بغا هذا وغيره لم يكن لضع حدا لغطرسة الأتراك وعتوهم ؛ ذلك لانهم قد بلغوا حدا من العنف والقوة بحيث يتعذر على المعتز واضرابه ان يوقفوا هذا الأتي الهادر ، فما كاد الأتراك يرون اقدام المعتز على النيل من رؤسائهم بالقتل ، واعمال الحيلة على قائهم حتى تكتلوا وتألبوا ضده واتخذوا من صالح بن وصيف زوج ابنة بغا القتيل زعيما لهم ، فتجبر هذا وعتا وأقدم في سنة ٢٥٢هـ على حبس عدد من الكتاب وفعل بهم الأفاعيل ، من حبس وضرب وتعذيب ، وطلب المعتز ـ وهنا يتجلى ضعف الخليفة العباسي ـ من ابن وصيف ان يهب له أحد اولئك الكتاب ؛ لانه كاتبه ومربيه ، فأبى وامتنع عليه(١) . وظل يعذبهم حتى مات اثنان منهم تحت وطأة التعذيب ، وكان احدهما من طلب المعتز أن يوهب له(٢) .

والواقع ان عهد المعتز وقبله عهد المستعين قد تميز بكثرة الخارجين على الخلافة والشاقين عصا الطاعة(٣) . وهذا ما نلحظه في قصائد البحتري التي انشأها في هذا العهد . فقد انطوت على كثير من الحوادث السياسية التي لم نجد لها نظيراً قبل هذا العهد مما سنشير الى ذلك فيما بعد . وقد تعرضت حاضرة الخلافة سامراء الى الانتهاب أكثر من مرة في غضون تلك الحقبة(٤) .

ولعل من أهم الاسباب التي دعت الاتراك وغيرهم الى العصيان واجتراح ما اقترفوه في حق الخلفاء هو حاجتهم الى المال الذي كثيرا ما

---

(١) انظر الطبري ٣٨٧/٩ ـ ٣٨٨ ، والمروج ٩٢/٤ والفخري ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٢) الطبري ٣٩٦/٩ ـ ٣٩٩ .

(٣) انظر : الطبري ٢٦٦/٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٨ ، تاريخ اليعقوبي ٢٣١/٣ ـ ٢٣٢ .

(٤) الطبري ٣٥٠/٩ ـ ٣٦٩ .

كان يوزع بين رغبات الخليفة وبين أهله وحاشيته . وقد مر بنا ان أموال الدولة في عهد المستعين كانت مقسمة بين ثلاثة انفار : وهم اوتامش وشاهك الخادم وأم المستعين[1] . وحين بويع للمعتز بالخلافة شاء أن يعطي للجند رزق عشرة أشهر ولكنه لم يتسن له الا عطاء رزق شهرين لنزرة المال آنذاك .

وعلى الرغم من ان المعتز كان يشبه المستعين بلص دخل الى دار مملوءة فجعل يستلب ويأخذ مما ليس له فخرب الملك خرابا لا يمكن اصلاحه أبدا كما يقول[2] ، فانه لم يلتفت الى هذه الناحية عند استخلاعه فسار على ماسار عليه سلفه من التفريط في أموال الدولة ، تشيد قصورا ضخمة منها قصر جعل جدرانه من الزجاج وسقوفه مطلية بالذهب ، وصفه البحتري وصفا جميلا في احدى قصائده[3] .

وهو أول خليفة أحدث الركوب بحلية الذهب ، وكان الخلفاء قبله يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة[4] ، كما ان أمه قبيحة قد احتجنت عندها أموالا طائلة مما يذكرنا ما كانت عليه أم المستعين من الثراء الفاحش والاسراف الكثير[5] . فقد روى من كلف بالبحث عن أموالها بعد مقتل ولدها المعتز انه وجد من المال على رفوف في أسفاط زهاء الف الف دينار ، ووجد ثلاثة أسفاط : سفطا فيه مقدار مكوك زمرد الا انه من الزمرد الذي لم ير للمتوكل مثله ولا لغيره ، وسفطا دونه فيه نصف مكوك حب

---

(١) انظر ص ١٤ هامش (٤) .

(٢) انظر ص ١٥ هامش (١) واخبار البحتري ص ١٠٤ .

(٣) انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ٢٧٢ ـ ٢٧٦ ، وص ١٠٧ من هذا البحث .

(٤) مروج الذهب ٤/٩٤ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٥٩ .

(٥) انظر : ص ١٤ ـ ١٥ .

كبار ، وسفطا دونه فيه مقدار كيلجة ياقوت أحمر لم ير مثله ، فقوّم الجميع على البيع فكانت قيمته الفي الف دينار[1] ، وهذا المبلغ هو خراج المملكة كلها لسنتين[2] .

ومما يجد ذكره ان الاتراك طلبوا من المعتز خمسين الف دينار ، ليفتكوا بمناوئه صالح بن وصيف فسأل والدته ان تعطيه المبلغ المذكور ؛ لأنه يخشى على نفسه منهم ، فاعتذرت من ذلك محتجة بعدم توفر المال لديها ،ويقال:" ان صالح بن وصيف حين أحضر مال قبيحة لديه عقب على ذلك بقوله : « قبحها الله ! عرضت ابنها للقتل لاجل خمسين الف دينار ، وعندها هذا »[3] .

والحق ان الشك والريبة والتنكيل والتفنن في القتل من الصفات البارزة في هذا العصر ، فالمعتز ما كاد يخرج من الحبس الذي كان فيه مع أخيه المؤيد ، ويبايع بالخلافة في سامراء حتى أمر باخراج المؤيد من حبسه ، ولكنه لم يلبث أن أمر باعادته مع أخيه أبي أحمد الملقب بعد ذلك بالموفق والناصر لدين الله في الحبس بتهمة تدبير مؤامرة ضده ، وضربه أربعين مقرعة ، وخلعه من ولاية العهد ، ثم أخرج من الحبس بعد قليل ميتاً ، وقد اختلف في الطريقة التي مات فيها .

أما أخوه أبو أحمد فقد نفي الى البصرة ، ثم أعيد الى بغداد[4] .

---

(١) الطبري ٣٩٥/٩ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٦٠ ، وانظر : النجوم الزاهرة ٢٢/٣ حيث جاء فيها ما يلي : « وكان مما اخذ منها ابن وصيف الف الف دينار وثلاثمائة الف دينار ، وأخذ منها من الجواهر ما قيمته الف الف دينار » المكوك مكيال يسع صاعا ونصف صاع او نحو ذلك . الكيلجة : مكيال .

(٢) الطبري ٣٧١/٩ .

(٣) الطبري ٣٩٥/٩ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٠ .

(٤) الطبري ٣٦١/٩ ـ ٣٦٢ ، المروج ٩٠/٤ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

وأشار ياقوت في معجم الادباء الى ان ابن قادم كان يعلّم المعتز قبل الخلافة ، فلما ولّي بعث اليه فقيل له : أجبّ أمير المؤمنين ، فقال : أليس هو ببغداد ؟ يعني المستعين ، فقالوا : لا وقد ولّي المعتز ، وكان قد حقد عليه بطريق تأديبه له ، فخشي من بادرته ، فقال لعياله ، عليكم السلام ، فخرج ولم يرجع اليهم ، وذلك في سنة احدى وخمسين ومائتين[١] • وكان ابن قادم آنذاك شيخاً طاعناً في السن يتوكأ على عصا • واذا صح الخبر فهذا دليل على التنكيل بشيخ له فضيلة العلم والتعليم !

وأشار الطبري الى انه حين قتل المستعين « أتي المعتز برأسه وهو يلعب بالشطرنج ، فقيل : هذا راس المخلوع فقال : ضعوه هنالك ، ثم فرغ من لعبه ، ودعابه فنظر اليه ، ثم أمر بدفنه وأمر لسعيد (وهو الذي تولى ذبحه) بخمسين الف درهم ، وولّى معونة البصرة »[٢] •

أما الشابشتي فأشار الى هذا الحادث ايضاً وقال : « وذكر احمد بن حمدون ، قال : بني المعتز في الجوسق في الصحن الكامل بيتاً قدرته له أمه ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان أحسن بيت رئي ، قال : ندعانا المعتز اليه ، فكنا في أحسن يوم رئي سروراً ، وخلف الستارة مغنية تغنى أحسن غناء ليس لي بها عهد ، قال فنحن في ذاك اذ دخل علينا خادم في يده طبق عليه مكبّة ، فوضعه في وسط البيت ، وكان في يد المعتز قدح فشربه وشربنا ، ثم قال للخادم : ارفع المكبّة فاذا رأس المستعين في الطبق ، فلما رأيته شهقت وبكيت • فقال المعتز : يا ابن الفاعلة ، ما هذا ؟ كأنك داخلتك له رقة • فثاب اليّ عقلي وتماسكت وقلت : ما كان لرقة ، ولكني ذكرت الموت ! فأمر الغلام برد المكبّة ورفع الطبق فرفعه ، وكأن المعتز داخلته

---

(١) معجم الادباء ٢٠٩/١٨ مرّ بنا ان المستعين بقي خليفة في بغداد الى أوائل سنة ٢٥٢هـ حيث اضطر الى خلع نفسه انظر ص ١٦ •
(٢) الطبري ٣٦٤/٩ •

فترة ، وكذلك جميع من حضر ، وافترقنا عن الحال التي كنا عليها من السرور . قال : فنحن كذلك ، اذ سمعنا وراء الستر ضجة أفزعتنا ، فاذا امرأة تصيح وامرأة أخرى تشتم الصائحة . والصائحة تقول : يا قوم ، اخذتموني غصباً ثم تجيئوني برأس مولاي فتضعونه بين يديّ . فسمعنا صوت العود قد ضرب به رأسها : قال : وكان الشاتم لها والضارب قبيحة ، وكانت الجارية من جواري المستعين ، قال : فانصرفنا عن المجلس أقبح انصراف وقد تنغص علينا ما كنا فيه . ولم تمض الا أيام يسيرة حتى وثب الأتراك على المعتز فقتلوه ، ثم دعي بنا لننظر اليه ، فدخلنا عليه في ذلك البيت ، فاذا هو ممدود في وسطه ميتاً »[1] .

وكان المعتز يتذوق الأدب ويقول الشعر ، وقد لحظ فيه القدماء هذا فقال الشابشتي : « وكان المعتز سمح الأخلاق ، واسع النفس ، له أدب وفهم ، ويقول شعراً صالحاً »[2] . وقال الدكتور طه حسين : « هذه الحياة ألهمت المعتز نفسه ذوقاً فنياً خالصاً ، فكان شاعراً وشاعراً مجيداً . ولو قد مدّ له في عمره لكان كابنه شاعراً نابغة ، ولكنه أعجل فلم تطل أيامه ، وكان يعنى في الشعر بهذه الفنون التي تلائم القصر ، وتلائم المجون والدعابة أو التي تلائم حياته الخاصة »[3] .

والحق ان ما أثر له من أبيات أو مقطعات لتدل دلالة واضحة على قوة شاعريته ، وخصب خياله ، وحضور بديهته[4] .

---

(١) الديارات ص ١٧٠ .
(٢) الديارات ص ١٦٥ .
(٣) من حديث الشعر والنثر ص ١٥٣ .
(٤) يمكن الوقوف على شيء مما أثر له من شعر في المراجع الآتية : الأغاني ٩/٣١٨ ـ ٣٢٢ (دار الكتب) ، معجم الشعراء ص ٤٠٠ ـ ٤٠١ ، الديارات ص ١٠٦ ـ ١٠٨ ، ذيل الأمالي ص ٩٩ ، العقد الفريد ٥/٣٧٦ ، فوات الوفيات ٢/٣٧٥ .

وروى الصولي في أخبار البحتري عن البحتري انه قال : « ما رأيت أذكى من الخلفاء ، ولا أحدّ فطنة ، ولا أرقّ طبعاً : كنا يوماً بين يدي المعتز ، وفي المجلس من المغنيات شارية وعريب ، وسائر المغنين الحذّاق : فقال المعتز : أدخلوا الخراسنة ، فأدخلوهم ، فغنوا ساعات ، فقلت في نفسي : ما هذا الاختيار ورمقني المعتز وانا افكر فحدس عليّ ما وقع في قلبي ، فدعاني فقال : يا بحتري ، أيكون في بلادكم مثل هؤلاء الخراسنة ؟ قلت : يكون من جنسهم ، فأما في حذق هؤلاء فلا ! فقال : ان النفس تملّ الأجود فتلهى بما هو دونه ، فلا تعبْ اختياري فلو لا تصرّف الشهوات ما شغل الناس معدهم الا باطيب الطعام وتركوا غيره ، اعمل على انك في هذه الساعة في بلدك ، تسمع هؤلاء ، فقلت : والله يا سيدي ما خطر ببالي شيء من هذا ، فقال : حسبك فقد فهمتك فارجع الى مكانك ، ولا والله ما أخطأ ما كان في نفسي »(١) .

كما كان يحسن الغناء وله في ذلك أصوات ذكرها الاصفهاني في أغانيه(٢) . غير ان لتفسخ السياسي وغطرسة الأتراك ، وخلو بيت المال كل ذلك جعل نهاية هذا الخليفة نهاية محزنة أليمة .

والحق ان المعتز قد تعرّض للاهانة من قبل الاتراك ما لم يتعرض اليه خليفة قبله ، فتشير المراجع التاريخية الى ان الاتراك وقادتهم قصدوا الخليفة وكان مريضاً ، خائر القوى فطلبوا منه ان يدفع لهم ارزاقهم فاعتذر لهم بقلة الاموال لديه ، وسأل أمه قبيحة ـ وكانت قد استحوذت على اموال طائلة ذكرناها ـ فيما سلف ـ ان تعطيه شيئاً ليدرأ عن نفسه أذى الأتراك الذي شامه من تصرفاتهم وتهديداتهم ، فامتنعت عن ذلك محتجة بعدم توفر المال لديها ، فدخل الاتراك اليه وجروا برجله وتناولوه بالدبابيس ،

---

(١) أخبار البحتري ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٢) الأغاني ٩/٣٠٥ .

فخرج وقميصه مخرّق في مواضع ، وآثار الدم على منكبه ، وأوقفوه في الدار في وقت شديد الحر ، فكان يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقاموه فيه ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقي بيده ، ثم أجبروه على خلع نفسه وكتبوا بذلك كتاب الخلع • وتشير المراجع كذلك الى التفنن في مقتله بعد ذلك ، فكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان سنة **٢٥٥**هـ ، ودفن مع المنتصر في ناحية « قصر الصوامع » وله من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت خلافته من يوم بويع له بسامراء الى ان خلع اربع سنين وستة أشهر وأياما[١] •

ويبدو ان موت المعتز قد أثار الاسى والحزن في نفوس عدد من الشعراء فرثوه رثاء كثيراً حسناً[٢] •

وهكذا تنتهي حياة المعتز من أجل عدة ألوف من الدنانير لم يكن بمقدوره تهيئتها لانقاذ نفسه ، وقد ضنت بها عليه أمّه ، بعد ان بدأ حياته بتلك الحفلة الفخمة التي أقامها له أبوه المتوكل بمناسبة اعذاره والتي كان فيها البذخ والاسراف ما أشرنا اليه فيما مضى[٣] •

أما علاقة البحتري بالمعتز فقديمة ترجع الى عهد أبيه المتوكل ، وقد بدأ يذكره ويشيد به منذ مبايعة المتوكل له ولأخويه : المنتصر والمؤيد في سنة **٢٣٥**هـ ، وكان المعتز آنذاك في الثالثة من عمره •

---

(١) انظر : الطبري ٩/٣٨٩ ـ ٣٩٠ ، المروج ٤/٨١ ، فوات الوفيات ٢/٣٧٤ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٠ ، محاضرة الابرار لابن عربي ١/١٣ • ومن الطريف ان ابن عربي يشير الى ان عمر المعتز عند مقتله كان سبعا وأربعين سنة •

(٢) انظر : المروج ٤/٩٣ـ٩٤ ، معجم الشعراء للمرزباني ص٤٠٧ •

(٣) انظر البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص١٦١ـ١٦٤ والحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٢/٢٦٤ •

وذكره كذلك في مرثيته للمتوكل ، وتمنى ان يخلف والده ، ليأخذ بثأره من المتآمرين ومن وليّ العهد المنتصر الذي كان في جملتهم .

ولما استخلف المستعين حاول البحتري الاتصال به فمدحه بعدة قصائد ولكنه ـ كما أشرنا عند الكلام على صلة الشاعر بالمستعين ـ لم يكن مخلصاً في مدائحه له ، ولهذا فسرعان ما انقلب عليه وهجاه هجاء قبيحاً ، ومال بكليته الى جانب المعتز وذلك حين نشب الصراع بينهما على الخلافة .

ويتجلى ميل البحتري الى المعتز من الحكاية التي تشير الى انه قصده مع أبي معشر المنجم يوم كان في حبس المستعين فأنشده أبياتاً له كان قالها من قبل في محمد بن يوسف الثغرى عند حبسه[1] ، فوعدهما المعتز خيراً اذا ما آل الامر اليه ، ولما بويع بالخلافة دخل عليه الاثنان فأمر لأبي معشر بألف دينار ، وللبحتري بألف دينار لكل بيت من تلك الابيات وكانت ستة ، ونصح له ان يقتني بها ضيعة يعود نفعها عليه وعلى عقبه ، كما أجرى لكل منهما في كل شهر مائة دينار[2] .

لقد حظي البحتري لدى المعتز خطوة كبيرة ، فاثقله بالعطايا والمنح فأخلص الشاعر له كما أخلص لأبيه من قبل ، ولم يؤثر عنه شيء في ثلب المعتز ، كما وهم بروكلمان حين قال : « ثم قدم البحتري بغداد والصحيح سامراء » فمدح المتوكل وكبار رجال حاشيته ، وأقام هناك زمناً طويلاً ، فلما أفضت الخلافة الى المستعين ، ومن بعده الى المعتز ، لم يحظ البحتري

---

(١) انظر هذه الابيات في « البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل » ص ٨٤ .

(٢) انظر : الفرج بعد الشدة للتنوخي ص ٩٣ ـ ٩٥ . فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ٢/٣٧٤ وجاء فيه : ان المعتز اعطى كل واحد منهما الف دينار ، وانظر ايضا : حياة البحتري وفنه ص ١٠٨ .

منهما بطائل ، فغادر بغداد (والصواب سامراء) ورجع الى بلده مخيب الآمال ، وثأر لنفسه فهجا كلا الخليفتين هجاء قبيحاً (الموشح للمرزباني ص ٢٣٥)[1] . وحين نرجع الى الموشح الذي أحالنا اليه بروكلمان لا نجد ايّ شيء يتصل بهجاء المعتز ، وان البحتري كان مقيماً في سامراء في أكثر أيام المعتز ، حتى كان أحياناً يلتمس من الخليفة أن يسمح له بزيارة بلده ولو لمدة قصيرة[2] .

ويحسن بنا ان نشير الى بعض الامور التي لمسناها من خلال صلة الشاعر بالمعتز ومن مدائحه الكثيرة فيه :

١ ـ كثرة مدائحه وطولها فيه ، على الرغم من اضطراب الحالة السياسية وقصر مدة خلافته بالقياس الى مدة خلافة ابيه المتوكل .

٢ ـ اندفاع الشاعر باخلاص وبقوة لتأييد سياسة المعتز ، وكأنه يتوخى من ذلك اعادة ماضي أبيه الذي عاش في ظله عيشة مترفة ، ولهذا نهو ما يفتأ يشيد به ويذكر أباه ، ويجهد ان يرتفع بشعره الى المستوى الذي وصل اليه في عهد المتوكل .

٣ ـ اشارته الى الحوادث الكثيرة في عهد المعتز ، مما لم يشر اليه في عهد اي خليفة آخر فيما نحسب .

٤ ـ اشادته بالموالي (الاتراك) وقادتهم ، ومحاولته التقريب بينهم وبين الخليفة . ولعل مردّ هذا شعور البحتري بأهمية الموالي وتحكمهم بادارة البلاد من جهة ، ومناصرتهم للمعتز ـ في الظاهر ـ وليّ نعمته من جهة أخرى . فقد رثى وصيفاً بعد قتله من قبل الاتراك ، كما

---

(١) تاريخ الادب العربي ٤٨/٢ .

(٢) انظر ٧٨ـ٧٩ .

مدح صالح بن وصيف في سنة ٢٥٥هـ ، ولعل ذلك كان قبل خلافه مع المعتز ، ولكن الغريب في الأمر ان للبحتري مدحة في صالح هذا يندد فيها بالكتاب الذين تعرضوا للمصادرة والتعذيب والقتل على يديه ، وكان المعتز غير راضٍ عن تصرفات صالح في هذا الامر .

٥ ـ الحاف الشاعر والحاحه في طلب الحاجات من الخليفة ، وتوسله بابنه عبدالله في سبيل التنازل له عن بعض ضياعه ، فبدا الشاعر شرها منهوماً ، وكأنه كان يشعر بقرب نهاية الخليفة لما اعتورت تلك الحقبة من هزات سياسية عنيفة على يد الاتراك .

٦ ـ التصريح بشرب الخمر ودوران الكؤوس وما الى ذلك ، مما لم يسبق له ان صرّح به في صلاته مع من سلف من الخلفاء .

٧ ـ افاضة المعتز على الشاعر بالأموال والضياع ، واعتراف البحتري بذلك .

٨ ـ من الغريب حقاً ان يخلو ديوان الشاعر من أية مقطوعة أو قصيدة في رثاء المعتز ، وهو الخليفة الغضّ الفتيّ الذي تعرّض ما لم يتعرض له خليفة آخر من الامتهان والاذلال والقتل ، ولعل خوف الشاعر من جبروت الأتراك حال دون ذلك ، بيد ان الشاعر من جهة أخرى خلّد موت المتوكل بمرثية عظيمة ، هاجم فيها المتآمرين (الاتراك) هجوماً عنيفاً ، وكان المنتصر أحدهم .

شعره في المعتز :

لقد انشأ البحتري في المعتز الذي بقي في الحكم ما ينيف على أربع سنوات ونصف(١) منذ مبايعته في سامراء الى وفاته فيها احدى وثلاثين

(١) يبدو ان مدح البحتري للمعتز بدأ بعد توليه الخلافة رسميا في الرابع من المحرم من سنة ٢٥٢هـ ، حين خلع المستعين نفسه منها ، واذا صح هذا فتكون صلة الشاعر بالخليفة المعتز استمرت زهاء ثلاث سنين ونصفا تقريبا ، انظر : **الطبري** ٩/٣٤٨ ، **المروج** ٤/٨ ، **تاريخ بغداد** ٢/١٢٤ ، ١٢٥ .

قصيدة ومقطعة ، تربي على خمسين وتسعمائة بيت ، وهي موزعة على الوجه الآتي :

١ ـ من ٤ أبيات	الى	١٠	٣
٢ ـ من ١١	الى	٢٠	٣
٣ ـ من ٢١	الى	٣٠	٦
٤ ـ من ٣١	الى	٥٨	١٩

وقد استغرقت أبيات الغزل التي قدم فيها أماديحه زهاء (٢٥٦) بيتاً ، وما بقي وهو (٦٥٤) بيتاً كان في المدح ، ووصف الحروب التي وقعت في عهد المعتز ، وان نظرة عجلى على ما نظمه في المعتز وما نظمه في المتوكل من القصيد لتظهر بجلاً الفرق بينهما ، فما أنشأه في أبيه ـ كما أسلفنا ـ كان زهاء ثمان وثلاثين قصيدة ومقطوعة ينيف على ثمانمائة بيت في مدة لا تقل عن اثنتي عشرة سنة قضاها في كنف المتوكل ، وقد يكون السبب في هذا هو شعور البحتري بالضياع بعد مصرع المتوكل وابتعاده عن بلاط الخليفة ، وانه رأى في استخلاف المعتز ما يعيد اليه سالف عهده ، ويبوئه مركزاً مرموقاً كالذي كان عليه في عهد أبيه المتوكل • ولهذا فقد اندفع بحماسة ظاهرة الى الدفاع عن الخليفة وتأييده في سياسته والاشادة بحروبه مع الخارجين عليه ، حتى ولو كانوا من الطالبين ولعل انفراد الشاعر بالخليفة دون غيره ، كان من أسباب ارتفاع عدد قصائده فيه ، اذ لم يكن هناك آخر يزاحم ممدوحه في عطاياه ومركزه السياسي ، كالفتح بن خاقان الذي كان وزير المتوكل وخدينه وصديقه الحميم كما قدمنا •

كما قد يكون من الاسباب كذلك اضطراب الحالة السياسية في عهد المعتز ، وكثرة الخارجين على الخلافة ، الأمر الذي هيأ للشاعر مادة خصبة ومجالاً واسعاً للقول ، وهذا شيء ملحوظ في مدائحه للمعتز •

أمـــل :

ولعل في مقدمة مدائحه له هذه المقطعة التي يرجح انها قيلت في أيام الصراع بين المعتز والمستعين في سنة ٢٥٢هـ ، وفيها تعريض بالمستعين ، ويشير في البيتين الاولين منها الى انه ما زال جاهلاً بما سيؤول اليه أمر المعتز من هذا الصراع الدموي ، ويسائل غلامه قائلاً : هل سيأتي يوم يعود اليه عيشه الغض فتبتسم له الحياة الناعمة التي عاشها في كنف أبيه المتوكل من قبل . ويعرّض في البيتين الأخيرين بالمستعين الذي كان خذلانه قاب قوسين أو أدنى ، فيشبهه بالجسد الملقى على كرسيّ النبي سليمان ، مشيراً بذلك الى الآية القرآنية « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب ... »[1] . وان هذا الجسد (المستعين) أصبح بغيضا لعيناً :

ألاهـــل يحسنُ العيـــش لنا مثـــلُ الذي كـــانا ؟
وهـــل ترجـــعُ يا نـــا ئلُ بالمعـــتزِ دنيـــانا ؟
عدمتُ الجســـدَ الملقـــى على كرســـي سليمانـــا
فقـــد أصبـــحَ للعنـــةِ نقـــلاه ويقـــلانـــا[2]

نخب دولة المعتز :

هذه احدى مدائحه فيه ، تناول فيها مدحه وهجاء المستعين والثناء على الموالي (الاتراك) ، وقد افتتحها بالغزل الذي استغرق ثلاثة عشر بيتاً ، ولعـل الجدّة فيه تصريح الشاعر بالخمر ، والدعـوة الى شربها ، وهو مما لـم يكن يذكره في مدائحه السابقة للخلفاء ، فهو يحث على اعجاله بالراح ، واعمار مجالسها بالورد والريحان ، وان دولة المعتز بما فيها من

(١) انظر : ص ٣٣ .
(٢) الديوان ٤/٢٣٧٣ ـ ٢٣٧٤ .

الحسن الذي لا تجده في دولة أخرى لجديرة بأن يشرب نخبها احتفاء بها وسروراً بأيامها ، وها هو الخليفة بكرمه وجوده يخلف الأنواء ، واذا ما تهيأ للعطاء والاكرام خلته سحاباً منهمراً غامراً ، وهو حين يبدو وقد غمره جلال الملك وهيبته تحسبه البدر المكتمل • وقد مرّ بنا ان المعتز كان بديع الشكل ، حسن الوجه ، ويمضي الشاعر يسبغ على الخليفة الصفات التي ذكرها في غيره من الخلفاء فيشير الى نسبه العريق ، وصلته برسول الله (ص) وانتمائه الى قبيلة قريش ، ثم ينتقل بعد ذلك الى هجاء المستعين الذي خلع من الخلافة فيصب عليه جام غضبه ، وينعته بما يشاء من صفات الذم والقدح ، وقد مرّ بنا ذلك في الفصل الماضي • ثم ينتقل الى الثناء على الموالي (الاتراك) ويختصهم بثلث القصيدة تقريباً •

والبحتري – كما يظهر من شعره عموماً – من مؤيدي الموالي (الاتراك) ، فهو يذكرهم دائماً بالخير ، ويمدحهم ويثني عليهم وعلى رؤسائهم ، على الرغم من أنهم قد أساءوا الى الخلافة العباسية والخلفاء العباسيين اساءة كبيرة حتى يمكن القول بأن عملهم هذا كان العامل الاساس في اضمحلال الدولة العباسية والنيل من هيبتها ، وبالتالي سقوطها ، وانه لأمر غريب ان يقف البحتري في جانب العنصر التركي الذي لم يألُ جهداً في الهيمنة على سياسة الدولة والنيل من خلفائها بصنوف الاهانات والتعذيب والقتل ، ولعل من أهم ما قاموا به هو قتلهم المتوكل وليّ نعمة الشاعر المتفضل عليه ، وقد جرّ عملهم هذا بعد ذلك الى العبث بمصائر الخلفاء – كما أشرنا الى ذلك فيما مضى[1] •

والبحتري في هذه القصيدة يثني على اولئك الموالي الذين ناصروا المعتز في خلافه مع المستعين ، فهؤلاء الموالي هم جند الله الذين ألقي على عاتقهم ان يأخذوا بيد الخليفة ويقفوا معه ، وينصروه على خصمه ، وقد

---

(١) انظر : تفصيل هذا في الطبري ٩/٢٨٢ – ٣١٧ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ •

قاموا بما القى عليهم من تبعة في هذا الأمر ، ويريد بذلك خلوص الأمر للمعتز بعد تنازل المستعين عن الخلافة سنة ٢٥٢هـ ، وقد لعب الاتراك الذين انحازوا الى المعتز في سامراء دوراً كبيراً في ابان الخلاف بين المعتز والمستعين وخاضوا حروباً دامية ضد مؤيدي المستعين في بغداد حتى استطاعوا ان يوقعوا في جيوش المستعين ومعاضديه ، وأجبروه على التنازل عن الخلافة للمعتز • فبقاء الموالي عصمة الدنيا ، واعزاز للاسلام ، وهم استطاعوا ان يردّوا المعار ـ وهو المستعين ـ الى حالته الاولى ، أي ازالته عن الخلافة ، واعلنوا توبتهم مما اجترحوه من اثم في حق مناصرته ، وتخلصوا من الاثم الذي ارتكبوه حين بايعوه ، وان ما وقعوا فيه من خطأ لم يكن بدعاً ولا عجباً ، فهؤلاء الانبياء والرسل قد خطئوا من قبل ، ويسترسل الشاعر فيعدد مناقب هؤلاء الموالي في الذود عن المعتز ودرء الخطر عنه ، فمن يركب الخطر الصعب الذي ركبوه بالأمس في منازلتهم جيوش المستعين ، ومن يبذل في سبيل النصر ما بذلوه ؟ ليس هناك سواهم ، فهم لم يبخلوا عنه بالاموال الوفيرة ، ولا النفوس العزيزة ، يوم حمي الوطيس ، واشتد سعير الحرب ، بل خاضوا غمار الوغى ، ووردوا نقعها ، وهم على أتم ما يكونون من تهيؤ وشجاعة وصمود ، وكانوا يتابعون الكرّ على الاعداء اذا ركبوا ويصدقون الطعن فيهم اذا نزلوا ، ولا ينقص شيخهم الحزم والتجربة التي حصلوا عليها من خوض المعامع ، كما لا تعوز فتاهم البسالة النادرة حين ينفرد بنفسه ويعتمد عليها ، ويعد هذا الوصف لشجاعة الموالي عامة والثناء عليهم ينتقل الى رؤسائهم في تلك الأثناء وهم : وصيف وبغا الصغير ، وسيما الشرابي ، فيقول : ان هؤلاء الثلاثة جلة ، وانهم من ذوي النصيحة في المشورة والكفاء في الاعانة ، والعدالة في الحكم ، ولهذا فهو يدعو للخليفة ان يسلم لهؤلاء النصحاء الأجلاء ، كما يدعو لهم ان يسلموا له • ويبدو من البيتين الاخيرين ان القصيدة

أنشئت في سنة ٢٥٢هـ وهي السنة التي رضي فيها المعتز عن هؤلاء الثلاثة بعد ان التمس منه الاتراك وقادتهم في سامراء ذلك كما أسلفنا[١] ٠

ويخيل الينا ان ثناء البحتري على هؤلاء الرؤساء ولاسيما وصيف وبغا لا يخلو من المداجاة أو السذاجة ٠ ومن الغريب ان البحتري الذي كان ـ كما يقال ـ حاضراً مجلس المتوكل في الليلة التي قتل فيها ، والتي كانت فاتحة لتدهور الخلافة العباسية ، كما كانت ضربة قوية للشاعر نفسه الذي كان أحد ندماء الخليفة والمقربين اليه ، نقول من الغريب ان ينسى البحتري دور هذين الرجلين في حبك المؤامرة والاشتراك مع أولادهما فيها ٠ فثناؤه هذا وما بعده ، اما ان يكون مداجاة لهؤلاء الاتراك ، واما ان يكون سذاجة من الشاعر ، وقصر نظر منه ، والأغرب من هذا ان للبحتري قصيدة في الثناء على وصيف هذا بعـد مقتله ، كما له قصيدتان في الثناء على صالح بن وصيف الذي ناصب المعتز العداء ثم أوقـع بـه وصادر أموال أمه ، كما بينا هذا من قبل ٠

ولعل سذاجة الشاعر وقصر نظره في أمر هؤلاء الاتراك تظهران بجلاء حين نعلم ان بغـا هـذا حـاول ان يفتك بالمعتز ، كمـا فتك بأبيه المتوكل من قبل ٠

يقول البحتري في هذه القصيدة :

عاجلْ بنا الراح والريحانَ مبتكراً ... فليس يحسنُ الاّ فيهما العجلُ
واشرب على دولة المعتز انَّ لهـا ... حظاً من الحسن لم تسعدْ به الدول
خليفةٌ يخلف الأنـواءَ نائلُه ... اذا تهلل ، قلت : العارضُ الهطل
اذا بدا وجلا'ل الملك يغمره' ... حسبته البدر وفيَّ حسنه الكملُ
رباعه' في جوار الله واسطةٌ ... وحبلُه' برســول الله متصل

(١) انظر : ص ٥٢ ٠

وبعد ثلث المستعين الذي أشرنا اليه في الفصل السابق ، يقول في الموالي ورؤسائهم :

أما الموالي فجندُ الله حمّلهم … أن ينصروكَ فقد قاموا بما احتملوا
بقاؤهُمْ عصمةُ الدنيا ، وعزّهمُ … سترٌ على بيضة الاسلام منسدل
ردوا المُعارَ ، وتابوا من خطيئتهم … فيه الى الله ، والاثم الذي فعلوا
خطيئةٌ لم تكن بدْعاً ولا عجباً … قد «خُطِئَتْ» أنبياءُ الله والرسل[1]
من يركب الخطر الصعب الذي ركبوا … بالامس، أو يبذل النصر الذي بذلوا
قد جاهدوا عنك بالأموال وافرةً … وبالنفوس ونارُ الحرب تشتعل
تورّدوا النقعَ لا حيْد ولا كشف … وباشر والموت، لا ميلٌ ولا عزل[2]
يتواترون تباع الكرّ ان ركبوا … ويَصدقون دِراكَ الطعن ان نزلوا
ما مثلَ شيخهم حزماً وتجربةً … ولا كبأس فتاهم حين يعتمل
ثلاثةٌ جلّةٌ ان شُوروا نصحوا … او استُعينوا،كفوا،او سلّطوا عدلوا
فاسلم لهم ما دعتْ صبحاً مطوّقةٌ … وليسلموا لك ما حنّت ضحى ابل[3]

---

(١) فضلنا كتابة هذه الكلمة على هذا الشكل « خطئت » كما جاءت في طبعة بيروت ؛ لما فيها من التوجيه الحسن ١/١٨١ .

(٢) لقد نظر البحتري في بيته هذا الى قول كعب بن زهير الذي يصف فيه أصحاب الرسول (ص) :

زالوا فما زال أنكاس ولاكشف … عند اللقاء ، ولا ميل معازيل

ويخيل الينا ان البحتري حاول ان يرتفع بمستوى هؤلاء الموالي الذين يرى في بقائهم عصمة الدنيا ، وفي اعزازهم اعزازا للاسلام ؛ لما أبدوه من بسالة ، وأبلوه في الحروب بلاء حسنا ، الى مستوى ما وصل اليه أصحاب الرسول ، ولعل هذا ـ اذا صح ـ ما حدا به الى ان يستعير أكثر بيت كعب .

(٣) الديوان ٣/١٧٢٥ ـ ١٧٢٧ .

ولعل أهم ما يلحظ في هذه القصيدة الى جانب الاجادة الفنية فيها ، مشاعر البحتري الصادقة حيال الموالي والدفاع عنهم بحرارة وحماسة !

مليك لا نظير له :

وهذه مدحة أخرى له في المعتز استهلها بالتشبيب ، ثم انتقل الى الموضوع وهو مدح الخليفة ، فهذه الخلافة أصبحت رتبة مستحقة له ، وقد جمع الله شملها المبدد في يديه بعد ان رآه أهلاً لها ، ولم يفت البحتري ان يلمح الى أهمية الموالي في الذود عن الخلافة ، ومناصرة المعتز ، فهؤلاء الموالي هم الذين تولوا نصره ، وارتفعوا به الى عليين ، وان الممدوح اذا ما تجلّى للعيون ، حسبته بحراً زاخراً في كرمه وجوده ، وبدراً مطلاً في جماله وحسنه ، وانه يجمع الى ذلك ما يزينه من وقار وشجاعة ، فهو كالسيف الذي تزيده حليته أبهة وهيبة ، ويتخذ البحتري من نسب الخليفة وصلته بقريش والرسول (ص) مادة للمدح يكاد يكررها في كل مدحة من مدائحه لخلفاء بني العباس . فهذا الخليفة ـ الذي هو جمال الدنيا في الرفعة والمجد ، وغياثها في العطاء والبذل ـ كريم المحتد ، عريق الأصل ، ينتمي الى أشرف القبائل ، الى قريش ، قبيلة الرسول الكريم ، وهو منها في الذروة أصلاً وفرعاً ، وهو ابن عم الرسول (ص) ، وابن عم الصالحين المشهورين : كالحبر والسجاد والكامل ، ويمضي في تعداد ما كان لقريش من الأعمال ، ويخلص من ذلك الى وجوب طاعة الناس لهم ومحضهم حبهم ، والا فليسوا من الله في شيء ، ولو صاموا وصلوا ألف عام ، ولعل هذا ما يجلو شيئاً من عقيدة البحتري السياسية واندفاعه في تأييد العباسيين وأحقيتهم للخلافة دون غيرهم ! ولا ينسى الشاعر ان يعرّض بالمستعين المخلوع ، الذي كان خلفه المعتز يرغب في سماع ثلبه والتنديد به ، فها هو حق المعتز في الخلافة يمحو باطل المستعار (المستعين) حتى تلاشى واضمحل ، ثم يعود الى الثناء على الممدوح فيقول : قد طلب له مثيلاً وشبيهاً في السؤدد والمجد

والمكارم فعزَّ المثيل ، وفقد الشبيه ؛ لانه جمع صفات فات بها سواه ، فهو أندى الناس كفاً ، وأشرفهم أخلاقاً ، وأزكاهم قولاً ، وأكرمهم فعلاً ، وان طالعه السعيد جعل الغيث ينسكب في ساحتيه وينهمر ، وهذه أمارة من أمارات الخير ، وهذا العيد أقبل ومعه الغيوث التي عمت البلاد بوابلها حتى نقعت غليل الصحارى واستبلَّ عليلها ، وهذه الأنواء بما تحمله من مياه ثرّة لتشبهه في السماح والبذل ، وهذه السماء بما تجود به من انسكاب مياه الأنواء وهطلانها لتحاكيه في هباته وعطاياه ، وهذا الفضل أحرزه دون العالمين ، وكان به جديراً وبأحقيته خليقاً ، وينهي المدحة بالدعاء للمعتز ان يبقى مهنأ مملّى بما منحه الله من عطاء :

أصبحتْ رتبةُ الخلافة للمعـ ... ـتز بالله : منزلاً ومَحَلا
جمع اللهُ شملَها في يديـه ... وراّه لهـا مكاناً وأهلا
وليتْ نصرهُ الموالي فأعطتـ ... ـه علوَّ السِّماك أو هو أعلى
ملك مابدا لعينيك الا ... قلتَ : بحرٌ طما ، وبدرٌ تجلى
لابسٌ حلةَ الوقار ومن أبْـ ... ـهة السيف أن يكون محلّى
يا جمال الدنيا : سناءً ومجداً ... وثمالَ الدنيا : عطاءً وبذلا
كلما حُصِّلتْ مساعي قريش ... طبتَ فرعاً في منتماها وأصلا
لك محضُ النجار فيها المصفّى ... غير شكٍ والقدْح منها المعلّى
يا ابن عم النبي والحَبْر والسَّجادِ ... والكامل الـذي بان فضلا
لهمُ زمزمٌ وأفنيةُ الكعـ ... ـبة والحِجر والصَّفا والمصلّى
من أبى حبَّكم فليس من اللـ ... ـه ، ولو صام ألفَ عامٍ وصلّى
لم يزل جقُّك المقدمُ يمحو ... باطلَ المستعار حتى اضمحلا
قد طلبنا فلم نجدْ لك في السؤ ... دد والمجد والمكارم مثلا

أنت أندى كفاً وأشرف أخلا … قاً ، وأزكى قولاً وأكرمُ فعلا
طالعتك السعود فانسكبَ الغيـ … ـثُ رذاذاً في ساحتيك وهطلا
وأتى العيد في دُجونٍ تتبعـ … ـن عليلَ البطحاء حتى استبلا
عارضتك الأنواءُ فيها سماحاً … وحكتك السماءُ سحاً ووبلا
ذاك فضل أُوتيتَه كنت من بيـ … ـنِ البرايا به أحقَّ واولى
وعطاءٌ من الاله فلا زلـ … ـتَ مهناً ذاك العطاءَ مملّى[1]

ويخيل الينا ان بين هذه القصيدة وبين قصيدة للشاعر نفسه في المتوكل شيئاً غير قليل من التشابه ، فهما من بحر واحد هو الخفيف ، وهما تشتملان على أبيات تكاد تكون متماثلة لفظاً ومعنى وتقسيماً ، ويكفي للتدليل على هذا التشابه أن نسوق أبياتاً من كلتا القصيدتين ، قال في مدحته للمتوكل :

يتأبّى منعاً وينعم اسعا … فاً ، ويدنو وصلاً ، ويبعد صدّا
حاش لله أنت أفتر ألحا … ظاً ، وأحلى شكلاً ، وأحسن قدّا
أكرم الناس شيمة وأتم النا … س خلقاً ، وأكثر الناس رفدا

وقال في مدحته للمعتز :

انت أندى كفاً ، وأشرف أخلا … قاً ، وأزكى قولاً وأكرم فعلا

وقال في المتوكل :

يا ثمال الدنيا عطاء وبذلاً … وجمال الدنيا سناء ومجدا

وكرر البيت نفسه في المعتز مع جعل الصدر عجزاً والعجز صدراً :

يا جمال الدنيا سناء ومجداً … وثمال الدنيا عطاء وبذلا

---

(١) الديوان ٣/١٦٥٥ ـ ١٦٥٨ .

وأكبر الظن ان الذي دفع البحتري الى هذا التكرار هو عظمة موقع هذين الخليفتين عنده ، وانه كان يحلهما من نفسه محلاً واحداً ، وهذا ما جعلنا نقول في شعره الذي أنشأه في المعتز والذي سيمر بنا الشيء الكثير منه فيما بعد : « ان شعر البحتري في المعتز يعيد الى الذاكرة شعره في أبيه الذي كان ينبض بحرارة العاطفة ، وصدق الشعور ، والذي جهد الشاعر أن يسكب فيه عصارة ذهنه ، ويضفي عليه روائع فنه »[1] .

قصر الساج :

وهذه مدحة أخرى تدور في فلك السنة نفسها وهي **٢٥٢**هـ ، وتشتمل الى جانب المدح ، التعريض بالمستعين وهجائه ، والثناء على الموالي ورؤسائهم الذين رضي عنهم الخليفة بعد ان كان ساخطاً عليهم ، كما تشتمل على وصف أحد قصور المعتز وهو قصر الساج ، وعلى التماس الشاعر السماح لرؤية أهله وامداده بما يصلح فيه ضيعة له .

والبحتري يفتتح مدحته على عادته المألوفة بالغزل الذي استغرق أحد عشر بيتاً ، ثم يتخلص الى المدح بطريقة جميلة ، فقد خاطب أحدهم وكأنه يريد به نفسه ، فقال : اذا كنت ذا عزيمة فعليك ان تسري صوب الامام على عتاق النوق ، ولا تخش الدياجي المسفعة ، فان خلافته باشراقها ونورها بددت تلك الدياجي ، وان الخليفة المذكور لا يعتمد في أموره الا على الله والرأي الأصيل الوثيق ، وانه لهج باصلاح أمور الدولة ، يروضها بتدبيره المحكم ومنهجه الوثيق ، وانه ملك تخضع له الملوك ، تدين له بالطاعة والولاء ، وتقتدي بكرمه الفياض البحار الزاخرة ، ولججها العظيمة ، وقد رعى المسلمين بنظر ثاقب متفقد ، وحاطهم بصدر رحب مشفق ، وانه اذا ما أشرف وأطل أضمرت قلوب الرائين له مهابة

---

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٢٢ .

واجلالاً ؛ لما يبدو عليه من أمارات الوقار ، وفخامة المنطق ، وتهللت أسارير وجهه النضر لمعتفيه والراغبين في نائله ، وانه ليتشبه بفضائل أجداده وأسلافه ، ويبقى خاشعاً لله يخشاه ويتقيه ، كما يخشاه الناس ويتقونه • ويسترسل الشاعر في وصف المعتز فيشبهه بنصل السيف المرهف الحدّ ، وقد أضاء رأيه اللامع المترقرق ، وهو تشبيه رائع كما ترى ! وانه لمهذب الأخلاق يرتاح للكرم ، فيثنيه انثناء الغصن بالنسيم الرقيق ، وبعد ان يستطرد في الثناء على المعتز ونعته بالرقة واللطف يخشى أن يفهم من ذلك ضعفه وخوره فيعقب على ذلك بأنه طلق المحيا ، ولكنه اذا ما أبدى العبوس في الملمات ، خضعت له شوس الرجال ، وخفضت من أصواتها ، هيبة واخباتاً ، وانه ليتستر على الآخرين فيهب لهم ذنوبهم ، ويصفح عن سيئاتهم ، وهي ما تزال جديدة لم يقدم عهدها ، ولم يطل أمدها واذا ما بدا وظهر من الجوسق فان نوره الساطع ليغشى العيون الناظرة اليه •

وبعد هذا الثناء ينتقل الشاعر للتعريض بالمستعين الذي يحلو للمعتز أن يسمع ثلبه والتنديد به • ويبدو انه كان في الأيام الاولى من خلع المستعين بدليل تعريضه به في القصائد التي أنشأها في غضون هذه السنة ٢٥٢هـ وهي التي تنازل فيها المستعين عن الخلافة كما ذكرنا •

وكما يحلو للمعتز ان يستمع الى ثلب سلفه ، يحلو للبحتري أن يشيد بالموالي (الاتراك) ورؤسائهم الذين نصروا المعتز ـ كما يقول ـ في أيام الفتنة بينه وبين المستعين ، فهؤلاء الموالي نصروه بآرائهم وسيوفهم يوم كان الملك شتيتاً ممزقاً • وهؤلاء رؤساؤهم الثلاثة : وصيف وبغا وسيما الشرابي ، كان لهم ما كان فقد كفوه القضاء على الممانع ، وافتتاح ما كان أغلق من أمر ، فلهم من جراء ذلك احتياط المعتني ، ومقام الرجل الكافي المضطلع بالمهام الجسام من الأمور ، كما لهم ما للناصح الشفيق من

الاخلاص في المشورة • ولا ندري الى أى مدى يمكن ان تنطبق هذه الصفات او بعضها على أولئك الرؤساء الثلاثة خاصة • وقد أشرنا فيما سبق الى صلتهم بالمستعين والمعتز وما كان من أمرهم • ويبدو ان البحتري جهد ان يقارب بينهم وبين المعتز فخلع عليهم ما خلع من صفات الاخلاص والأمانة والشجاعة وما الى ذلك •

وبعد أن يسبغ الشاعر هؤلاء الموالي ورؤسائهم ما يسبغ من الصفات يدعو للخليفة ــ كما فعل في أعقاب القصيدة الاولى ــ أن يسلم لهم ، كما تمنى ان يسلموا له ؛ لانهم الجُنة التي يحتمي بها في أيام المحن والشدائد • وبعد الفراغ من تقريظ الموالي يعرّج على وصف أثر من آثار عمران الخليفة وهو قصر الساج ، فقد كان المعتز كأبيه المتوكل شغوفاً بالعمران والبناء ، فابتنى له قصوراً فخمة عجيبة ، وكان منها هذا القصر • ويبدو ان البحتري قد بدأ بوصف ما كان يكتنف هذا القصر من أصناف الشجر ، فهذا البساط الذي مدّ أمامه ويظهر انه كنى بالبساط عن الخضرة الممتدة ازاء القصر ــ تعج غرائب نبته بضروب من الوان الورد المتفتق في الغصون ، وهذا الشجر القائم تميد غصونه وهو ما بين مزهر أو مثمر أو مورق ، وبين هذه الجنان الوارفة يقوم « قصر الساج » الذي بدا بزينته ورونقه كأنه خليلة عاشق برزت لمحبها بوجه رائق معجب ،وهذاالقصر الذي اكتملت محاسنه ، منشأ في قلعة بيضاء محاطة ببحر زاخر من وفرة المياه ، وهو قريب المكان ، ليس بناءٍ على من يرغب في زيارته ، كما ان فناه واسع رحيب لا يضيق بالزائرين ، وان اتخاذه وبناءه كانا من تقديرات الخليفة التي لا تدل على الاسراف او الشح ، وقد اتصل هذا القصر بالقصر الجعفري المشهور بوساطة نهر يحمل المياه من جنوب الخندق • ثم يمضي البحتري المولع بالوصف فيصف هذا النهر فيقول : انه والماء يجري في نواحيه صافياً هادئاً ــ أشبه بافرند متن السيف المتألف ، ولكن ما ان تضربه الريح حتى يتحول ماء هذا النهر الهادىء

الى موج مدرّج مترقرق ، والبحتري لا يكتفي بالاشارة بما يراه من أعمال الخلفاء فحسب به انه ليشارك في ذلـك ويبدي رأيه أحياناً فيما يحسب انه الصواب ، فها هو يقترح على المعتز أن يمد في هذا النهر ، ويصله بقصر البديع ؛ فعند ذلك يتم انهاءه بدجلة بالقرب من الجوسق قصر المعتصم المشهور .

وكان الخلفاء كثيراً ما ينتقلون الى قصورهم الجديدة في أيام الأعياد والربيع ، ولعل اشارة البحتري الى المهرجان ــ وهو عيد فارسي الاصل يكون في أول الشتاء ــ دليل على انتقال الخليفة الى هذا القصر ، فهـذا المهرجان له يد وفضل لما جاء به من انهمار الغيث الذي غمر الأرضين وهو ولاشك من أمارات الخير والبركة . وانت لا تكاد ترى في السماء الا المزن العارضة الممطرة ، أو السحب المتألقة بالمياه . وان هذا القصر وما احتواه من صنوف الورود والشجر ، وما أمدّ به من المياه الثرّة لجدير بأن يهنأ به صاحبه ، ويتمنى له السعادة والعز ودوام العمر .

والبحتري ــ بعد ان تغزّل وأثنى وعرّض بالمستعين ، وامتدح الموالي ووصف أعمال الخليفة ، وتمنى له البقاء والدوام والسرور ــ ما كان ليقتصر على هـذا فحسب ، لذلـك فقد أنهى هـذه المدحة المتنوعة الأغـراض بالتساؤل والمسألة وطلب الرفد ، فهو يقول : هل سيعود الى الشام ــ بلده ــ مبجلاً في ظل دولة المعتز فيصلح ما فسد له من ضياع يصف المعتز اسم واحدة منها . ولعل في هذا اشارة الى ان له ضياعاً قد فسدت ، فهو يريد من الخليفة اصلاح واحدة منها يعينها الخليفة ، كي يتسنى له ان يلم هناك بصبية له صغار .

والبحتري ــ كما يبدو ــ يشير في هذه القصيدة لأول مرة الى ان له صبية صغاراً ، وقد أغفلت المصادر التي ترجمت له ذكر أولاد لـه

سوى يحيى ابي الغوث وابن آخر[1] . وهو يلتمس من الخليفة أيضاً أن يسمح له بشهرين لكي يلتقي بشمله المتفرق ، وان هديل الحمام ، وزجل الرعد ليذكرانه بأهله ويزيدان من شوقه واشياقه ، وانه لينثني الى غلامه « نائل » متسائلاً – وقد شام البرق في الافق – كيف السبيل الى السماح له بالزيارة والالمام بأهله ؟

ولعل في هذا دليلاً على ان البحتري في اثناء تردده على خلفاء العباسيين في سامراء واقامته في اكنافهم ، لم يكن يصطحب معه من أهله أحداً سوى غلامه أو غلمانه فهو يقول :

ان كنت ذا عزم فشأنك والسرى ... قصدَ الامام على عتاق الأنيق
لا ترهبنَّ دجى الحنادسِ بعدما ... صدعتْ خلافتهُ بنور مشرق
لله معتمدٌ على الله اكتفى ... بالله والرأي الأصيلِ الاوثق
لِهجٌ باصلاح الامور يروضها ... تدبيرُهُ في منهجٍ مستوسق
ملك تدين له الملوكُ وتغتدي ... لُججُ البحار بسيبه المتدفق
فرعى سوادَ المسلمين بناظر ... متفقدٍ وحياطِ صدر مشفق
أوفى فأضمرتِ القلوبُ مهابةً ... لموقَّرِ اللحظاتِ فخْمِ المنطق
وتهللتْ للراغبين أسرّةٌ ... يضحكن في وجهٍ كثير الرونق
تتقبلُ المعتز فضل جدوده ... بخلال محمود الخلالِ موفق
ويظل يُخشى في الاله ويُتّقى ... فيه كما يخشى الالهَ ويتقي
ضرب كنصل السيف أرهف حدُّهُ ... وأضاء لامعُ رأيه المترقرق
ومهذبُ الأخلاق يعطفُه الندى ... عطفَ الجنوب من القضيب المورق
طلقٌ فان أبدى العبوس تطأطأتْ ... شُوسُ الرجال وخفضت في المنطق
متغمدٌ يهبُ الذنوبَ ، وعهدُها ... لم يستطل ، وجديدها لم يخلق
يغشى العيونَ الناظرات اذا بدا ... قمر مطالعهُ رباعُ الجوسق
اللهُ جارُك تبتغي ما تبتغي ... في المكرمات ، وترتقي ما ترتقي

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص ٢٦٧ .

فلقد وليت فكنت خير مجمّعٍ اذ كان من ناواك شرَّ مفرق[1]
او لتك آراءُ الموالي نصرةً بسيوفهم والملكُ جدُّ ممزقَ
من ناصر بحسامه ، ومخذّلٍ عنك العدوَّ برأيه المستوثق
كل رضىً ، وأرى ثلاثتهم كفوا قسرَ الممانع وافتتاحَ المغلق
لهم احتياطُ المعتني ومقاومُ الـ ـكافي ، ورفرفةُ النصيح المشفق
فاسلم لهم ، وليسلموا لك انهم لك جُنّةٌ من كل خطبٍ موبق

* * *

سبتٌ ونوروزٌ ونجدة سيدٍ ما شابَ بهجةَ خُلقه بتخلّق
وأرى البساطَ وفي غرائبِ نبته ألوان ورد في الغصون مفتّق
شجر على خُضَر ترف غصونُه من مزهر أو مثمر أو مورق
وكأن « قصر الساج » خلّةُ عاشق برزتْ لوامقها بوجه مونـق
قصر تكاملَ حسنهُ في قلعةٍ بيضاءَ واسطةٍ لبحر محدق
داني المحلّ فلا المزار بشاسع عمن يزور ولا الفناء بضيّق
قـدرّته تقدير غير مفرّطٍ وبنيته بنيان غير مشفق
ووصلت بين الجعفريّ وبينه بالنهر يحملُ من جنوب الخندق
نهر كأن الماء في حَجَراته إفرندُ متن الصارم المتألقِ
واذا الرياح لعبنَ فيه بسطن من موج عليه مدرّج مترقرق
ألحقتْهُ يا خير الورى بمسيله وامددْ فضول عُبابه المتدفق
فاذا بلغت به البديعَ فانما أنزلتَ دجلة في فناء الجوسق

* * *

للمهرجان بدٌ بما أولاه من هطلان وسميّ السحاب المغدق
فاسعد أميرَ المؤمنين ممتعاً بالعزّ ما عَمرَ الزمانُ وما بقي
هل أطلعنَّ على الشآم مجلاً في عزّ دولتك الجديد المونق

---

(١) لم تذكر الابيات التي هجا فيها المستعين هنا ، ويمكن الوقوف عليها في الفصل السابق ص ٣٥ ·

فأرْمَ خلة ضيعة تصفُ اسمها وأُلِمَّ ـ ثم ـ بصبية لي دردق
شهران ان يسرت أذبي فيهما كفلا بألفةِ شملِيَ المتفرق[1]
قد زاد في شوقي الغمام وهاجني زجلُ الرواعد تحت ليلٍ مطرق
لما استطار البرقُ قلت « لنائل » كيف السبيل الى عنان مطلق[2]

وغني عن البيان ان هذه القصيدة تمثل احدى قصائده الجياد ، وانها من الجودة في اللفظ والمعنى مالا حاجة الى تبيان ذلك على الرغم من اشتمالها على أغراض شتى : من مدح وهجاء ووصف وطلب ، وغير خاف ما في أوصاف البحتري التي بثها في تضاعيف هذه المدحة من الروعة والبراعة ، وبخاصة أوصافه لهيبة المعتز واريحته للندى ، وتشبيهه بنصل السيف ، وكذلك أوصافه لقصر الساج وما اشتمل عليه من غرائب النبت ، وصنوف الزهور والورد وما الى ذلك[3] . وهذا ما دعانا الى الزعم بأن شعر البحتري في المعتز يسمو كثيراً الى مستوى شعره الجيد في ابيه المتوكل .

ومن الجدير بالذكر ان البحتري في هذه المدائح لم يصرح بشيء مما اعطاه المعتز ـ على الرغم من نعته له فيها بالكرم والجود ، ولعل هذا ما اضطره في هذه القصيدة الى التصريح بطلب اكرامه واثابته .

من خلال هجاء المستعين :

والبحتري ـ كما مرّ بنا ـ كان يشيد بفضل المعتز من خلال أهاجيه

---

(١) أشرنا في ص ٦٢ عند الكلام على صلة البحتري بالمعتز الى ان بروكلمان يرى ان البحتري لم يحظ بطائل لدى المعتز فاضطر الى مبارحة بغداد (كذا والصواب سامراء) الى الشام ، وقد فندنا هذا الرأي هناك ، وقول البحتري هذا دليل واضح على بطلان رأي بروكلمان .

(٢) الديوان ٣/١٤٧٩ ـ ١٤٨٤ .

(٣) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

للمستعين وبخاصة في أيام الصراع الناشب بينهما ، فها هو بعد أن هجا المستعين هجاء قبيحاً عرّج على المعتز فمدحه وأشاد بكثير من الصفات التي أسندها من قبل لأبيه المتوكل ، فهو يقسم بالبيت الحرام ان المعتز سار بالمسلمين سيرة عدل واضحة ، وانه تدارك دين الله بعد ان عفت معالمه ، وطمست سننه ، ولمّ شتات الملك فتجمعت نواحيه وأقطاره ، وهو امام يأمل الراجي عدله ، ويرهب الراهب سطوته ، وقد أدار ملكه خير ادارة ولما يزل في عنفوان شبابه ، فكيف وقد تمرّس بالحكم وعركته التجارب ؟ وهو أغرّ ينتمي الى الرسول الكريم (ص) ، يهب النفوس للخارجين عليه ، ويصفح عن ذنوبهم ، وقد انقادت اليه ـ لشجاعته ويقظته ـ النواحي المضطربة ، وأذعن له كل من سولت له نفسه الخروج عليه ، وهو دائماً ذو فضل على من يكون في طاعته ، ووطأة وشدّة على من يعاديه . وبعد هذه النعوب يعود الشاعر فيكرر عراقة الخليفة وانتسابه الى قبيلة قريش التي يحتل فيها مركز الصدارة فخراً ومأثرة ، وان الملك قد توطد بمجيئه وترسخت أواصره ، وثبتت دعائمه ، وعلمت الرعية انه أهل للخلافة مستحق لها ، وانها ـ اى الخلافة ـ تنحاز الى السنن الذي يسنه لها ، يقول بعد هجائه للمستعين :

فأقسمت بالبيت الحرام،ومن حوت	أباطحُه من مُحرمٍ وأخاشبُهْ
لقد حمل المعتزُ أمة أحمد	على سَنَن يسرى الى الحق لاحبه
تداركَ دين الله من بعد ماعفتْ	معالمه فينا وغارت كواكبه
وضم شَعاع الملك حتى تجمعت	مشارقه موفورةً ومغاربه
إمامُ هدى يُرجى ويرهب عدله	ويصدُق راجيهِ الظنونَ وراهبه
مدبِّر دنيا أمسكت يقظاتُهُ	بآفاقها القصوى وماطرٌ شاربه
فكيف وقد ثابت اليه أناتُهُ	وراضت صعابَ الحادثات مواهبه
وابيضُ من آل النبي اذا احتبى	لساعة عفوٍ فالنفوسُ مواهبه

تغمَّد بالصفح الذنوب وأسجحتْ — سجاياه في أعدائه وصرائبه
نضا السيف حتى انقاد من كان آبياً — فلما استقرَّ الحقُ شيمت مضاربه
ومازال مصبوباً على من يُطيعه — بفضل ، ومنصوراً على من يحاربه
اذا حصَّلتْ عُليا قريش تناصرت — مآثِرُه في فخرهم ومناقبه
له منصبٌ فيهم مكينٌ مكانُه — وحقٌ عليهم ليس يدفع واجبه
بكَ اشتد عظمُ الملك فيهم فأصبحت — تقرُّ رواسيه وتعلو مراتبه
فقد علموا ان الخلافة لم تكنْ — لتصحبَ الا مذهباً أنت ذاهبه[1]

الفداء بين المسلمين والروم :

وهذه قصيدة أخرى يهجو فيها المستعين ويمدح من خلالها المعتز ، بدأها بالغزل الذي اشتمل على عشرة أبيات ، ثم هجا المستعين باثنى عشر بيتاً منها ومدح المعتز بخمسة عشر بيتاً ، وما تبقى منها خصص للثناء على وصيف التركي وشكر الخليفة .

فبعد الغزل انتقل الى هجاء المستعين هجاء قبيحاً سوقياً أسفَ فيه كثيراً ، وأنهاه قائلاً : ان الناس تفانوا في عهده حتى ليخيل الينا ان حرب البسوس أو الفجار قد عادت من جديد ، يشير بذلك الى الصراع الدموي الذي نشب بين مؤيدي المعتز من جهة ، ومعاضدي المستعين من جهة والذي أشرنا اليه سابقا[2] .

ولولا الله والخليفة المعتز لقضي على الناس وبادوا ، كما قضي على جديس ووبار من قبل فبادوا ، فقد تدارك طائفة منهم أصيبت بالذهول والحيرى وأوشكت ان تشرف على جرف هارٍ ، من الكوارث والمصائب وتلافاهم بشيئين : بنعمٍ سابغة ، وعفو شامل ، ولكنه لم يكن ضعيفاً

---

(١) الديوان ١/٢١٧ ـ ٢١٨ .
(٢) انظر : ص١٦ .

بذلك ، بل كان مقتدراً متمكناً ، وهو امام هداية يحبه الناس لتأنيه في معالجة المعضلات ، ويرهبونه في حالتي السكينة والوقار وهو كذلك جميل الطلعة ، وسيم المحيا ، يحسبه الراؤون بدر الليل ، أو شمس النهار ، وكان المعتز موصوفاً بالجمال والحسن كما ذكرنا !

وقد حاز فضل أمه وأبيه ، واستمد طيب سجاياه من كرم أصله وعريق محتده ، وحين هزّ للاحداث الناشبة ، وجد أهلاً لها ، قديراً عليها ، وانه ذو كرم فياض ، يغضّ من البحار ساعة العطاء ، واذا ما اهتز للمعروف فانه أمدّ كفاً وأكثر هبة للجين وللنضار ، وهو أحفظ للعهد ، وأحمى للحرمة •

والبحتري الذي اتخذ من شعره وسيلة لذكر الحوادث الواقعة في عهود من يمدحهم من الخلفاء ، لم يفته شيء ذو بال من تلك ، فهو يشير في هذه القصيدة الى مفاوضات الفداء التي جرت بين الروم والمسلمين في عهد المعتز والتي أدت الى ان يتم هذا الفداء في سنة ٢٥٣هـ ، كما يقول المسعودي[١] • فالشاعر يقول : لئن تم هذا الفداء كما نرجوه ونأمله في عهد الخليفة بعد انتظار ومكث ، فان من أزكى صفاته ان ينقذ أسارى المسلمين من الأسر ، وقد بذل فيهم الاموال كي يرجعوا الى أهليهم وديارهم • وان فعلته الحميدة هذه أعظم هدية تصل انباؤها الى اقطار البلاد • ويبدو ان المعتز عهد بذلك الى وصيف التركي الذي رضي عنه بعد أن جفاه وأمر باسقاط اسمه في أول استخلافه كما أشرنا الى ذلك من قبل ، فالبحتري يقول للمعتز : انه حبا بحسن سمعة هذه الفعلة ـ فعلة الفداء ـ وصيفاً ، فنال بها شرف الفخار والتقدير ، وانه رعى منه أمانة ونصحاً فكان موفقاً في هذا الاختيار ، وانه قام بما قام به وفاء له ، وخاطر

---

(١) انظر : التنبيه والاشراف ص ١٦٣ ، والديون ٩٣٨/٢ هامش (٣٣) •

بنفسه في وقت شديد الخطر ، وآثر خدمته والانقطاع اليه دون سواه ، في حين كانت مغريات دنيا المعار (المستعين) قد شرعت في فتح أبوابها له ، وكلما حاولوا تقريبه واغراءه أغرب في البعد والنأى عنهم .

ويمضي البحتري في الدفاع عن وصيف فيقول : من الجفاء أن يتهم بالغدر ، وليس من النبل أن يحل محل عار ؛ فذو الهمة العالية ، والنفس الرفيعة يسمو أبدا بهمته الى الرتب السامية ، والمقامات الكبار . ويبدو من دفاع البحتري هذا ان وصيفاً قد اتهم بخيانة ، ولو رجعنا الى سيرة هذا الرجل لوجدناها تشير بوضوح الى انه لم يكن مؤتمناً ولا مخلصاً في صلاته بالخلفاء العباسيين ، وقد أشرنا الى انه اشترك هو واولاده في مؤامرة اغتيال المتوكل ، ثم أبعده المنتصر الى الثغور ، واتصل بعده بالمستعين ثم انحرف عنه لما وجد جانبه قد ضعف ، واطرحه المعتز في بادىء الأمر ثم اضطر الى الرضا عنه تحت تأثير طلب الاتراك ، وقتل أخيراً بيد الاتراك أنفسهم بكرخ سامراء في سنة **٢٥٣**هـ[١] . وينهي البحتري القصيدة بشكر الخليفة نيابة عن شفيعه وصاحبه وجاره ، ويرجو له البقاء والسرور ، والعز أبد الدهر :

فلولا اللهُ والمعتزُّ بدنا ... كما بادت جديسٌ من وبار
تدارك عصبةً منا حيارى ... على جُرُفٍ من الحدَثان هار
تلافاهم بطولٍ منه جمٍّ ... وعفو شامل بعد اقتدار
امامُ هدى يحبَّب في التأني ... ويختى في السكينة والوقار
اذا نظر الوفودُ اليه قالوا ... أبدرُ الليل أم شمس النهار ؟
له الفضلان : فضلُ أب وأم ... وطيب الخيم في كرم النجار
هززناه لأحداث الليالي ... فأحمدْنا مضاربَ ذي الفقار

* * *

(١) انظر : ص ٣٦ - ٣٧ .

لئن تمَّ الفــداء كما رجونـا بيُمنك بعــد مكث وانتظـار
نمن أزكى خلالك أنْ تفادي أسارى المسلمين من الاسـار
بذلت المالَ فيهم كي يعودوا الى الأهلــين منهم والديـار
فيالكِ فعـلةً يهدى ثناهـا الى أهل المحصب والجمـار

* * *

حبوتَ بحسن سمعتها وصيفـا فنال بنبلها شرَف الفخــار
رعيتَ أمانـة منـه ونصحا وأنت موفــقٌ فيَ الاختيـار
وفازَ من الوفاء لكم عزيـزا وخاطرَ عند تغرير الخطـار
وآثركم ولـم يؤثرْ عليـكم وقد شرعتْ له دنيـا المعـار
اذا ما قربَــوه وآنســوه غلا في البعد عنهم والنفـار
حياءٌ أن يقــال أتى بغـدر ونبلاً ان يحلَّ محـل عـار
وهمــةُ مستقل النفس يسمو بهمتــه الى الرتَب الـكبار
شـكرتُكَ بالقـوافي عن شفيعي اليكَ وصاحبي الادنى وجاري
فلا نعــدْم بقاءك في سرور وعزَّ ماسرى الظلماء سار(١)

النهوض بأعباء الخلافة :

ويمضي البحتري يدبّج قصيدة في المعتز ، الذي وجد في كنفه ما كان افتقده بعد مصرع ابيه ، وهذه واحدة من مدائحه انتقل بعد الغزل الى المدح ، فهذا المعتز قد أعطاه الله نعمة واسعة فضفاضة لا تحد ولا تقدر ، وان الله تلافى به الناس من فتنة عظيمة أناخت على العالم الاسلامي حولا وأشهراً ، والبحتري يشير بذلك الى الصـراع الذي نشب بين المستعين والمعتز والذي استمر زهاء سنة قاسى فيها الطرفان المتصارعان ألوانا من الشدائد والمكاره ، ثم آل الأمر الى خلع المستعين واستخلاف المعتز كما اسلفنا .

---

(١) الديوان ٢/٩٣٧ ـ ٩٣٩ .

والبحتري المولع بالموالي وأياديهم البيض في نصرة المعتز ، لا يكل ولا يمل من اهتبال كل فرصة سانحة للاشادة بهم ولو بصورة مقتضبة ، فالمعتز هذا أعين على خصمه بسيوف الموالي التي سلت في وجه المستعين ومناصريه من أهل بغداد ، وبصبرهم في حومة الوغى واستعار الحرب ، ثم يسترسل في الثناء على الخليفة وتعداد ما يمتاز به من صفات ، فاذا هو أغر أبيض من الملوك ، اذا ما رأيته تذكرت جده المعتصم وأباه المتوكل ، وقد تقدم في حق الخلافة أمره ، اذا ما تأخر غيره عنها ونكص فله الفضل دون المتقدمين اليها ، وقد سار سيرة عادلة فأقام منار الحق حتى اهتدى به من كان لا يبصره ، فشمل بفضائله الدنيا حتى أقبل ما كان أدبر منها ، وذلك بما امتاز به من رزانة وحلم ، وجود وكرم . ومن أجل كل هذا فهو أي الشاعر يدعو له بالتعمير ؛ لان في ذلك ابقاء لعمر الندى والجود ، وان المجد والحمد والعلا لا يمكن ان تحاط الا اذا أحيط الخليفة ونصر ، وانه ليفوق القطر كرماً وسعة ، وهو الى جانب كل ذلك متيقظ ، قوي ، تعيش الرعية في ظله هادئة مطمئنة ، وقد نهض بأعباء الخلافة مقتدرا كافياً ، وانه ليرجى لها ويأمل ، وقد سعى الى منصب الخلافة ، سعي رجل كفء متمكن ، وانه اذا سالم أحداً كان موفقاً في سلمه ، وان حارب كان موفقاً في حربه ، ويحلو للبحتري ان يجري مسابقة بين المعتز وأسلافه من الخلفاء كما فعل مع المستعين في أوائل مدائحه له ، فيقول : لئن سبق الأئمة (الخلفاء) في الشوط فكان في مقدمتهم ، وطال الملوك في السياسة والتدبير ، فلا غرو اذا ما انخفضوا واعتلى ، ولا منكر اذا ما قلوا وكثر .

وينهي المدحة مشيداً بنسب الخليفة الذي كثيراً ما ردده في مدائحه للخلفاء وهو النسب الذي يربط الخلفاء العباسيين بالعباس عم النبي (ص) ، كما يشيد بعمل العباس عندما استسقاه عمر بن الخطاب في السنة التي

أجدب فيها المسلمون ، والتي أشار اليها الشاعر في مديحه للمتوكل من قبـل :

لقد أعطى المعتزُ باللهِ نعمـــة ... من الله جلّتْ أن تحد وتقدرا
تلافى بـه اللهُ الورى من عظيمة ... أناختْ على الاسلام حولا وأشهرا
ومن فتنة شعواءَ غطـى ظلامهـا ... على الافق حتى عـاد أقتمَ أكدرا
أُعِينَ بأسياف المـوالي وصبرهـم ... على الموت لما كافحوا الموت أحمرا
أغر من الاملاك اما رأيتَهُ ... رأيت أبا اسـحاق والقرَ جعفرا
تقدم في حق الخلافة سهمُهُ ... اذا رُدَّ عنها غيره فتأخـرا
أقام منارَ الحق حتى اهتدى به ... وأبصرَه من لـم يكن قط أبصرا
وعادت على الدنيـا عوائدُ فضـله ... فأقبـل منهـا كلُّ ما كان أدبـرا
بحلم كأنَّ الارض منه توقرت ... وجود كأن البحر منه تفجَّرا
عمرت ـ أميرَ المؤمنين ـ مسلَّما ... فعمر الندى والجود في ان تعمرا
وليس يحاط المجدُ والحمد والعلا ... بأجمعها حتى تحاطَ وتنصـــرا
ولما توليتَ الرعيـــة محســـنا ... منعتَ أقاصي سر بها ان ينفرا
نهضت بأعباء الخلافة كافيـــا ... ومازلتَ مرجـوا لها متنظَّرا
فلم تسع فيها ، اذ سعيت مثبِّطـا ... ولـم ترم عنها ، اذ رميت مقصِّرا
لئن فُتَّ غايات الأئمـــة سـابقا ... فطلتَ الملوك سائسـاً ومدَّبرا
فلا عجبٌ في أنْ يغيضوا وتعتلـي ... ولا منكرٌ في أنْ يقلّوا وتكثـرا
وقد ترك العباس عندك وابنه ... علاً طلْنَ مرمى النجم حتى تحيرا
هما ورثاك ذا الفقار ، وصيَّـرا ... اليك القضيب والرداء المحبرا
فايُّ سناء لست أهلا لفضلـــه ... واولى به من كل حيَ وأجدرا
وانت ابن من أسقى الحجيج على الظما ... وناشدَ في المحل السحاب فأمطرا[1]

---

(١) الديوان ٢/٩٣١ ـ ٩٣٤ .

وظـاهر أن أكثر النعوت التي اسـندها البحتري للمعتز في هذه القصيدة يعيد الى الادهان ما كان أسنده الى أبيه المتوكل من قبل • وانه ليخيل الينا ان الشـاعر كان يجهد ما يسعه الجهد في استحضار الصفات التي كان ينعت بها والد الممدوح ، والارتفـاع في قصيده الى المستوى الذي بلغـه في تلك المدائح ، ولعلنا لا نخطىء اذا ما زعمنا ان هذه المدحة ـ لو حذفت بعض أبياتها ـ تكاد لا تختلف في شيء عن مدائحه للمتوكل !

الطالبي في الكوفة :

وهذه مدحة أخرى له في المعتز أشار فيها الى انه اولى بني هـاشم بالنصرة والتأييد ، فهو وارث البرد والقضيب ، ووارث حـكم الله ، فعلى الناس جميعاً من سيد ومسـود ان يذعنوا لـه لأحقيتـه للخلافة ، وانـه لعريق الأصل ، زكي النسب في الامهات والآباء ، طيب النفس ، ذو فضيلة تربي في الجدود ، وذو عزمات مستمدة من عزمات المنصور ، ومكرمات مستوحاة من مكرمات الرشيد ، وهو ملك يملأ العيون ـ لجماله وحسنه ـ بهاء حين يطل ، وقد عقد التاج على جبينه •

وبعد هـذه النعوت والاوصاف يشير الى أحد الخارجين على الخلافة من الطالبين ، وهو اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم الذي ظهر بمكة في سنة ٢٥١هـ في عهد المستعين ، فأخذ ما كان في الكعبة من ذهب ، وما في خزائنها من الذهب والفضة والطيب ، واستحوذ على الـكعبة ، وأخذ من الناس أموالاً كثيرة ، ثم أنهب الـكعبة وأحرق بعضها ، وبقي خمسين يوماً ، ثم رجع اليها وحاصرها فلقي الناس عنتاً ومكابدة ، وقصد جدة ففعل بها وبأهلها ما فعل بمكة • ثم أم عرفة ومنع الناس من الوقوف بها ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، ثم كر راجعاً الى جدة فافنى أموالها • ويبدو انه مات في سنة ٢٥٢هـ ، كما يقول الطبري[١] •

---

(١) انظر : الطبري ٢٤٦/٩ ـ ٣٤٧ ، ومقاتل الطـالبيين لابي الفرج الاصفهاني ص ٤٧٣ •

يقف البحتري من هذا الطالبي موقف المندد بعمله ، المستنكر لفعله ، ويظهر بجلاء نزعته الى العباسيين ، وميله نحوهم ، فالله بريء من هذا الذي أحل حريم الله ، وسطا على بيته المقصـود ، فلم يكن عمله هناك عملاً مرضياً ، ولا ما أتاه من أمر رشيداً • بيد ان اتيانه مكبلاً بالحديد خفف مما كانت تشعر به القلوب من الآلام • ولا ندري هل ان ما قالـه البحتري في هذا الشأن كان صحيحاً ، فالمراجع التي ذكرت الحادث لم تشر الى ذلك ، وانما اكتفت بالقول : « وفيها (أي سنة **٢٥٢هـ** » مات اسماعيل بن يوسف الطالبي الذي فعل بمكة ما فعل »[١] • وكان على هذا الطالبي ان يعلم ان النصر لا يكون الا مع الراية السوداء ، وهي شعار العباسيين كما هو معروف • ولعل في هذا اشارة قويةوواضحة الى ميله نحو العباسيين ، ولا يفوت البحتري ان يثني على اولئك الذين يشدون من أزر الخليفة في أوقات الحروب وهم الموالي (الاتراك) ، وعليه أن يقرّ أن الخليفة مؤيد ومنصور من قبل الموالي الاشداء الذين لا يهولهم عدد ولا تفزعهم عُدة • ويربط البحتري بين نصر المعتز على هذا الطالبي وبين تشييده قصراً جميلاً هو قصر «الكامل» ، لا كما ظنه شارح الديوان « الزَوّ » ، وقد أشرنا الى هذا في كتابنا « سامراء في أدب القرن الثالث الهجري »[٢] •

فهذا القصر قـد تم بناؤه في الوقت الـذي قضي فيه على الطـالبي المذكور ، فالشاعر يهنئه بهذين الامرين • وهذا القصر أو البناء الجديد عالٍ شامخ ذاهب في الفضاء ، مقام فوق صرح ممرّد من قوارير (زجاج) ، عجيب التأليف والتمريد ، ولو ظهر هـذا البناء ــ لما فيه من حسـن وروعة ــ لجن سـليمان ، لخروا راكعين سـاجدين • والبحتري كثيراً

---

(١) الطبري ٩/٣٧٢ •
(٢) ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ •

ما يكرر أمثال هذه الصور[1] .

وبعد هذا الوصف العام السريع للقصر يشير الى « تدشين » الخليفة لـه . ويبدو ان الخلفاء العباسيين كثيراً ما كانوا يفعلون ذلك في أوقات الربيع أو الخريف ، فالشاعر يلمح الى ان اليوم الذي انتقل فيه الخليفة الى هذا البناء ، كان يوماً مشهوداً حتى كاد يحسبه يوماً من أيام العيد ، فقد زاره بعد انقضاء الشهر بحظ سعيد ، وفي وقت لبست فيه الارض حلة قشيبة من ألوان الزهور والورود وانه ليرجو لـه البقاء والخلود ؛ لان في بقائه بقاء الندى والجود . ويدعو من الله ان يسبغ عليه نعمه ، ويزيده مما هو عليه :

الامامُ المعتزُ بالله أولى ... هاشمي بالنصر والتأييد
وارثُ البُرد والقضيب وحكم الـ ... ـله في كل سيِّد ومسود
طاب نفسا وأمهات وآبا ... ءً ، وأربى فضيلة في الجدود
عزماتُ المنصور مصروفةُ السُّبْـ ... ـل اليه ومكرمات الرشيد
في المحلِّ الجليل من سلفَيْ عبـ ... ـد مناف والسؤدد المرفود
ملكٌ تملأُ العيون بهاءً ... حين يبدو في تاجه المعقود

* * *

بريءَ الله من محلَّ حريم الـ ... ـله كفرا وبيته المقصود
لم يكن سعيُه هناك بمرضـ ... ـيٍّ ، ولا كان أمره برشيد
غير أنَّ القلوب سكَنّ منها ... أن أتانا مصفَّدا في الحديد
عالماً أن رأيـة النصر لاتر ... فع الا مع البنود السود

* * *

---

[1] قال في البركة :
كان جنَّ سليمان الذين ولوا ... ابداعها فادقوا في معانيها
فلو تمرَّ بها بلقيس عن عرض ... قالت : هي الصرح تمثلاً وتشبيها

ومقــراً أن الخليفة منصو ر بركن من الموالي شديد
لا يُهالون من عـدو ولا يؤ تون من عُدَّة ولا من عديد

* * *

بارك الله للخليفة في الفتـــ ــح الجنوبيّ ، والبناء الجديد
خبــرٌ مبهــج ، وبنيان يمــن في منيف عند السِّماك مشيد
فوق صرح ممرَّد من قواريـ ــر غريب التأليف والتمريد
لو بدا حسنه لجــن سـليما نَ لخرُّوا من ركع وسجود
قــد عددنا اليومَ الذي جئته فيـ ــه لافراط حسنه يومَ عيد
زرته تلوَ غُرَّة الشهر بالطيـ ــر الميامين والنجـوم السعود
في زمان كأنَّ نرجسه الغض ن سموط من لؤلؤ وفريد
بين نَوْر من الربيع يحييـ ـك ، وعهد من الشتاء حميد
فابقَ يبقَ العفاف والحلم واسلم يسلم العمر للندى والجــود
وعــلى الله ان يُمدكَ فينا بتمـام النعمى وحسن المزيد[1]

المعتز والخارجون عليه أيضاً :

ويمضي البحتري مشيراً الى كثير من الخـارجين على الخـلافة العباسية والقضاء عليهم في عهد المعتز • وفي هذه القصيدة يذكر كثيراً من اسماء المواضع التي حدث فيهـا عصيان ، كمـا يذكر عـدداً من أولئك الخارجين الذين انخذلوا ولقوا مصرعهم على يد جيوش المعتز وقادته من الموالي (الاتراك) •

وفي هذه المدحة يصرح الشاعر بالخمر ويدعو نديمه الى مشاركته في احتسائها ، وهو أمر ـ كما قلنا سالفاً ـ جديد بالنسبة للشاعر الـذي لـم يكن بوسعه التلميح عنه بله التصريح به في مدائحه للخلفاء السابقين ، فيقول : ورب نديم نبهه لاصطباح الراح ، ودجـى الليل تبدده أشعة الصباح ، ثم يطلب من نديمه مبادرة الراح ؛ لاقتراب شهر رمضان الذي

---

(١) الديوان ٢/٧٢٨ ـ ٧٣٠ •

يمتنع فيه الندماء ـ في العادة ـ من اعمار مجالس الشراب • وهذه الراح (بنت الكرم) يديرها ساق مضمر القدّ ، غرير الصبا ، مخضب البنان ، وهي ارجوانية (حمراء) اذا وضعت في الكأس لاح لونها شبيهاً بلون خد ساقيها ، ثم ينتقل الى المدح فيقول : ان الله عزّ المعتز ، وأمده بقوة من عنده ، وانه ملك يدفع اساءة الآخرين بما يتحلى به من العفو ، ويُثيب من يحسن اليه بالاحسان والاكرام ، ومن يكن في شك من الأمر فليسأل عنه فسيعلم الكثير ، وان كان السماع دون العيان ، وتأمله ملياً في حالتي الرضا والغضب فستجده فوق ما كنت تتخيله وتتوهمه ، وهو فارع الطول حتى ليكاد يطول النجوم ، وملكه واسع المأثرات ، ثم يذكر البحتري بعد هذا الحالة السياسية التي كانت عليها الخلافة في تلك الاثناء ، فالناكثون الذين خرجوا على الخلافة في عهد المعتز وغيره من الخلفاء ، قد اذعنوا وخضعوا لما رأوه من شدة وطأة جيوش الخلافة عليهم ، ولا أدل على ذلك من هذه الفتوحات المتوالية التي تحمل أنباءها الطيور الزواجل ، فهذا بشير ينبىء عما حدث في الخابور وعن زحوف الأعادي ومالقوا على يد أبي الساج ديوداد بن ديودست ، القائد التركي الشهير الذي قاد الجيوش منذ عهد المعتصم ، وولي عدة نواح في عهد الخلفاء بعده حتى كانت وفاته في سنة ٢٢٦هـ[١] • ثم يشير الى كثير من أسماء المواضع التي احتشدت فيها الجيوش ، ووقعت فيها الوقائع ، ويصف الحرب بصورة سريعة فيقول : ان الرماح تثني والحرب مستعرة أوارها ، وحام وطيسها ، تثني الخيزران ، واذا ما انحرف جانب من الجيش تولى تشابك الخرصان (الرماح) تعديله وتقويمه ، ورجحت كفة الموالي وغلبوا اعداءهم حين احتدم القتال وتلاقى الخصمان ، فكان العدو بين قتيل تطأه سنابك الخيول ،

---

(١) انظر عن ابي الساج : الطبري ج/١٠ ، ٢١٠ ، ٢٩٣ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٥٢ ، ٣٧٠ ـ ٣٧١ ، وتاريخ اليعقوبي ٣/٢١١ طبعة النجف •

وبين أسير يترقب القتل ، وكانت صفقة ابن عمرو وصفوان خاسرة ، لما لقياه من انهزام وخذلان ، فاما الاول : فهو محمد بن عمرو الشاري الذي قتل بديار ربيعة في هذه السنة ٢٥٢هـ[١] • وأما الثاني فهو صفوان العقيلي الذي وثب بديار مضر في أيام المستعين ودعا للمعتز ثم انحرف عنه فأرسل اليه المعتز سيما الصعلوك ، ويبدو أنه أسره وجيء به الى سامراء فحبس حتى مات في الحبس سنة ٢٥٣هـ[٢] • فهؤلاء الخارجون لقوا مصارعهم من جراء ما اجترحوه من آثام ، وارتكبوه من موبقات ، وان اسرافهم في البغي ، وطغيانهم في الفساد حجبا عنهما كل تفكير رزين ، وتوقع للعواقب ، ويظهر ان الخليفة قد عرض عليهم الامان فأبوا ذلك ولو رضوا به لكانت لهم حياة فيه •

وطبيعي ان يعرّج البحتري بعد وصفه لما تقدم الى الثناء على المعتز الذي انتصر على الخارجين عليه ، وقضى على فتنهم ، فيقول : انه امام الهدى الذي نصر على الأعداء فيرجو ان يبقى معاناً مؤيداً في كل ما يسعى ، وان دين الله قد عز وتأيد في مشارق الارض ومغاربها ، بفعل أيامه البيض الحسان ، واضمحل الشقاق ، وهدأت الاضطرابات في شتى أقطار الدولة ، منذ خضع له المشرق والمغرب ، ومازال يكلأ البلا ويحرسها بقلب ألمعي ذكي ، ونظر ثاقب يقظ ، ويختتم مدحته هذه باعلان ولائه للعباسيين وانقطاعه اليهم دون سواهم ، ويلتمس ان يرعى حقه ، ويعلي مكانه ، وانه من الضعة أن يبقى دون أن ينال ما يرفع شأنه ويعز جانبه ، على يدي الخليفة المعتز :

ونديم نبهته ودجى الليـ ـل وضوءُ الصباح يعتلجان
قم نبادرْ بها الصيام فقد أقـ ـمرَ ذاك الهلال من شعبان

(١) الطبري ٩/٣٧٢ •
(٢) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٢ ، مروج الذهب ٤/٩١ •

بنتَ كرم يدنو بهـا مرهف القد   غريرُ الصِّبا ، خضيب البنان
أرجـوانية تشبـهُ في الـكأ   س بتفاح خـدهِ الأرجواني

* * *

للامـام المعتز بالله اعـزا   زٌ من الله قاهر السلطان
ملكٌ يـدرأ الاساءة بالعفـ   ـو ، ويجزي الاحسانَ بالاحسان
سلْ به تخبر العجيب ، وان كا   ن السماعُ المأثورُ دون العيان
وتأمَّلْهُ ملءَ عينيك فانظر   أيَّ راضٍ في الله أو غضبان
بسطة ترهقُ النجوم وملك   عظمت فيه مأثراتُ الزمان

* * *

أذعنَ الناكثون اذ ألقت الحر   ب عليهم بكلكل وجران
فتوحٌ يقصصن في كل يوم   شأنَ قاص من الأعادي ودان
كل ركاضة من البُرد يغدو الـ   ـريشُ أولى بها من العنوان
قد أتانا البشيرُ عن خبر الخا   بور بالصدق ظاهراً والبيان
عن زحوف من الأعادي ويوم   من أبي الساج فيهم أرْونان
حشدتْ مربعاء فيه ومردٌ   وقصور البليخ والمازجان(١)
وتوافت حلائب السَّلْط والمرْ   جين من دابق ومن بُطنان(٢)

---

(١) مربعاء : يبدو ان هذا الموضع غير موجود في معاجم البلدان . مَرْد : جبل بالجزيرة : البليخ : اسم نهر بالرّقة يجتمع فيه الماء من عيون ... ويتشعب منه أنهار تسقى بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت الرقة بميل . المازجان : يبدو ان هذا الموضع غير موجود في معاجم البلدان ايضاً . (انظر : الديوان ٤/٢٢٧٢) .

(٢) الحلائب : الجماعات ، والحلائب : جمع الحلبة وهي الدفعة من الخيل في الرهان خاصة . السلط : موضع بالشام . دابق : قرية قرب حلب . عندها مرج معشب نزه . بطنان : اسم واد بين منبج وحلب ، فيه أنهار جارية وقرى متصلة .

تتثنى الرماحُ والحربُ مشبو ب لظاهـا تثنيّ الخيزران
كلما مال جانبٌ من خميس عدّله شواجر الخرصـان
فلجتْ حجّةُ الموالي ضرابا وطعانا لما التقى الخصمان
فقتيلٌ تحت السنابك يَدْمي وأسير يراقب القتل عان
لم تكن صفةُ الخيار عشياً لابن عمرو فيها ولا صفوان
جلبتهم الى مصارع بغي عثراتُ الشقاء والخذلان
أسفا للحلوم كيف استخفتْ بغلوّ الاسراف والطغيان
كيف لم يقبلوا الامانَ وقد كا نت حياة لمثلهم في الأمان

★ ★ ★

يا امام الهدى نصرتَ ولازلـ ـت مُعانا باليمن والايمان
عزّ دينُ الاله في الشرق والغر ب ببيض الايام منك الحسان
واضمحل الشقاقُ في الارض مذطا عَ لك المشرقان والمغربان
لم تزل تكلأ البلادَ بقلب ألمعي وناظر يقظان
ما تولّى قلبي سواكم ، ولا ما ل الى غيركم بمدح لساني
شأني الشكرُ والمحبةُ مذكنـ ـت ، وحق عليك تعظيم شاني
ضعةٌ بي ان لم أنلْ بمكاني منك عزاً مستأنفا في مكاني[1]

فرار الكوكبي :

وهذه قصيدة أخرى يتحدث الشاعر في جزء منها عما لقيه أحد الخارجين على الخلافة وهو الحسين بن أحمد المعروف بالكوكبي ، فقد ظهر في شهر ربيع الأول من سنة **٢٥١**هـ بقزوين وطرد منها آل طاهر ، ثم استفحل أمره فارسل اليه موسى بن بغا الكبير في سنة **٢٥٢**هـ فهزمه موسى وفر الكوكبي فلحق به بالديلم[2] ، ولا تتحدث المراجع التاريخية

(١) الديوان ٤/٢٢٧٠ ــ ٢٢٧٤ ٠

(٢) انظر : تاريخ الطبري ٩/٣٤٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ ، وتاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٢ ــ ٢٣٣ ٠ ومروج الذهب ٤/٦٩ ، وفيه ان ظهوره كان في سنة ٢٥٠هـ ، وحرّف لقبه الى الكركي ٠

بعد ذلك عن مصير الكوكبي ، كما ان البحتري لا يشير الى مصرعه كما سنرى !

والقصيدة مفتتحة بالغزل ووصف الخمر ، ثم مدح المعتز والتحدث عن اعداء الخليفة ، والايقاع بهم • فقد افتتح الغزل بمهاجمة من يريد ثنيه عن تماديه في التصابي ومتابعة الغواني ، ثم انتقل الى الخمر ، فقال : كم مرة خرج بصحبه في أخريات الليل الى ارتشاف خمرة قانية اللون ، تشبه خد ساقيها ، واذا ما همّ بالكأس ردت يده بكف ساق مخضب أطراف البنان ، وقد أشار البحتري الى هذا المعنى في القصيدة السابقة ، ومن أراد التأكد مما شربه ، وممن سقاه فما عليه الا أن ينظر بنفسه من خلال الستر المضروبة ليرى شمس الضحى (وهي الساقية) تدنو اليه بشمس (هي الخمر) مصنوعة من الرحيق الخسرواني •

وان أحسن أيام الاصطباح هي السبوت ولاسيما سبت عيد المهرجان الذي يوافق أول الشتاء ، ولهذا قال انه يهدي الشتاء بقدومه ، ويبشر بظهور السحب الممطرة ، ويكثر فيه النرجس وورد الزعفران ، ومن فضيلته حث الندامى لاعمار مجالس الشرب ، واعجال العيدان وآلات الطرب • ويظهر أن أحسن الاوقات للتمتع بمجالس الشرب هي أيام الربيع والشتاء •

وبعد هذا الاستطراد في نعت الخمر والساقي والدعوة الى احتسائها مما لم يكن يجرؤ البحتري على مثله في عهد من سبق المعتز من الخلفاء ، يعرّج على مدح الخليفة ، فيمنه ، وحسن طالعه أصبحت الاماني التي كانت في عداد الاوهام حقائق ملموسة ، وكرمه السّحاح ، وجوده الثر أغنيا عن كل ما تحويه القلب (الآبار) والسواني (السواقي) من جود وعطاء ، وانه أغرّ يوده كل الناس : البعيد منهم والقريب ، وقد تطامنت الوجوه لوجهه الحسن الذي فافها وأربى عليها ، وان هذا الحسن لدليل

على ما انطوى عليه ربه من خلائق حسنة ، وكان المعتز معروفاً بجمال المحيا • وقد روى الخطيب البغدادي عن علي بن حرب الطائي انه قال : « دخلت على المعتز بالله ، فما رأيت خليفة كان أحسن وجهاً منه ، فلما رأيته سجدت ، فقال : يا شيخ يُسجد لأحد من دون الله ؟ قلت : حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد النبيل قال : نبأنا بكار بن عبدالعزيز ابن ابي بكرة عن أبيه عن جده : ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا رأى ما يفرح به ، أو بشر بما يسره ، سجد شكراً لله عز وجل »[1] •

ورأت الرعية فيه ذا مقام موفق في مساعيه ، ومعان في أموره ، ومن أجل هذا عادت بهجة الدنيا اليها بعد عبوسها وشقائها ، وعاد الى الزمان حسنه وجماله ، وأضحى الملك موطود الأسس ، زاهراً مستنيراً ، يعضده أزهر عريق المحتد ، كريم النسب ، وقد نصر على أعدائه بما قام به مواليه من خوض معامع الحروب ، فهذا البريد جاء يبشر بنبأ سار مبهج ، وهو ابادة المارقين والخارجين على الخلافة ، وتمزيقهم بسيوف الله التي لم تترك منهم مقيماً ولا أسيراً ، وهذه جبال الطيب « والطيب بليدة بين واسط وخوزستان »[2] ، تشهد على ما أصابهم من انخذال وتمزيق ، وانهم مروا بيوم عصيب كيوم النهروان الذي لقي فيه الخوارج على يد الامام علي ما لقوا من هزيمة ساحقة ودمار شامل ، وفر زعيم الخارجين وهو الكوكبي يرجو أماناً في وقت لا أمان فيه ، فذهب وهو مرعوب يخشى الالتفات ، ولو فعل ذلك لوجد طرف السنان بانتظار لفتة طرفه ، فانهزم متبرئاً من خلافته المزعومة ، وكأنه عبد يجري في رهان ، ويهزأ الشاعر بانصار الكوكبي فيشبههم بالماعز والضأن • وموقف البحتري من الكوكبي هذا ـ وهو علوي ـ دليل آخر على انحيازه للعباسيين وولائه لهم ،

---

(١) تاريخ بغداد ١٢٤/٢ •

(٢) مراصد الاطلاع لابن عبدالحق ٨٩٩/٢ ـ ٩٠٠ •

وذوده عن حقهم في الخلافة دون سواهم .

وينهي القصيدة داعياً للخليفة بالعمر المديد ، والعز والسلطان ، ثم يلتفت الى ابنه عبدالله فيلمح بفضله وانه ثاني رجل بعد أبيه بذلك :

وكم غلستُ مدّلجا بصحبي ... على متعصفر الناجود قان
أُغادى أرجوانَ الراح صرفا ... على تفاح خد أرجوان
اذا مالت يدي بالكأس رُدَّت ... بكفٍّ خضيب أطراف البنان
تأملْ من خلال السجف فانظرْ ... بعينك ماشربتُ ومن سقاني
تجدْ شمس الضحى تدنو بشمس ... الىَّ من الرحيق الخُسرواني
سبوتُ الاصطباح معشقاتٌ ... وأحظاهن سبتُ المهرجان

* * *

بيُمن خلافة المعتز عادت ... لنا حقا أكاذيبُ الأماني
يسحُ عطاؤه فينا ويُغني ... عن القلْب النوازح والسواني
أغر كبارق الغيث المرجّى ... يحبّب في الأباعد والأداني
تخاضعت الوجوه لحسن وجه ... يدلُ على خلائقه الحسان
وعاينتِ الرعية من قريب ... مقامَ موفق فيها معان
لرُدَّت بهجةُ الدنيا اليها ... وعاد كعهده حسن الزمان
وأضحى الملك أزهرَ مستنيراً ... بأزهرَ من بني فهرهجان
ومنصورٍ أعين على الأعادي ... بكرٍّ عواقب الحرب العوان

* * *

لقد جاء البريد ينثّ قولا ... شهيٍّ اللفظ مفهوم المعاني
اذا الخبرُ استخفك من بعيد ... نثاهُ ، فكيف ظنك بالعيان
أُبيد المارقون ، ومزقتهم ... سيوفُ الله من ثاوٍ وعان
وقد شرقت جبالُ الطيّب منهم ... بيوم مثل يوم النهروان

وفرَّ الخائن المغرور يرجو أماناً أيَّ ساعة ما أمان
يهاب الالتفات ، وقد تأيا للفتة طرفه طرَفُ السنان
تبرّأ من خلافته ، وولّى كأن العبد يركض في رهان
وما كانت رعينه قديماً سوى خِلطين من معز وضان

* * *

أميرَ المؤمنين أعمرت فينا عزيزَ الملك ، محروس المكان
فانك أولٌ في كل فضل نعدده « وعبدُ الله » ثانِ[1]

بناء مسجد :

والبحتري بحكم كونه شاعر البلاط ما كان يفوته تسجيل أعمال الخلفاء ومآثرهم ، ومن أجل هذا ـ فيما نحسب ـ كانت قصيدته في الغالب تجمع أشتاتا من الاغراض ، ولم تقتصر على غرض بعينه ، وان كانت تجنح نحو المدح عموما • وهو في هذه المدحة يجمع بين الغزل ومدح الخليفة والتعريض بالمستعين والثناء على الموالي وهجاء الطالبي (الكوكبي) والاشادة بعمل الخليفة في تشييد مسجد قريب من المدينة (سامراء) •

انتقل من الغزل الى المدح بعد حسن تخلص ـ وهو يفعل ذلك قليلاً ـ اذ كانت عادته الانتقال من غرض لآخر دون الاعتناء بتمهيد مناسب ، فهو يقول : حان الوقت الذي سيقلع فيه عن جوب الفيافي ، وادراع الدياجي ، وسوف لا يخشى الفقر مادام ولى نعمته وليّ الله ، فهو كريم معطاء كالغيث الهامي ، والأتي الدافق ، وهو مضطلع بحمل عبء الخلافة الذي ينوء ويعجز عن حمله كل ذي أيد وقوة •

والبحتري مولع بتكرار الصفة او الاوصاف التي يلمحها في

---

(١) الديوان ٤/٢٢٧٥ ـ ٢٢٧٨ •

الممدوح ، في أغلب قصائده ، وقد مرّ بنا تكراره لوصف هيبة الفتح بن خاقان في تضاعيف مدائحه له[1] ، وهو في مدائحه للمعتز مولع بتكرار وصفه لـه بالجمال ، وقد مرّ بنا الشيء الكثير من ذلك . وهو في هذه القصيدة يعيد الوصف مرة أخرى ، فيقول : يدهش الوفد ويتحير اذا ما نظر الى وجـه الخليفة ، الساطع ضوؤه ، المستنير شعاعه ، كما ينعته بجهارة الصوت ، والفضل في حالتي تأمله والاستماع اليه ، ويعـرّض البحتري على حسب عادته بالمستعين ، ولكنه تعريض خفيف ـ اذا صح التعبير ـ فيشير الى ان من فضائل المعتز ومحاسنه ان يراها بصير ، ويسمع بها واعٍ ففي ذلك يظهر حزن حساده وغيظ أعدائه[2] .

وكما يحلو للبحتري تكرار أوصاف المعتز في ثنايا مدائحه ، يحلو له كذلك تكرار الثناء على الموالي (الاتراك) الذين لعبوا دوراً خطيراً في القضاء على كثير من الخارجين على الخلافة في هذا العهد .

فالخليفة معان بالنصر ، وقد أفزع أعاديه وراعهم بكثرة الفتوح وبقضائه على الخارجين عليه ، فها هي الأعادي مذعنة له ، منقادة اليه ، بعد ان كانت عزيزة ، منيعة الجانب ، كل ذلـك بفضل احتشاد الموالي

---

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل (الفصل الثاني) .

(٢) قال الجرجاني في دلائل الاعجاز ١٠٤ معقبا على هذا البيت : « انه يمدح خليفة ، وهو المعتز ، ويعرّض بخليفة وهو المستعين ، فأراد أن يقول : « ان محاسن المعتز وفضائله : المحاسن والفضائل ، يكفي فيها ان يقع عليها بصر ويعيها سمع ، حتى يعلم انه المستحق للخلافة ، والفرد الوحيد الذي ليس لاحد أن ينازعه مرتبتها . فانت ترى حساده وليس شيء أشجى لهم واغيظ من علمهم بأن ههنا مبصرا يرى وسامعا يعي ، حتى ليتمنون ألا يكون في الدنيا من له عين يبصربها ، واذن يعي‌معها ، كي يخفي مكان استحقاقه لشرف الامامة ، فيجدوا بذلك سبيلا الى منازعته اياها » انظر (الديوان ١٢٤٤/٢ هامش ١٧) .

الذين عرفوا بالشجاعة النادرة ، والموالاة الصادقة ، وقد نصروا على الأعداء مؤيدين بروح من الخليفة ، وانصياع تام لأمره ، وكان البحتري كان يمهد بذلك للتحدث عن هزيمة الطالبي (الكوكبي) الذي مرّ ذكره في القصيدة السابقة ، فهذا الطالبي الذي خرج بقزوين فرّ يطلب له ملجأ بعد هزيمته الساحقة ، ولكن المنايا تطارده وتطلبه في كل مكان ، وحين عزّ عليه أن يلجأ الى مدينة او قلعة قصد البحر هاربا ، وقد نبذته (آمل) فولى خائب الأطماع ، مكذوب الأماني ، وهذا دليل آخر على عباسية البحتري واندفاعه في تأييد حكمهم ومهاجمة خصومهم ، ولو كانوا من العلويين ، وينهي مدحته بالثناء على المعتز والاشارة الى ابتنائه مسجداً كبيراً ضخماً • ويبدو انه بناه بالقرب من سامراء فهو يقول : بعد ان دعا للخليفة بالعمر المديد والتمتع بهذا العمر ، ان الله يعلم كيف كان حمد الموالي وثناؤهم ، لما تبديه حيالهم من رعاية وعناية ، وانهم أعظموا المسجد الجديد الذي شيده لهم في أحسن بقعة مختارة لترتفع فيه كلمة الله ، وليكون بوسع الشيخ الكبير والمتعب المجهد ان يصل اليه دون جهد وعناء ! وانه ـ أي المسجد ـ من الضخامة والسمو بحيث يشارف السحب الذاهبة في السماء :

آنَ أنْ أسأمَ اجتيابي الفيافي	وارتدائي من الدجى وادراعي
كيف أخشى فوتَ الغنى وولىُّ الله	ـه من هاشم ولىُّ اصطناع
مستهلُّ اليدين كالغيث ذي الشؤ	بوب يهمي ، والسيل ذي الدُّفاع
حـامل من خـلافة الله ما يعجـ	ـز عنه ذو الأيْد والاضطلاع
مستقلٌّ بالثقل منهـا رحيب الـ	صدر ، نهْضا بها ، رحيب الباع
يُبهت الوفد في أسرّة وجـه	ساطع الضوء ، مستنير الشعاع
من جهير الخطاب يُضعف فضلا	عنـد حـالَىْ تأمل واستماع
شجوُ حساده وغيظ عـداه	أن يرى مبصرٌ ويسمع واع

ومعانٍ بالنصر راعَ الأعادي — بفتوح في الخالعين تباع

* * *

قد ـ لعمري ـ أعطتك سارية الذل — وكانت عزيزةَ الامتناع
حشدت حولها سباعُ الموالي — والعوالي غابٌ لتلك السباع
بيقين من الضراب يزيل الشك عن مُنّةِ الكميّ الشجاع
لم يحيلوا عن الخداع ، وسلُ الـ — بيض بين الصفين تركُ الخداع
نصروا في هبوب ريحك والاقـ — ـبال من أمرك المهيَب المطاع
ومضى (الطالبيُ) يطلبُ حرزاً — والمنايا يطلبنه في التلاع
قاصداً للبحار اذ ليس للمُدْ — ن دفاع عنه ولا للقلاع
قطعت املٌ بآمال مكذو — ب الأمانيّ خائب الاطماع
يا ابن عم النبي أمتعتَ بالعمـ — ـر ، ومليّت نعمة الامتاع
يعلمُ الله كيف حمدُ الموالي — ما تعاني من شأنهم وتراعي
أعظموا المسجدَ الجديد فأبدوا — وأعادوا في الشكر عنه المذاع
رحتَ خيرَ البانين واخترت بالأمـ — ـس لخير البيوت خيرَ البقاع
لتجيب الأذان فيه رجالٌ — من بعيد كما تجيب الداعي
قصرت خطوةُ الكبير ولاقى — متعب فضلَ راحة واتداع
في رفيع السَموك يعترف الغيـ — ـم له بالسموّ والارتفاع[1]

* * *

ان هذه القصيدة الى جانب ما اشتملت عليه من مختار اللفظ ، وقوة الأسر ، ولطف الصنعة تنبض بحرارة العاطفة ، وصدق المشاعر ، واندفاع البحتري بقوة لتأييد حكم المعتز والاشادة بمآثره وخصاله ، وفيها ايضاً اشارة الى المسجد الذي ابتناه المعتز والذي لم تشر اليه المراجع الأخرى ،

---

(١) الديوان ٢/١٢٤٣ ـ ١٢٤٥ ٠

وانما تفرد بذكره البحتري[١] .

ابن أبي دلف :

قلنا ان عهد المعتز اتسم بكثرة الخارجين على الخلافة ، وكان أغلبهم قد خرج منذ عهد المستعين ، فنشط المعتز لمحاربتهم والقضاء على فتنهم ، وجنّد لذلك خيرة قواد الاتراك .

وكان من جملة الخارجين عبدالعزيز بن ابي دلف العجلي ، ويبدو انه كان متحصنا بمدينة (الكرج) التي بناها أبوه بين مدينتي همذان وأصبهان[٢] . وحين استفحل أمره اضطر المعتز ان يبعث اليه جيشاً كبيراً بامرة القائد موسى بن بغا ابن خالة ابيه المتوكل . وموسى هذا ـ كما يظهر ـ قد اشترك في مقتل المتوكل ، كما كان قائداً شهيراً ، كلف لمحاربة الكثير من الخارجين على الخلافة في عهد المستعين والمعتز ، وعندما مات أبوه بغا الكبير في سنة **٢٤٨**هـ عقد المستعين لموسى هذا على أعماله وعلى أعمال أبيه كلها ، وولي ديوان البريد ، وفي ايام الصراع بين المستعين والمعتز كتب اليه كل منهما يستميله الى جانبه فانحاز الى جانب المعتز . وفي سنة **٢٥٣**هـ عقد المعتز في اليوم الرابع من رجب لموسى هذا على الجبل[٣] ، ومعه من القواد مفلح ، ومفلح هذا اشترك أيضا في كثير من المعارك والحروب ، وكان من جملتها ايقاعه بعبدالعزيز بن ابي دلف في هذه السنة حيث كان على مقدمة موسى بن بغا الذي وجه لمحاربة ابن أبي دلف ، فالتقى الجيشان خارج مدينة همذان فدارت الدائرة على عبدالعزيز ، وكتب بالفتح في ذلك اليوم[٤] .

---

(١) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٢٩٧ـ٢٩٨ .
(٢) انظر : الطبري ٣٧٣/٩ وانظر : مراصد الاطلاع ١١٥٤/٣ ـ ١١٥٥ .
(٣) انظر : الطبري ٢٥٦/٩ ، ٢٥٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨ ، ٣٨٩ .
(٤) انظر الطبري ٣٧٣/٩ .

ويبدو من قصيدة البحتري الآتية ان عبدالعزيز المذكور رجع بعد انخذاله في المعركة الى مدينة الكرج فتحصن بها .

والقصيدة مستهلة بالغزل التقليدي الذي حاكى فيه البحتري الاسلوب الجاهلي لفظاً ومعنى ، وانتقل الى التحدث عن النصر الذي أحرزه مفلح على ابن ابي دلف فهنأ الخليفة بالبشرى التي جاءته من الشرق ـ موطن عبدالعزيز ـ والتي تخبر عن انتصار الموالي بقيادة مفلح ، وعن خذلان عبدالعزيز الذي اسماه الشاعر عبدوساً احتقارا له ـ على ما يبدو ـ ويصف البحتري المعركة فيشير الى أن الوقعة كانت عظيمة حتى زلزلت الأرض ، وسالت الدماء فغطت النجود والسهول ، ثم يهزأ بقتلى أصحاب عبدالعزيز فيشبههم بالنقد (وهو جنس من الغنم قصار الارجل قباح الوجوه) المذبح حول الجمار ، وقد أصبحوا طعاما للنسور ، ثم يشير الى فرار ابن أبي دلف فيقول : لو ثبت المغرور في أرض المعركة لالتقى بابطال الجيش ـ جيش الخليفة ـ ولأذاقوه كأس الحمام دهاقا ، ولكنه فر ورجع القهقرى الى وزره (الكرج) خاسئاً منكوباً .

ويشير البحتري ـ كما تذكر المراجع التاريخية ـ الى ان جيش الخليفة الذي أرسل بقيادة موسى لم يشترك كله في هذه الوقعة ، ولو اشترك لرأى العدوُ الموالي يموجون في جواشنهم المسردة ، ودروعهم المزردة . بيد ان هذه الوقعة لم تقض على عبدالعزيز نهائياً ، وهذا واضح من قول البحتري الذي كان يتوقع ان يطلب أصحاب ابن أبي دلف الأمان من المعتز(١) .

---

(١) الدليل على بقاء عبدالعزيز وعدم القضاء عليه ما أشار اليه الطبري في تاريخه ٣٨٧/٩ حيث قال : « وفيها (أى سنة ٢٥٤) في جمادى الآخرة وافى الاهواز دلف بن عبدالعزيز بن ابي دلف بتوجيه والده عبدالعزيز اياه اليها وجندي سابور وتستر فجباها مائتي الف دينار ثم انصرف » .

والبحتري يفعل هذا أحيانا ، فهو يتحدث عن أمور يقوم بها الخليفة لم تتم بعد ، كما فعل في أمر الفداء الذي بدأت مفاوضاته في سنة ٢٥٢هـ في عهد المعتز وتم في سنة ٢٥٣هـ • ولكن الشاعر لم يتحدث عنه بعد ان تم فعلاً •

فالشاعر يقول كأني بأولئك الخارجين المندحرين جاؤا يطلبون الأمان من المعتز ، الامام الموصوف الخلال ، والذي ينتمي الى أعرق محتد ، وأكرم نسب ، وهو شديد الوطأة والانتقام على من يعاديه ، وعفوٌ صفوح عمن يسأله العفو والغفران • وبعد أن يدعو للمعتز بالبقاء والتمتع بالنصر الجديد كل صباح ومساء يعود مرة أخرى للتنديد بعبدالعزيز الذي أعين المعتز عليه ، وعلى رهطه فنال منه ، ورد عليه بغيه وطغيانه حتى صرعه ـ هكذا يقول البحتري ـ وقد مر بنا انه لم يقض على عبدالعزيز هذا في هذه الوقعة :

لها منزل بين الدخول فتوضح ... متى تره عين المتيم تسفح
عفا غير نؤى دارس في فنائه ... ثلاث أثاف كالحمائم جنح

* * *

هنتك أميرَ المؤمنين بشارةٌ ... من الشرق جاءت بالبيان المصرح
تخبرُ عن نصر الموالي وعزِّهم ... وخذلان عبدوس وافلاح مفلح
لقد زُلزلت أرض الجبال بوقعة ... أسالتْ دَما في كل نشز وأبطح
كأن النسور الواقعات عشيةً ... على نَقَدٍ حول الجمار مذبَّح
ولو وقف المغرور لالتبستْ به ... زنابيرُ سرعان الخميس المجنح
اذاً لاحتسى كأسا دهاقا من الردى ... متى يشرب الباقي بها يترنح
لقد شردته الخيل كلَّ مشرد ... وطرحْنَه يوم الوغى كل مطرح
تندَّمَ لما أخلفته ظنونُه ... وبات خزايا مفسد غير مصلح
وأدبر منكوبا برأي مضعَّفٍ ... الى الكرَج القصيا ، ووجه مقبح
فراراً وعُظْم الجيش لم يُمس منهم ... قريبا وتلك الحرب لم تتلقح

ولم يأت موسى في الموالي عليهم سرابيلُ من نسج الحديد الموشّح
كأني بطلاب الامان قد التقوا بسُدّة موصوف الخلال ممدّح
امام هدى تأوي به مكرماته الى مَربع من بطن مكةَ أفيح
له شرفُ البيت الحرام وفخره وزمزمَ والركن العتيق الممسح
متى توعدوه الحربَ يشغبْ فينتقم وان تسألوه العفو يعف ويصفح
فعش يا أميرَ المؤمنين ممتّعا بنصر جديد كل ممسى ومصبح

* * *

أعنت على عبدالعزيز ورهطه وشيعتهِ من أعجمي ومفصح
رددتَ عليه البغي حتى صرعته بتدبيرِ منصور العزيمة مُنجح
ولما بغى المخذولُ ايقنتُ أنه فريسة مشبوح الذراعين أصبح[١]

ابن ابي دلف ايضاً وآخرون :

ويردف البحتري قصيدته السابقة بقصيدة أخرى يسلك فيها أغراضاً شتى أيضا على مألوف عادته ، تنحل الى الغزل وتهنئة المعتز بانتصارات جيوشه على الخارجين عليه في المشرق والمغرب ، ثم التماسه منه التوسط لدى ابنه عبدالله بشأن التنازل له عن ضيعة له مجاورة لضياعه في الشام .

يستغرق الغزل تسعة أبيات وهو غزل لا يخلو من الرقة والعذوبة وان كان يعتمد أساسا على الأصول الاولى للغزل العربي القديم . ثم ينتقل الى الغرض الرئيس وهو تهنئة الخليفة بانتصارات جيوشه على الخارجين عليه ، وهي انتصارات ـ على مايبدو ـ كانت تتوالى على الخليفة ، الأمر الذي هيأ للبحتري مادة خصبة للقول ، فهو يهنىء الخليفة بكفاية الله اياه شر أعدائه ، وذلك بانتصاراته عليهم حيث جاءت البشرى معلنة بفتوح موليه : مفلح الذي تغلب على ابن ابي دلف كما مر في القصيدة

---

(١) الديوان ١/٤٥٠ ـ ٤٥٣ .

السابقة في جهة الشرق ، ومزاحم بن خاقان أخي الفتح بن خاقان وزير المتوكل وصديقه الحميم والمقتول معه على أيدي الاتراك •

ومزاحم هذا كان من القواد المشهورين الذين ولوا امارات كثير من نواحي الدولة ، كما كلف بمقاتلة عدد من الخارجين على الخلافة ، وفي أيام الصراع بين المستعين والمعتز مال الى جانب المستعين في بادىء الأمر ، ثم كتب ليه المعتز يستميله الى جانبه فانحاز اليه وتوجه الى سامراء سنة ٢٥١هـ ، ثم أرسله المعتز على رأس جيش كبير الى مصر سنة ٢٥٢هـ لاخماد الثورة التي نشبت في الاسكندرية وغيرها فقمعها وولى الامرة حتى مات بمصر سنة ٢٥٤هـ(١) •

وبعد ان يقتضب البحتري أخبار الفتوح يعود فيفصل ما أصاب عبدوس (عبدالعزيز بن ابي دلف) على يدي مفلح • ويبدو ابن ابي دلف كان يشغل الخلافة أكثر من غيره في هذه الاثناء ، ودليل ذلك محاولة البحتري النيل منه أكثر من مرة ، فقد مر بنا كيف أعلن فرحته باندحاره وكيف أخذ يهزأ بقتلى أصحابه ، وها هو في هذه القصيدة يصب جام غضبه عليه وعلى مؤيديه أيضا • فهذه البشرى تزف الى الخليفة ادبار عبدوس (عبدالعزيز) وقد تناولته شفار السيوف ، وأسنة الرماح ، ثم يشبهه بقدار عاقر ناقة الله ، فيقول : لئن كان ابن ابي دلف هذا مستغوى ثمود ، فان الشؤم أصاب قومه فوقع بهم ما وقع بالأمس على يدي مفلح القائد من ضرب متتابع في نحورهم وجماجمهم حتى لا ترى منهم الا رؤوسهم التي أطاح بها الموالي ، او دماءهم الجارية في ميدان المعركة •

أما عبدوس فقد فر ولجأ الى قلعة له في الكرج • ويظهر من قول

---

(١) انظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢٧ ، ٣٣٤ ، الطبري ٩/٣١٠ ، ٣٢٨ ـ ٣٢٩ ، النجوم الزاهرة ٢/٣٣٧ ـ ٣٣٨ • ومما يجدر ذكره ان الطبري يذكر ان وفاته كانت في ذي الحجة من سنة ٢٥٣هـ (٩/١٧٧) •

البحتري انه فر أيضا من قلعته هذه متخذا ظلام الليل سترا لهروبه[1] .

والبحتري يرى لزاما عليه ان يشارك في تخليد هذه المعارك ، فمفلح قد قضى ما عليه في الانتصارات على الخارجين ، وبقي عليه ان يخلد ذلـك بقريضه ، ويتوقع الشاعر كما توقع في القصيدة السابقة أن يؤتى بعبدالعزيز اما أسيرا واما قتيلا . ويبدو مما ذكره الطبري وأشرنا اليه سـابقا ان عبدالعزيز هذا أفلت من قبضة مفلح وبقي يشغل الخلافة بما يجبيه من البلدان القريبة منه .

والبحتري قد نحا في القصيدتين منحىً واحداً ، سواء في التنديد بعبدالعزيز والهزء بأصحابه او في وصف المعركة وما جرى لأصحابه من القتل وجريان الدم ، او في وصف انهزامه وما توقعه له من الأسر أو القتل .

---

(١) أشار الطبري الى القتال الذي جرى بين مفلح وعبدالعزيز هذا فقال : « وفيها (اى سنة ٢٥٣هـ) أوقع مفلح وهو على مقدمة موسى بن بغـا بعبدالعزيز بن ابي دلف لثمان ليال بقين من رجب من هذه السنة وعبدالعزيز في زهاء عشرين ألفا من الصعاليك وغيرهم ؟ وكانت الوقعة بينهما ـ فيما قيل ـ خارج همدان على نحو ميل فهزمه مفلح ثلاثة فراسخ يقتلون ويأسرون ، ثم رجع مفلح ومن معه سالمين ، وكتب بالفتح في ذلك اليوم » . وهذه الوقعة هي التي وصفها البحتري في قصيدته السابقة ، ثم يستطرد الطبري قائلا : « فلما كان في شهر رمضان عبأ مفلح خيله نحو الكرج ، وجعل لهم كمينين ، ووجه عبدالعزيز عسكرا فيه أربعة آلاف فقاتلهم مفلح ، وخرج كمين مفلح على أصحاب عبدالعزيز فانهزموا ، ووضع أصحاب مفلح فيهم السيف ، فقتلوا وأسـروا وأقبـل عبدالعـزيز معينا لأصحابه ، فانهزم أصحابه ، وترك الكرج ، ومضى الى قلعة له في الكرج يقال له (كذا) « زز » متحصنا بها ، ودخل مفلح الكرج ، فاخذ جماعة من آل أبي دلف أسراً ، وأخذ نساء من نسائهم ، يقال انه كان فيهم أم عبدالعزيز فأوثقهم » ٩/٣٧٣ . ويبدو ان هذه الوقعة هي التي يصفها البحتري في قصيدته هذه . وانظر : الكامل في التاريخ ١٧٨/٧ ، وفيه ان اسم القلعة « زُرّ » .

ثم يثني الشاعر على من خاض تلك الحروب من الموالي (الاتراك) فيصفهم بأنهم سراة كان لهم الفضل في تأكيد عرى الدين ، ومطاردة الكفر وقطع دابره ، وانهم اذا ما افتتحوا أرضا فسرعان ما يعدون كتائب ككتائبهم الباسلة ، تنبري للقضاء على الاعداء والمناوئين ، ففي الشرق بان افلاح موسى ومفلح ، وفي الغرب يرتجى نصر لابي نصر – وهو محمد ابن بغا[1] الذي زلزل ذكره أرض الشام الفسيحة ، وأصاب سكان الجزيرة – وهي ما بين دجلة والفرات – بالفزع والذعر – ثم ينتقل بعد هذا الوصف الى الثناء على عبدالله بن المعتز الذي كان في هذا الوقت في السادسة من عمره على الاكثر[2] • فبعد ان دعا للمعتز بطول العمر الذي كرره في أكثر من قصيدة مرت بنا ، تمنى له ان يملّى بابنه عبدالله ، الذي شبه سماحه بالقطر المنهمر ، والذي اذا مابعث الشعر في تقريظه والثناء عليه كانت مكرماته ومأثره تربي على الشعر • ويشير البحتري الى انه يمت الى عبدالله بأسباب كثيرة ، ولا ندري ما هي هذه الاسباب التي يمت بها اليه ، ثم يخرج من ذلك الى ان الحاجات قد تنال بانزر الاسباب ، فكيف اذا كانت قوية متينة ؟ وهو في كل هذا يريد ان يمهد للطلب الذي ألح عليه كثيراً ، والذي يدل دلالة واضحة على نهمه المادي وجشعه الذي لا حدود له • انه يريد ان يطلب الضيعة التي كانت لعبدالله في الشام والتي كانت تجاور ضياعه ، فهو يذكر ما أنعم عليه أبوه وجده المتوكل ، وما كان لهما من رفع شأنه وانباه ذكره ، ثم يضع البحتري النقاط على الحروف – كما يقال – فيصرح بمجاورة رباعه رباع عبدالله وان له حاجة لم يقصر في اتخاذ الوسائل لايصالها الى مسامع عبدالله الذي شبهه بالقمر الوضاح والسيد الغمر • ويبدو ان الشاعر التمس من المعتز ان يكون

---

(١) انظر : الطبري ٣٨٩/٩ •

(٢) تشير أكثر الروايات الى ان ولادة عبدالله كانت في سنة ٢٤٧هـ•

وسيلة لدى ابنه في أمر الضيعة التي وعد أن يهبها له • وقد أشار الى هذا الأمر الصولي في أخبار البحتري حيث قال: « حدثني عبدالله بن المعتز قال: كان المعتز قد أقطني اقطاعا ، وجاورني في بعضه البحتري ، فسألني أن أهب له الضيعة التي تجاوره ، فوعدته ، فتحمل عليَّ بأبي ، وعمل في ذلك أشعاراً منها قوله :

يا واحد الخلفاء غير مدافع ... كرما وأحسنهم الي صنيعا

فقال لي يا عبدالله اقضِ حاجة البحتري ، فوهبت له الضيعة »[1] •

يقول البحتري في هذه القصيدة :

تريك الذي حُدثت عنه من السحر ... بطرف عليل اللحظ مُستغرب الفتر

وتضحكُ عن نظم من اللؤلؤ الذي ... أراكَ دموع الصب كاللؤلؤ النثر

أفي الخمر بعض من تعصفُر خدها ... أم التهبت في خدها نشوة الخمر ؟

* * *

هنتك أمير المؤمنين كفاية" ... من الله في الاعداء نابهةُ الذكـر

أتاك هلالُ الشهر سعداً فبوركـا ... على كل حال من هلال ومن شهر

أتـاك بفتحيْ موليك مبشـرا ... بأكثر نعمى اوجبتْ أكثر الشكر

بما كان في الماهات من سطو مفلح ... وما فعلتْ خيل ابن خاقانَ في مصر

وادبار عبدوس وقد عصفتْ بـه ... صدور سيوف الهند والأسل السمر

لئن كان مستغوىُ ثمود لقد غدت ... على قـومه بالأمس راغيةُ البـكر

بطعن دراك في النحـور يحطُّهم ... نشاوى وضرب في جماجمهم هَبْر

فلست تـرى الا رؤوسا مُطاحة ... يُجيد الموالي نحرها او دما يجري

ولـم تحـرز الملعونَ قلعتُهُ التي ... رأى انها حرز على نوَب الدهـر

مضى في سواد الليل والخيل خلفه ... كراديس من شفع مغذّ ومن وتر

(١) أخبار البحتري ص ١٠٥ •

قضى ماعليه مفلحٌ من طلابه ... فلم يبق الا ما عليّ من الشعر
سيأتي به مستأسراً او برأسه ... بذر الحرب والغالون في طلب الوتر
سراة رجال من مواليك أكدوا ... عرى الدين احكاما، وبتّوا قوى الكفر
اذا افتتحوا أرضا أعدّوا لمثلها ... كتائب تفري من أعاديك ما تفري
ففي الشرق افلاحٌ لموسى ومفلح ... وفي الغرب نصرٌ يرتجى لابي نصر
لقد زلزل الشام العريضة ذكره ... وأقلق سكان الجزيرة بالذعر

* * *

عمرتَ أمير المؤمنين بنعمة ... تضاعف مامكنتَ فيه من العمر
وملّيتَ عبدالله ان سماحه ... هو القطرُ في اسباله وأخو القطر
اذا ما بعثنا الشعر فيه تزايدتْ ... له مكرماتٌ مُربياتٌ على الشعر
متتُ بأسباب اليه كثيرة ... وقد تدرك الحاجاتُ بالسبب النزر
وما نلتُ من جدوى أبيه وجدّه ... وما رفعا لي من سناء ومن ذكر

* * *

وجاورَ ربعي بالشآم رباعُه ... وليس الغنى الا مجاورة البحر
ولي حاجة لم آلُ فيها وسيلةً ... الى القمر الوضاح والسيد الغمر
شفعتُ اليه بالامام وانما ... تشفعتُ بالشمس اقتضاء الى البدر
فلم أر مشفوعاً اليه وشافعاً ... يدانيهما في منتهى المجد والفخر[1]

تشفعه بالمعتز من أجل الضيعة أيضاً :

لم يأل البحتري جهداً في المطالبة بالضيعة التي وعده بها ابن المعتز ، والذي اتخذ من ابيه المعتز شفيعا له بذلك .

وهذه أبيات خصصها ـ كما يبدو ـ في هذا الأمر ، وقد صرح فيها كسابقتها في الحافة ورغبته الملحة في الحصول على هذه الضيعة ، وهو

---

(١) الديوان ٢/١٠٠٤ ـ ١٠٠٧ .

أمر ـ كما لحظه الشاعر نفسه ـ غريب لم يسأله شاعر خليفة قبله :

يا واحد الخلفاء غيرَ مدافعٍ كرماً ، وأحسنهم نـدى وصنيعا
انت المطاعُ فـان سئلت رغيبةً ألفيتَ للراجي نـداك مطيعـا
اني أريـدك أن تكون ذريعـةً في حاجتي ، ووسيلة ، وشفيعـا
ما سالها أحد سواي ، خليفةً في الناس مرئيـاً ولا مسـموعـا
لو لم أمتَّ بها اليك بديعةً ماكنت في كـرم الفعال بديعـا[1]

مع عظيم الروم :

والبحتري الذي كان يواكب الحوادث في هذا العصر ما كان ليترك ـ في أغلب الأحوال ـ تسجيلها أو الاشارة اليها حتى كان أحيانا ينفرد بذكرها دون المصادر التاريخية التي كان من اخص واجباتها العناية بأمثال هذه الامور •

وهذه قصيدة له أنشأها في الأصل لمدح المعتز وابنه عبدالله ، انتقل بعد الغزل الى الثناء على المعتز فتمنى له دوام البقاء ؛ لانه الامام المرجو رفده المتدفق كتدفق النيل في فيضانه ومده ، فلا العذل يردعه عن الكرم ، ولا التعنيف يصده عن البذل والسخاء • ويبدو ان الشاعر قد كبا في هذا البيت وأساء في طريقة المدح مما أخذه عليه غير واحد من القدامى[2] •

والخليفة ملجأ الهدى ومغاثه الأقرب ، وعماده المكين ، وهو ذو حـزم حازم ، وجدَّ يحوط به دين الله من كل ما يخشى عليه ، ولهذا فهـو ما يفتأ يجهـز الجيوش لأرض الـكفر ، أو لثغر من الثغور اذا ما تعرض لخطر داهم •

والبحتري يشير في هذه القصيدة الى لقاء بين جيوش المعتز وعظيم

---

(١) الديوان ١٣٠٩/٢ •
(٢) نفسه ٦١٤/١ هامش (٩) •

الروم ، وهو ما لم تذكره او تشر اليه المصادر الاخرى ـ فيما نحسب ـ واشارته تنبىء عن اندحار جيش الروم وانخذال صاحبه ، ومتابعة كتائب المسلمين ومطاردتها لهما ، ويشير الشاعر الى ان وفدا جاء يبشر بنتيجة هذه المعركة التي يسميها فتحا ، وبعد هذا ينتقل الى الثناء على عبدالله بن المعتز الذي كان آنذاك ـ اذا صح ان تاريخ القصيدة يرجع الى سنة ٢٥٣هـ ـ في السادسة من عمره ، فيمدحه ويسرف في تعداد الصفات التي لا يمكن ان يوصف بها ـ كما نرى ـ طفل لم تتبين بعد مخايل النجابة فيه . ويظهر ان البحتري جارى في هذا الشأن أبا تمام في مدائحه للمستعين ابان طفولته[1] . فهو يقول ان عبدالله ـ الطفل ـ بحر في جوده وكرمه ، وهو ثاني الخليفة (المعتز) في الكرم ، وشبيهه في الجود ، ويندفع الشاعر فيزعم ان هذا الطفل قوى شديد البأس حتى لو صارع جبل (يذبل) لهده وحطمه ، وانه ذو عزيمة نفاذة اذا أمضى بها الأمر الجلل فما شيء يرده عن ذلك ، فهو كالسيف الذي يحطم متنه الاعناق ، ويكمن الحتف في مشافره ، وبعد هذا الوصف يشير الى الشيء المهم الذى يدفعه ـ في الحقيقة ـ الى هذا التزلف والاغراق في المدح ، وهو المال الذي أشغل الشاعر كثيرا فهو قد قرب له الأمل الذى يراه نائيا بعيدا ، وضمن له النجاح فيما يسعى اليه ، وبرّ له بوعده دون مماطلة او تسويف ، وهو ان حصل في كرمه ما حصل ونال من عطـائه ما نال فلن ينس الأيادي البيض لوالده المعتز وجده المتوكل :

ليـدمْ لنـا المعتـز فهـ ـو امامنا المرجـوُّ رفـده
متـدفقٌ بعطـائه كالنّيـل لما جاش مـده
لا العـذلُ يردعـه ولا الـ تعنيف عـن كـرم يصـده

(١) انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٠٥ـ١٠٦ ، ١٢٤ .

وزَرَ الهدى ومَغاثه الا ... دنى ، ومفزعُه وردُه
ينفي الهوينا حزمُه ... ويحوط دينَ الله جدُه
جيش يجهزُه لأر ... ض الكفر أو ثغرٌ يسدُه
لقيت عظيمَ الروم من ... ك عزيمةٌ فانفض جندُه
وتطاوحته كتائبٌ ... عُجُل تسائل : أين قصدُه
فانصاع يطلب ظلَّه ... والخيل غاديةٌ تكدُه
فتحٌ أتاك بأعظم الـ ... بركاتِ : بشراه ووفدُه

* * *

كثر الذي نلناه من ... نُعْماك حتى ما نحدُه
ولنا بعبدالله بحـ ... ـرٌ معرضٌ للناس وردُه
ثاني الخليفة في الندى ... وشبيهُه كرماً وندُه
أَسَدٌ شديد لو يصا ... رع يذبلاً أنشا يهدُه
وعزيمةٌ يمضي بها ... فصلَ الخطاب فما يردُه
كالسيف يكسر متنه ... قصَرَ العدى ويُبير حدُه
ان اطلب الأمل البعيـ ... ـدَ لديه يدنُ عليَّ بعدُه
ولقد تضمَّنَ لي النجا ... ح غريبُ جود الكف فردُه
وعلقتُ وعد مناجز ... لا يصحب التسويفَ وعدُه
فلئن أنال بطَوْله ... ماذخرُه باق وحمدُه
فلقد تولاني أبو ... ه بأكثر النعمي وجدُه[1]

والقصيدة على الرغم من تكرار الاوصاف المبثوثة فيها ـ رشيقة الألفاظ ، خفيفة الوزن ، حتى لتبدو وكأنها أشبه بالنشيد !

---

(١) الديوان ٦١٤/١ ـ ٦١٦ .

حوادث شتى :

والبحتري الذي كان يسلك في مدائحه أغراضا شتى ، كان يحلو له ايضا أن يعيد ذكر الحوادث التي سبق له ذكرها في غضون مدائحه ، وها هو في هذه المدحة يفعل مثل ذلك ، فبعد المقدمة الغزلية ، انتقل الى الاشادة بصفات المعتز ، وأشار الى انقاذه البلاد من الفتنة التي نشبت في عهد المستعين ، ثم ذكر ما عملته جيوش المعتز بالكوكبي الطالبي المار ذكره ، وتحدث بعد ذلك عن أحد الخارجين على الخلافة ، وهو يعقوب بن الليث الصفار ، وانهى المدحة بالثناء على ابن المعتز !

فبعد الغزل التقليدي الحلو العذب كأكثر ما يمتاز به غزل البحتري انتقل الى تعداد صفات المعتز والاشادة بها ، فقال : ان نعمه كانت سابغة وفيرة كالروض غبّ القطر ، وانه أقام قناة الدين بعد اعوجاجها ، وزاد في همته وقوته على ما أبداه المشاغبون والخارجون عليه ، وقد صقلته التجارب ، وهذبته الخبرات ، فكان ذا حزم يسوس فيه الدولة خير سياسة وأقومها . والبحتري كثيرا ما كان يتخذ من أسلاف الخلفاء واجدادهم مادة لاطراء الممدوحين من الخلفاء فالمعتز يستمد عزمه مما اشتهر به جده المعتصم ، ويعضده بالتجارب المحكمة ، وقد نطقت بتفضيله آيات الكتاب المجيد ، ويرجع في محتده الى أعرق الانساب وأشرفها الى قبيلة قريش ، وقد عقدت القلوب على وده ومحبته ، وردت في عهده وبعدله ظلامات الناس فشمل عدله البرية كلها ، فعاشت في أمن ودعة ، وأنقذ كثيرا من النفوس التي اوشكت أن تقع في هاوية التورط ، وصفح عن الكثير ممن وثبوا في عهده ، ثم أشار الى الفتنة التي وقعت بين المعتز والمستعين فقال : لولا المعتز لادعى الخلافة كل هاب وداب . وقد مر على الناس زمن عاشوا فيه حيارى في عهد فتنة رهيبة ، لقوا فيها من الجهد والاعنات مالقوا ، وحين حزب الأمر الناس دعاه بنو العباس للجلى فأسرع اليها

وكشف الغمة عن الأمة فكان ـ كما عهده ـ قويا كفءاً لما ندب له • ثم استطرد فأشار الى حروب المعتز مع الخارجين عليه ، والمح الى جهتي الشرق والغرب وهما الجهتان اللتان سيّر المعتز اليهما جيوشه ، لاخماد الفتن فيهما كما أسلفنا •

وكرر ما عملته الجيوش العباسية بالكوكبي الطالبي الذي خرج بقزوين كما ذكرنا • ثم أشار الى يعقوب بن الليث الصفار الذي خرج في جهة الشرق منذ عهد المستعين ، وحارب الخوارج فظهر عليهم ، ثم اشتدت شوكته فاستولى على بعض المدن المشهورة كهراة[1] ، وكرمان وغيرهما •

والبحتري هاجم الصفار وقال : انه ضعف وتخاذل حين رأى المنايا قد طلعت عليه بطلوع كتاب الخليفة ، ثم عاد فأشار الى حنو المعتز عليه وأخذه بالرفق واللين والتؤدة ، مما حمله على الخضوع والانصياع لأمره، فعاد ولياً مناصرا بعد ان كان عدوا عاصيا • وجدير بالذكر ان الطبري أشار في حوادث سنة ٢٥٥هـ الى ان يعقوب هذا قد وجه الى المعتز بدواب وبزاة ومسك هدية[2] •

وانهى البحتري مدحته بالالتفات الى ابن الخليفة الذي كان يهتبل كل فرصة سانحة للاشادة به ، فهنأ المعتز به ، ووصفه بأنه ذو فضل وانعام ، وانه كريم الطباع ، جميل الخلال ، شبيه بأبيه في كل شيء ، وانه ـ أي الشاعر ـ أمّل جدواه ، ورجا عطاءه ، وانه لذو أمل وطيد بانجاح مسعاه وتحقيق مناه :

---

(١) انظر : تاريخ اليعقوبي ٢٢٧/٣ ، والطبري ٢٥٥/٩ ، ٣٨٢ ـ ٣٨٦ ، والديوان ١١١/١ هامش (٣٠) • ومن الجدير بالذكر ان شارح الديوان يشير في هامشه المذكور الى ان يعقوب هذا قصد هراة في سنة ٢٥٣ وهي السنة التي يؤرخ فيها الشارح هذه القصيدة ، في حين يذكر الطبري في تاريخه ٢٥٥/٩ وفي حوادث ٢٤٨ ان يعقوب هذا تحرك في هذه السنة من سجستان الى هراة •

(٢) الطبري ٣٨٦/٩ •

لبسنا من المعتز بالله نعمـــةً … هي الروض موْليا بغزر السحائب
أقام قناةَ الدين بعد اعوجاجهـا … وأربى على شـغب العدو المشاغب
أخو الحزم قد ساس الامور وهذبت … بصيرتَه فيها صروفُ النوائب
ومعتصميُّ العزم يأوي برأيـه … الى سَنَنٍ من محكمات التجارب
تفضله آيُ الـكتاب ، وينتهي … اليه تراث الغُلب من آل غالب
تولته أسرارُ الصدور وأقبلت … اليه القلوبُ من محب وراغب

★ ★ ★

تـدارك بعـد الله أنفسَ معشـر … أطَلّت على حتم من المـوت واجب
وقال : لعاً للعاثريـن وقـد رأى … وثوب رجال فرَّطوا فـي العواقب

★ ★ ★

ولولا تلافيـك الخلافة لانبـرت … لها همم الغاوين من كـم جانـب
اذاً لادعاهـا الابعـدون ولارتقت … اليها أمانيّ الظنـون الـكواذب
زمانَ تهـاوى الناس في ليل فتنة … رَبوض النواحي مدلهـم الغياهب
دعـاك بنو العباس ثمَّ فأسرعـت … اجابتُهُ مستول على الملك غالب
وهزّوك للأمر الجليل فـلم تكن … ضعيفَ القوى فيه كليل المضارب
فما زلت حتى أذعنَ الشرق عنوة … ودانت على صُغر أعالي المغـارب
جيوش ملأنَ الارض حتى تركنها … ومـا في أقاصيـها مفرٌ لهارب

★ ★ ★

مددن وراء الـكوكبي عجاجـةً … أرته نهاراً طالعـات الـكواكـب
وزعزعن «دُباوندَ» من كل وجهة … وكان وقورا مطمئن الجوانـب

★ ★ ★

وقد أمِنَ « الصفار» حتى تطلعت … اليه المنايا في القنـا والقواضـب
حنوت عليه بعد أن أشرفَ الردى … على نفس مزوَرّ عن الحـق ناكب
تأنيته حتى تبيَّنَ رشـدَه … وحتى اكتفى بالكتب دون الكتائب
بلطف تأتٍ منك مازال ضامنـا … لنا طاعةَ العاصي وسـلم المحارب

فعاد حساماً عن وليّك ذبُّه ‌ ‌ ‌ ‌ وحد سنان في عدوك ناشب

* * *

بقيت أمير المؤمنين مؤمّلاً ‌ ‌ ‌ ‌ لغَفر الخطايا واصطناع الرغائب
ومُليت عبدالله من ذي تطوّل ‌ ‌ ‌ ‌ كريم السجايا هبرزي الضرائب
شبيهُك في كل الامور ولن ترى ‌ ‌ ‌ ‌ شبيهَك الا جامعا للمناقب
أؤمل جدواه وأرجو نوالَه ‌ ‌ ‌ ‌ وما الآملُ الراجى نداه بخائب[1]

تتابع الفتوح :

وهذه قصيدة أخرى لا تختلف فيما انطوت عليه من الاغراض عن سابقتها . فبعد التمهيد الغزلي المعتاد انتقل الى اطراء الخليفة ، فأشار الى انه حمل الخلافة بحق مستقلا بها ، وانه ساس أمور الدين والدنيا برأي حصيف مرضي ، وهو معطاء جواد ، صدّق حسن الظنون به ، فعاد الدهر به بهيجا حسنا وأصبح العيش رفيهاً ليناً . وان المال يخشى ويروع حين يفترّ مبسم الممدوح لعلمه بأنه سيبذله ويهينه .

ثم أشار بعد هذا الى ان الفتوح قد تتابعت عليه وهن شتى الاماكن ، شتى الفنون ، وما انفكت بشرى تزف بعقب أخرى منبئة عن انخذال عدو واندحار عاص . ومن اولئك المندحرين الكوكبي الطالبي الذي خرج بقزوين والذي أرسل اليه موسى بن بغا فالتقى معه ودحره ففر هاربا الى الديلم في سنة **٢٥٣**هـ كما مر[2] .

والبحتري أشار في هذه القصيدة الى اندحار الكوكبي في الديلم أيضا ، مما دل على متابعة جيوش الخليفة له ومطاردته هناك ، وقد وصف ما أصاب جيش الكوكبي المذكور من دمار ، فذكر ان أرض الديلم قد

---

(١) الديوان ١٠٨/١ ـ ١١١ .
(٢) انظر : الطبري ٣٧٨/٩ وص ٩٤ .

انتشرت فيها هام القتلى ، نشملت سهولها وحزونها ، بيد انه اكتفى بهذه اللمحة الخاطفة عن المعركة دون الخوض في تفصيلاتها .

والبحتري ما كان يقتصر على ذكر ما ينتاب الخلافة العباسية من حوادث في شعره ، بل كان يتناول ايضا ما يحدث خارج حدود هذه الخلافة ، ففي هذه القصيدة أشار الى أحداث خطيرة في أرض الروم ، وان قتالا عنيفا حدث بين الروم أنفسهم ، حتى تهاوت الرؤوس عن أبدانها ، وانتزعت السيوف من أجفانها ، ويبدو ان الشاعر قد شمت بما أصاب الروم واعتبره ضربا من النصر الذى احرزه المعتز على اعدائه دون قتال .

والبحتري الذي ما انفك ينتهز الفرص المواتية للاشادة بابن المعتز لم يفته في هذه المدحة التنويه به ، فعبدالله هذا وسيم جميل كبدر الدجى في ضوئه ، على الرغم من انه كان شديد السمرة كما تروي المصادر[١] ، كريم معطاء كغيث السحب المنهمرة ، وان الموالي (الاتراك) اكتنفته طائفة حوله كاكتنا فها بوزرها المكين ، وحصنها الحصين ، وان هيبته ووقاره اغضيا الابصار[٢] ، وهو جواد لم يضنّ بجوده حتى في أحلك الاوقات ، وأشد الازمات ، وقد صدق ما كان الشاعر ظن به من الجود والعطاء .

والبحتري الذي لا يترك وسيلة الا سلكها في سبيل الحصول على المال ، أشار هنا الى ما كان قد تشفع بالمعتز لدى ابنه في أمر الضيعة التي كانت تجاور ضياعه فهو يريد منه أن يكون أيضا شفيعه وضمينه في انجاح مطالبه لديه !

---

(١) انظر : وفيات الاعيان لابن خلكان ٢/٢٦٦ .

(٢) من الجدير بالذكر ان البحتري خلع هذه الصفات على ابن المعتز الذي كان في السادسة من عمره .

كما أشار ايضا الى ان المعتز قد وصله بأحد أصدقائه المقربين اليه ، وهو يونس بن بغا والذي كان خدينا حميما للمعتز منذ أيام الصبا[1] .

فالبحتري اعترف هنا بأن صلته بيونس هذا قد بوأته محلا عاليا حتى بات لا يخشى تعذر ما ينشده من نيل الحاجات :

لقد حملَ الخلافة مستقلٌ — بها وبحقه فيها المبين
يسوسُ الدين والدنيا برأي — رضىً لله في دنيا ودين
تناول جودُه أقصى الأماني — وصدّقَ فعله حسن الظنون
فما بالدهر من بَهَجٍ وحسن — وما بالعيش من خفض ولين
ولم تخلق يدُ المعتز الا — لحوْزِ الحمد بالخطر الثمين
تروع المالَ ضحكتُه اذا ما — غدا متهللا طلق الجبين
أمينَ الله والمعطى تراثَ الأ — مين وصاحب البلد الأمين
تتابعت الفتوح وهن شتى الأ — ماكن في العدى ، شتى الفنون
فما تنفك بشرى عن تردّي — عدوّ خاضع لك مستكين

* * *

فرارُ الكوكبي وخيل موسى — تثيرُ عجاجة الحرب الزبون
وفي أرض الديالم هامُ قتلى — نظامُ السهل منها والحزون

* * *

وقد صدمتْ عظيم الروم عظمى — من الاحداث قاطعةُ الوتين
بنعمى الله عندك غيرَ شك — وريحك أقصدتْه يد المنون
نصرتَ على الأعادي بالأعادي — غداةَ الروم تحت رحى طحون
يقتّل بعضها بعضا بضرب — مبينٍ للسواعد والشؤون
اذْ الابدان ثَمَّ بلا رؤوس — تهاوى ، والسيوف بلا جفون

* * *

(١) الديارات للشابشتي ص ١٦٦ .

نَدمتَ ودام عبدالله بدرُ الـ … ـدجى في ضوئه ، وحيا الدجون
تطيف به الموالي حين يبدو … اطافَتَها بمعقلها الحصين
ترى الابصار تَغضي عن مهيب … وَقور في مهابته ركين
جواد غلّست نعماه فينا … ولم يظهر بها مطْلَ الضنين
ظننت به التي سرّت صديقي … فكان الظنُّ قدام اليقين
وكنتَ اليه في وعد شفيعي … نصرتَ عليه في نجح ضميني

* * *

وصلت بيونس بن بُغاه حبلي … فرحت أمتُّ بالسبب المتين
فقد بوأتني أعلى محلٍّ … شريف في المكان بك المكين
وما أخشى تعذُّرَ ما أعاني … من الحاجات اذ أمسى معيني
وان يدي وقد أسندتَ أمري … اليه اليومَ في يدك اليمين[1]

دعوة يونس بن بغا :

ويبدو ان صلة البحتري قد توطدت بيونس بن بغا الذي ألمح في القصيدة السابقة الى شيء منها ؛ فهو يخبرنا في أبياته الآتية الى دعوة كانت لابن بغا هذا دعي اليها الشاعر • ويبدو ان الخليفة المعتز كان من بين المدعوين ايضا ، ويصف البحتري هذه الدعوة التي كما يظهر قد اعتني فيها كثيرا فكانت جامعة للسرور والافراح مما حدا بالشاعر الى تفضيلها على جميع أيام السرور التي مرت به وهي كثيرة بلاشك • ويظهر انها أقيمت في مكان قريب وفي بقعة جميلة محفوفة بالرياض الغن ، وممدة بالمياه الثرة ، وكانت تضم هذه الدعوة أجل الزوار ولعل في هذا اشارة الى حضور الخليفة كما أسلفنا •

ويشير البحتري بصراحة لم تعهد منه في عهود الخلفاء السابقين الى الخمر التي كانت تدور كؤوسها في تلك الحفلة ، فهو لا يريد أن يسقى

(١) الديوان ٤/٢٢٦٦ ـ ٢٢٦٩ •

بالكأس الصغير وانما يريدها كبيرة لائقة بأمثال هذا اليوم الذي لا نظير له ٠

وبعد هذا ينتقل الى امتداح المعتز الذى كان في جملة الحاضرين كما يظن فيتمنى له بقاء السعادة في ظل دولته التي تطالعه بكل ما هو نفيس جميل ٠ ثم يلمح الى حسن وجه المعتز وجماله ، وهو أمر أكثر البحتري من ذكره في غضون مدائحه له ، فيقول :

شاهدتُ أيام السرور فلم أجد يوما يسرُّ كيوم دعوة يونس
أدنى مزار وسطَ أحسن بقعة وأجلَّ زوار لأبهى مجلس
في روضة خضراءَ يشرق نَوْرُها تسقي مجاجات الغيوم البجس
لا تسقياني بالصغير فانه يومٌ تليق به كبار الأكؤس

* * *

اسعد أميرَ المؤمنين بدولة تغدو عليك بكل حظٍ مُنفس
فلحسن وجهك في القلوب محلَّةٌ خُصَّتْ الى جذل بها متلبس
بدرٌ لنا فمتى عرتنا وحشة جلَّيتها بضياء وجه مؤنس(١)

فتوح وأموال :

وهذه مدحة أخرى للبحتري ينتقل بعد المقدمة الغزلية الى امتداح الخليفة فينعته برد الدين موفوراً مصوناً بعد ان كان قبله منتقصا مذالا ، ولعله يريد بذلك المستعين الذى كثيرا ما كان يعرض به في اثناء مدائحه للمعتز ٠ ثم يحلو له كما فعل مع المستعين وغيره من الخلفاء ، ان يجرى مسابقة بين المعتز والخلفاء الآخرين في الفضل والذكر والعمل والفخر فاذا به يعلوهم ويظهر عليهم في كل الصفات التى فاضلهم فيها ، بل ان أقطار الارض لم تحسن وتجمل الا بعد تملك المعتز لها ، فوجهه يملأ الدنيا اشراقا ونورا ، وكفه تملأ الدنيا بذلا وعطاء ، ثم يشير الى أن السنة

---

(١) الديوان ٢/١١٥٠ ـ ١١٥١ ٠

الجديدة ٢٥٣هـ وهي التي نظم فيها هـذه القصيدة[١] ، تبشر بالخير العميم ، والنعم الوفيرة • ومن خيراتها هذه الفتوح التي تتوالى من شتى النواحي معلنة انخذال الاعداء والخارجين ، وهذه الاموال الوفيرة التي جاءت من مصر الى الحاضرة • وقد أشار المسعودي الى هذه الاموال بقوله : « وفي هـذه السنة (٢٥٣هـ) قـدم الى سـامراء عيسى بن الشيخ الشيباني من مصر ، ومعه مال كثير »[٢] •

ويبدو ان البحتري وجد في المعتز ضالته المنشودة بعد النكسة التي أصابته باغتيال والده المتوكل ، فمضى يراوحه ويغاديه بخير ما تفتقت عنه قريحته من القريض ، واندفع يعصر ذهنه ، ويكد قريحته ، ويجهـد نفسه في صوغ مدائحه الجياد فيه •

والحق ان المعتز كان كريما معه الى أبعد الحدود ، فلم يأل جهدا في اسباغ نعمه عليه ، وفي تقريبه من حاشيته وأسبابه ، ورفع شـأنه بين أنداده من الشعراء ، ولهذا فالبحتري ما يكاد ينشيء مدحة فيه حتى يطلق العنان للاشادة بفضائله وهباته عليه •

فهو يقول في هذه القصيدة : ان مما يحسن مديحه فيه ما يجده في المعتز من الفضائل التي تملي عليه قصيده ، وانه اذا ما قصر في ثنائه فلا تثريب عليه في ذلك ؛ لان المنن التي طوقه بها كانت من الوفرة بحيث لا يمكنه الوفاء بشكرها ، فقد نوه بذكره شرقا وغربا ، وأسبغ عليه جاها ومالا ، ولكنه الجشع ! جشع البحتري المادي مايزال يدفعه ويزجيه نحو المسألة والالحاف فيها ، فهو يرى أن الالف ليس بأكثر مما يأمله من الخليفة ، ولاسيما حين تتوالى هباته وعطاياه وان الخليفة اذا ما نوى ان ينيله شيئاً فلا خوف هناك من مماطلة او تسويف فهو يتبع العمل بالقول :

---

(١) انظر : الديوان ١٧٢٨/٣ الهامش •
(٢) مروج الذهب ٩١/٤ •

أميرَ المؤمنين وانت أرضى ... عباد الله عندَ الله حالا
رددتَ الدين موفورا مصونا ... وقبلَكَ كان منتقصا مذالا
اذا الخلفاء عدّوا يوم فخر ... وبرّز مجدهم فسما وطالا
غدوت أجلّهم خطراً وذكرا ... واعلاهم وأشرفهم فعالا
وما حسنتْ نواحي الارض حتى ... ملكتَ السهل منها والجبالا
بوجه يملأ الدنيا ضياءً ... وكف تملأ الدنيا نوالا
أرى الحول الجديد جرى بسعد ... وحال بأنعم لك حينَ حالا
فتوح يدّركن من النواحي ... كما ادرّك السحاب اذا توالى
وجاءك بالرغائب مالُ مصر ... فلم أرَ مثلها ظفرا ومالا

* * *

يحسّنُ من مديحي فيك أني ... متى أعددْ علاك أجد مقالا
ولست ألامُ في تقصير شكري ... وقد حملتني المِنن الثقالا
لقد نوّهت بي شرقا وغربا ... وقد خوّلتني جاها ومالا
وما ألف بأكثرِ ما أرجي ... واملُ من نداك اذا توالى
اذا سبقتْ يداك الى عطاء ... أمِنّا الخلف عندك والمطالا
وان يسرتَ للمعروف قولاً ... فانك تتبع القول الفعالا
رأيتُ اليمن والبركاتِ لما ... رأيت بياض وجهك والهلالا(1)

قصد المعتز :

والبحتري بحكم كونه شاعر البلاط كان حريصا على تسجيل كل شاردة وواردة تعن له ، فمثله مثل الصحيفة التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا أشارت اليه وبخاصة ما يتعلق بالخليفة ولي نعمته من أمور . غير ان كثيرا مما تناوله كان اشارات وتلميحات ، فهو في هذه المدحة

(1) الديوان ٣/١٧٢٩ ـ ١٧٣٠ .

يشير في البيتين الاخيرين منها الى قصد المعتز ، أما ما تبقى منها فينحل الى الغزل والمدح الذي تحدث فيه عن صفات عامة ، فخلال الامام (المعتز) تشبه ما شيدن من مجده ، وقد تعزز بالله وكان رائده الحق ، ولما رآه الله كريما معطاء أفاض عليه من نعمه ، وأصبحت الرعية في ظله مطمئنة هادئة ، وعيش البرية رغدا رفها ، فانعقدت الألسنة على شكره وثنائه ، وهو في جوده كالغيث المنهمل صوبه ، العذب مورده ، ولهذا فقد علقت منه آمال مجتديه ومعتفيه بحبل متين من غريب الكرم وجيده ، وكل ما نتمناه ونطلبه ان يبقى حيا عزيزا • ثم يشير الى انه فصد وانه اتخذ هذا الفصد علاجا له ، فيدعو له بالسلامة ، وان يكون ناجعا :

(رأينا خـلال امام الورى ... شبايه ما شدنَ من مجده)
تعـزَّزَ بالله مسـتقر يا ... مدى الحق يسري الى قصده
رأى الله كيف نـدى كفّـه ... فأسنى لـه القَسم من عنده
سـكونُ الرعيـة في ظلـه ... وعيش البريّـة في رفـده
وألسنةُ الحمد مجموعـةٌ ... علـى شكره وعلى حمـده
(هو الغيث ينهلُ في صوبـه ... سجالا ، ويعذب في ورده)
(لقد علقت منـه آمالُنـا ... بحبل غريب الندى فرده)
فدام لـه الملكُ في خفضـه ... وتمَّ لـه العيش في رغـده
(منانـا وحـاجتنا أن يعـ ... ـزَّ ، وأن يمنع الله من فقده)

* * *

تُعالج بالفَصْـد مسـتأنفا ... لعاقبـة الله فـي فصـده
علاجـاً يخبـرُ في وقتـه ... بعقبى السـلامة من بعده[1]

وواضح ان هذه الأبيات لا تحتوي على شيء جديد ذي بال سواء في

---

(١) الديوان ٢/٦٥٦ - ٦٥٧ .

معانيها أو ألفاظها • ومن الملاحظ ان البحتري قد ضمن قصيدته هـذه أربعة أبيات من قصيدة له [1] مدح بها أبا صالح بن يزداد الـذي وزر للمستعين بعد مقتل اوتامش سنة ٢٤٩هـ ، ثم فر هاربا الى بغداد بعد أن غضب عليه الاتراك وزعيمهم بغا الصغير [2] •

ولا ندري على وجه الصواب السبب الذى حـدا بالبحتري الى استعارة أبيات له من قصيدة سابقة في أحد الوزراء ، وتطعيم قصيدته هذه بها ، فهل كان ينعت الوزراء بنفس نعوته للخلفاء ؟ • شعره الذي بين أيدينا لا يؤيد هذا • او هل كانت الابيات ذات ميزة خاصة جعلته يعتز بها فينقلها من ممدوحه الاول الى الثاني ؟ انها لم تكن كذلك ، اذ انّ له أبياتا بل قصائد تسمو كثيرا عليها في الجودة والروعة ؟

ويبدو ان البحتري كان يفعل مثل ذلك أحيانا ، بل كان يفعل أكثر من ذلك ، كان ينقل القصيدة من شـخص الى آخر بعـد تبديل اسم الممدوح ، وقد لحظ ذلك فيه القدماء ، فقال المرزباني ـ وان كان قوله لا يخلو من المبالغة ـ : « ومما قبح فيه ايضا ، وعدل عن طريق الشعراء المحمودة ـ أني وجدته نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم ، وأمات اسماء من مدحه أولا ، مع سعة ذرعه بقول الشعر ، واقتداره على التوسع فيه » [3] •

ويخيل الينا ان البحتري أراد ان يمتدح المعتز فلم يجد مناسبة ذات شأن سوى قصده الذي لم يشر اليه الا اشارة خاطفة ، فتكلف هذه المدحة التي جعل نصفها في الغزل وما تبقى في المدح الذي ضمنه عدة أبيات من قصيدة سابقة له كما أشرنا !

---

(١) انظر : الديوان ٢/٦٨٥ و ص ٤٦ ـ ٤٧ من هذا البحث •

(٢) الطبري ٩/٢٦٤ •

(٣) الموشح ص ٥١٥ ، وانظر : العمدة لابن رشيق ٢/١٤٣ ، وحياة البحتري وفنه ص ٩٦ ـ ٩٧ ففيه تفنيد لزعم ابن رشيق •

خاتم ياقوت وأشياء أخرى :

ويمضي البحتري يدبج في المعتز رائع قصيده ، ويجهد أن يرتفع بمدائحه فيه الى أقصى ما تسعفه به قريحته الخصبة وطاقته الفنية ، ولهذا فهو ما ينفك يوالي خرائده الواحدة تلو الاخرى .

وهذه واحدة منها انتقل بعد المقدمة الغزلية التي تفنن فيها ، ورق وعذب الى الثناء على الخليفة الذى زعم ان نعمه عليه من السعة والوفرة بحيث لو قورنت بالبحر الخضم لغرق بها ، وان مواهبه كثيرة كأعداد الاماني ، ووعوده صادقة حتى يكاد العود يورق منها ، وان الدنيا اذا ما أصيب مقصدها وطريقها باعوجاج او زوغان فليس لها من مقوم او معدل سواه ، وان الدهر لا يحسن صنعه الا به ، ولهذا فقد قدر الله وقضى أن يكون المعتز القائم ، الرشيد ، العدل ، الموفق ، وان محبته من الفروض الواجبة التى فرضها الله على الناس ، وعصيانه ومخالفته سخط من الله مبير ، ومن أجل هذا فهو يدعو له بالبقاء ؛ لان في بقائه بقاء للملك الذى يمده بالنور والحسن والبهاء !

ولا يفوت الشاعر ان يلمح بانتصارات الخليفة على الخارجين عليه ، ثم يخبر بقدوم عيد نيروز وهو من الاعياد المشهورة في الدولة العباسية ، ويعود فيدعو له مجددا بالبقاء في ظل سابغ من الله ؛ لان ظله كالروض المونق تستظل به الرعية .

ويشير برغبته في زيارة أهله في منبج مسقط رأسه ؛ لانه يبتغي في هذه الزيارة ان يسر صديقا بما نال من حظوة واكرام ، ويسوء عاتبا زاريا حين يرى ما عليه من عزة وجاه ، وينشر نعم الخليفة السابقة التى انعم بها عليه ، وهو ان رحل بشخصه الى الغرب (بلاده) فان اشتياقه دائما متصل بالشرق (مقر الخليفة) .

والشاعر هنا يعترف بفضل المعتز عليه فيقول : وكيف يمكنه ان

ينسى متكأه ومعوله ، وكيف لا يحدوه اليه الشوق ، وهو الذي رفعه وأعلى شأنه بما أفاض عليه من صنيعة وجاه ، حتى ليجد نفسه مقصرا في شكر ما أنعمه عليه ومنحه اياه من عطايا واجدا • ثم يمضي يعدد عوارف المعتز له ،فيشير الى انه حمل مركبه على عشر من خيل البريد، وانه أكثر من برّه واحسانه بما وهب له من البدور ذات اللجين المرقق ، وبما منحه من الجياد والافراس وما خلع عليه من الثياب والاكسية التي كان من بينها ثياب الخليفة نفسه والتي كانت تشتمل على حمائل للسيوف •

ولكن البحتري الذى كان نهما جشعا يسأل ويلحف ف المسألة ما كان ليحد من جشعه ونهمه ما ناله من الهبات واللهى ، فهو يطلب من الخليفة ان يختمه بياقوتة ثمينة ذات بهاء واشراق ، ثم يستطرد في وصف تلك الياقوتة التي يودّ ان يختم بها ، فهو يريدها حمراء بحيث يغار الورد من حسن صبغها ، ويحكيه اصفرار الراح المعتقة ، ويريدها تضاهي الشمس اشراقا ولمعانا بل تربي عليها في كل شيء ، وانها حين تلتهب في اللحظ فان ضياءها ليضاهي اشراق جبين الممدوح ساعة الاعطاء ، وهو يريدها ليفخر بها ، ولتبقى ذكرا خالدا له على الدهر • وانه لواثق من نيلها بما يعرفه في المعتز من الجود ، وبما عنده منه من العطايا والهبات • وان أمثاله ليعطى أضعاف أمثالها ؟ ولا غرو فهو البحر المتدفق •

ويبدو ان البحتري حين عدد عوارف المعتز نحوه وحين طلب منه خاتم ياقوت أراد أن يشعر الخليفة بأهمية شعره ازاءه ، وانه يقابل عطاياه بما يدبّجه فيه من قصيده ، فهو يقول لئن صان شعره ولم يقله في رجال أعزة ، فان ما فيه من خلال وشمائل لجدير بتلك القوافي ، وان كان العمال الذين يستعملهم الخليفة في أقطار الدولة قد وجدوا منه مبرة لهم بما يمدحهم من قريض فان الذي يستعمل العمال ويوليهم أحرى بهذه المبرة وأجدر :

بودي لو يهوى العذولُ ويعشق فيعلمَ أسبابَ الهوى كيف تعلق

* * *

اخا قُرن البحرُ الخضمُ بأنعم الـ خليفة كاد البحر فيهن يغرق
مواهبُ أعداد الأماني وخلفها عداتٌ يكاد العود منهن يورق
به تُعْدَلُ الدنيا اذا مال قصدُها ويحسن صنع الدهر،والدهر أخرق
قضى اللهُ للمعتز بالله أنه هو القائمُ العدل الرشيد الموفق
محبته فرضٌ من الله واجب وعصيانُه سخط من الله موبق
بقيتَ أمير المؤمنين موفقا فللملك نور ما بقيت ورونق

* * *

لقد أقبلتْ بالأمس خيلك سبقاً وأنت الى العلياء والمجد أسبق
ووافاك بالنيروز وقتٌ محبب يظل جنىُ الورد فيه يفتق
فلازلت في ظل من الله سابغٍ فظلك روض للبرية مونق
تجانفَ بي نهجُ الشآم وطاع لي عنان الى أبيات منبج مطلق
أسرُّ صديقا او أسوء ملاحياً وأنشرُ الاءَ بطولك تنطق
واني خليقٌ ، بل حقيق بعقب ما يغرِّب شخصي أن شوقي يشرق
ومن أين لا يثني الرجاءُ معولي عليك ، ويحدوني اليك التشوق ؟
وأنت الذي أعليتني بصنيعة هي المزنُ تغدو من قريب فتغدق
وعارفةٍ فاتت صفاتي فلا الثنا يقارب أقصاها ولا الشكرُ يلحق
حملتَ على عشر من البرد مركبي عجالا عليهن الشكيم المحلق
وأكثرتَ زادي من بدور تابعت بجودك فيهن اللجينُ المطرق
ومنتسبات للوجيه ولاحق كميتٌ يسر الناظرين وأبلق
ومن خلَع فازت بلبسك فاغتدى بها أرَج من طيب عرفك يعبق
عليها رداءٌ من حمائل مرهفٍ صقيل يزلّ الطرف عنه فيزلق

* * *

فهل أنت يا ابن الراشدين مختمي ... بياقوتة تبهى عليَّ وتشرق
يغار احمرار الورد من حسن صبغها ... ويحكيه جادي الرحيق المعتق
اذا برزت والشمس تلت : تجارتا ... الى أمد او كادت الشمس تسبق
اذا التهبت في اللحظ ضاهى ضياؤها ... جبينك عند الجود اذ يتألق

* * *

أسربَلُ منها ثوبَ فخر معجل ... ويبقى بها ذكر على الدهر مخلق
علاقةُ جود منك عندي مبينة ... وشاهد عدل لي بنعماك يصدق
ومثلك أعطاها وأضعافَ مثلها ... ولا غروَ للبحر انبرى يتدفق

* * *

لئن صنتَ شعري عن رجال أعزة ... فان قوافيه بوصفك أليق
وان وليَ العمالُ مني مبرة ... فمستعمل العمال أحرى وأخلق(١)

* * *

الحق ان هذه القصيدة تعد من جياد قصائد البحتري على الرغم من اشتمالها على أغراض متعددة ، ولعل أهميتها تظهر اذا ما علمنا انها كانت السبب في تحبيب الشعر الى عبدالله بن المعتز الذي كان من بين المستمعين اليها ابان انشاد الشاعر لها في أحد قصور والده المعتز . ويبدو انها كانت ذات وقع حسن ايضا لدى الناس آنذاك . فقد روى الصولي عن عبدالله بن المعتز قوله : « كان مما حبب الشعر الي ، اني سمعت البحتري ينشد الماضي (أي والده المعتز) شعرا تشوقه الناس واستحسنوه ، ووصفوه ، تصرف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر ، وعدد أصناف ما أخذ ، وطلب خاتم ياقوت ، وهو عندي من أحسن شعره ، وهو :

بودي لو يهوى العذول ويعشق ... فيعلم أسباب الهوى كيف تعلق

القصيدة »(٢) .

---

(١) الديوان ٣/١٥٣٤ ـ ١٥٣٨ .
(٢) أخبار البحتري ص ١٠٨ .

والحقيقة ان أكثر شعر البحتري في المعتز من هـذا الطراز العالي الذي استحسنه ابن المعتز ، وعده من أحسن شعره عنده ، وهذا ما دفعنا الى القول أكثر من مرة بأن البحتري جهد ان يرتفع بشعره الى أقصى ما يستطيعه من جودة وروعة حتى ليمكن القـول بأن شـعره في المعتز يضاهي شعره في أبيه المتوكل ان لم يفقه أحيانا !

مؤامرة بغـا الصغير :

تحدثنا فيما مضى عن بغا الصغير هذا وقلنا انـه اشترك في اغتيال المتوكل ومال الى جانب المستعين في ايام الصراع بينه وبين المعتز • وبعد استخلاف الاخير كتب الى ابن طاهر والي بغداد في سنة **٢٥٢**هـ باسقاط اسم بغا ووصيف من الدواوين ، ثم اضطر المعتز تحت تأثير ضغط الاتراك وزعمائهم أن يعلن رضاه عنهما ، ورد الاعتبار اليهما ، ثم خلع على بغـا في سنة **٢٥٣**هـ وألبسه تاجا ووشاحين • بيد ان بغا لم يلبث في سنة **٢٥٤**هـ ان أظهر الخلاف على المعتز ، وكان المعتز يخشى بغا هذا كثيرا كما ذكرنا • ولم يهدأ له بال حتى تمكن من الاجهاز عليه والتخلص منه سنة **٢٥٤**هـ[(١)] •

والبحتري الذي كان يواكب الحوادث يحدثنا في هذه القصيدة عن أشياء لم تكشف عنها المراجع التاريخية ، فالذي تذكره التواريخ ان سبب الخلاف بين المعتز وبغا هذا ان الاخير كان يحرّض على المسير الى بغداد ، والمعتز يأبى ذلك ويكرهه ، في حين يشير البحتري الى ان السبب كان أخطر من هذا بكثير ، انه ينطوي على رغبة بغا في الخلافة ، كما يشير الى ان صناعة بغا كانت الحجامة ، ولا عجب في ذلك فقد كان غير واحد من كبار قواد الاتراك من ذوي المهن الواطئة في مطالع حياتهم[(٢)] •

---

(١) انظر : ص ٥٣ •

(٢) كان ايتاخ التركي طباخا ، انظر الطبري ١٦٦/٩ ، الكامل ، ٤٣/٧ •

ويهزأ البحتري بما كان يتوهمه بغا من نيل منصب الخــلافة ، ويتساءل عما اذا كان جديرا به ، أهلا له ! ويتهمه بتفـريق المـوالي (الاتراك) بعد ان اجتمعوا حول الخليفة ، وقد كان لبغا هذا حزب من الموالي يسنده ويأتمر بأمره ، وقد لعب دورا كبيرا في اسقاط أبي صالح ابن يزداد وزير المستعين الذي فر هاربا من سامراء الى بغداد ، كما كان له أولاد كثيرون تتبعهم ابن طـاهر ببغـداد بعد مصـرع أبيهم فأدخلهم الحبوس[1] .

وبعد ان اشار البحتري الى هدف بغا من مؤامرته انتقل الى امتداح المعتز والاشادة بأوصافه وشجاعته ، فنعته بأنه مؤيد بالله ، ونعمة سابغة ، أنعم بها على الاسلام ، وانه حصيف ذو حلم ثابت ، اذا أبدى رأيه في أمر وفاه حقه في حالتي الشدة والرخاء ، وقد تعهد الامور بنفسه فانتظمت له واتسقت ، وتخاله حين يبدو شاكا سـلاحه ، بـدرا متألقا في حالـكات الدجون ، وقد لبس آلة الحرب وشمر عن ساعد الجد في متابعة الخصوم ، لا يهنأ برقيق العيش ونعيمه حتى تنجلي شبهات الشـكوك ، وتكشـف حلكات الظلام .

ولعل من المفيد ان نذكر هنا ان المعتز كان « في غيبة بغا لا ينام الا في ثيابه ، وعليه السلاح ، ولا يشرب نبيذا ، وجميع جواريه على رجل »[2] . وروى عنه انه قال : « ... لا ازال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي او رأسه لي ،وكان يقول : اني لأخاف ان ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الارض ... »[3] .

واذا صحت هذه الاخبار فان ما أشار اليه البحتري عن همة المعتز

---

(١) انظر : الطبري ٩/٣٨٠ ، الكامل ٧/١٨٦ .
(٢) الطبري ٩/٣٨٠ ، الكامل : ٧/١٨٦ .
(٣) مروج الذهب ٤/٩١ ــ ٩٢ .

واستعداده كان حقيقا مؤكدا .

ويمضي الشاعر في اطراء المعتز وأخذه بغا بالحزم والجد ، فيقول: لما شك في أمر بغا هذا انبرى له بحسام مرهف الحدين ، ولج في حربه وأصحابه وألح في طلبهم ، ولم يعلموا انهم حين أثاروه أثاروا ذا صولة جبارة سحقت مناكب جبلي يذبل وشمام وطحنتها ، ومالهم لم يفطنوا الى قدرته هذه وقد خبروها في سالف الأعوام ، فها هو اليوم يترك الهوادة ظهريا ويقدم بكل جرأة واصرار وبعزيمة ماضية لا تعرف الكلل ولا الملل نحو اولئك الذين انضووا تحت امرة بغا فيفرقجمعهم ، ويشتت شملهم، ويقضي على تآمرهم .

ويشير البحتري الى مناصرة بقية الاتراك للمعتز وانهم وقفوا الى جانبه يذودون عنه بسيوفهم ، ويرامون أعداءه بسامهم ، وأنهم كانوا من ذوي الاقدام والبسالة ، ولو لم يكونوا كذلك لتعلموها منه نفسه ، فهو يتقحم بهم غمار الحرب ويخوض المعامع ، وهمه ان تختلط الاعلام ، وتلتحم الجيوش حتى أخذوا يلتمسون منه الامان في هذا الالتحام حين رأوا كثافة الجيوش المتطاحنة ، خوفا عليه من مكروه يصيبه ، او حادث يحدث له ، ويخاطب البحتري المعتز فيقول له : لما امتشق الحسام بوجه هذا المتآمر ، فزع ورهب ، ورام كل مرام للنجاة بنفسه ، وحين زحف اليه وقصد داره لم يجده فيها ؛ لانها لم تعد دار مقام له ؛ لخوفه وفراره .

ولعل البحتري يشير بهذا الى ما ذكرته التواريخ من ان بغا حين قبض عليه من قبل وليد المغربي الموكل من قبل المعتز ، طلب منه ان يذهب به الى منزل صالح بن وصيف زوج ابنته جمعه[1] .

---

(١) أشار شارح الديوان الى ان زوجة صالح هي آمنة بنت بغا (الديوان ٣/٢٠٢٢ هامش ٢٩) في حين ذكر الطبري ان اسمها (جمعة) . الطبري ٩/٣٧٩ .

أو الى منزله[1] •

ويشير البحتري كذلك الى فرار بغا الذى ذكرته المصادر التاريخية وفحواه ان غلمانه وأصحابه ضاقوا ذرعا بما هم عليه من العسف والفاقة ، فطلبوا منه أن يمدهم بالأموال فوعدهم بذلك حتى اذا جنَّ عليه الليل ركب زورقا وانحدر الى سامراء بغية تأليب الاتراك على المعتز والفتك به[2] ،فكان من أمره ما كان •

ويشير البحتري أيضا ان بغا طلب الامان ورجا ان يعف عنه ، بيد انه لا أمان لغدار متمرد محل للحرمات •

ويبدو ان مؤامرة بغا كانت ذات أهمية كبرى في حياة الخلافة العباسية بدليل ان الشاعر اعتبر ان عز الخلافة قد رجع اليها بعد القضاء عليه •

وينهي البحتري قصيدته بما آل اليه هذا المتمرد وابناؤه وأقرباؤ من التشتت والتفرق والدمار ، وقد ذكرنا ان المعتز طلب الى والي بغداد بتتبع أولاده وأقربائه وحبسهم :

طلب العمامةَ والقضيب واين لـم ... تبلغ حماقةُ ذلك الحجـــام ؟
أتراه وهَمَّ أنـه أهـل لهـــا ... سَفَهاً تعدّى هذه الاوهـام ؟

قد رام تفريق الموالي بعدما ... جُمعوا على ملك أغرَّ همـام
متعزّزٍ بالله ، أصبح نعمـة ... لله سابغةً عـلى الاسـلام

ثبْت الأناة اذا استبد برأيـه ... وفَّاك حق النقض والابـرام
ساق الامورَ بعزمة فاستوسقت ... لموفَّق في أمـره عـز ام

---

(١) الطبري ٩/٣٨٠ •
(٢) نفسه ٩/٣٧٩ ـ ٣٨٠ ، الكامل : ٧/١٨٦ ـ ١٨٧ •

فخمٌ اذا حمل السلاح عجبت من ... بدر تألقَ في سواد غمام
لبّاس أثواب الحروب مشمّر ... عن ساعدى أسد ببيشةَ حام

لما استرابَ بما استراب به انبرى ... بمهنّد الحدين غير كهام
فسرى بعين ماتنام على القذى ... لهلاك صرعى في الحجال نيام
لعبوا ولجَّ بهم لجوجٌ ماحك ... في الحرب يرخصها على المستام
ايقظتموه ونمتمُ عن صولة ... طحنتْ مناكب يذبل وشمام

ماغرّكُم منه وقد جربتم ... سطواتِه في سالف الأعوام
ترك الهوادةَ حين كرَّ يريدكم ... بعزيمة فَصْل وطرف سام
وغدا وآجامُ الرماح مظنةٌ ... منه ، ومغنى الليث في الآجام
حشدت مواليه له فترادفت ... عُصَبا تُسايف دونه وترامي

لو لم يكونوا مقدمين تعلّموا ... منه التقدُّم ساعة الاقدام
متقحّمٌ بهم الغمار وعزمُه ... أن يخلط الأعلام بالأعلام
يسلُونه فيها الأناة وقد رأوا ... لُججاً يموج بهن بحر طام
شفَقا على خير البرية كلّها ... نفسا وأفضل سيد وامام

لما شهرتَ السيف مزدلفا به ... قلق العُبَيد ورام كل مرام
وزحفت من قُرْب فلم تك داره ... لما زحفت اليه دارَ مقام
جمع العزيمةَ والاباق بفرقةٍ ... مذكورة أخزته في الأقوام
يرجو الأمان ولا أمانَ لغادرٍ ... رشَقَ العصا من أجل كل حرام

فاليوم عاودت الخلافةُ عزّها ... وأضاء وجه الملك بعد ظلام
أضحى بغاةُ وأقربوه وحزبه ... وكأنهم حلْمٌ من الأحلام
طاحوا فما بكت العيونُ عليهم ... بدموعها ، ومضوا بغير سلام
فاسلم ـ أميرَ المؤمنين ـ ممتّعا ... بتتابع الآلاء والانعام(١)

(١) الديوان ٣/٢٠١٩ ـ ٢٠٢٢ .

وواضح ان البحتري في هذه القصيدة مندفع ومتحمس للذود عن الخلافة العباسية المتمثلة بالخليفة المعتز ، وانه لم يأل جهداً في تبيان حق المعتز في الخلافة ، والاشادة بشجاعته وتيقظـه ومقدرته وأخـذه اعداءه بالصرامة والجد والتتابع •

والبحتري لم يستطرد في نعت المعتز بهذه الاوصاف والتركيز عليها في قصائده فيه كما استطرد في هذه القصيدة ، فهو ما يكاد يفرغ من هذه النعوت حتى يعود اليها كرة أخرى • كما جهد ان يظهر مناوئه بمظهر الخائن الغدور المفرق للصفوف الطـامع بما يمـكن ان يعد وهما من الأوهام ، وهو الخلافة ، وان يهزأ بغا فنعته (بالعُبيد) تحقيرا وامتهانا • وأشار الى فزعه وهلعه وفراره وطلبه الأمان وما الى ذالك •

والحق ان البحتري ـ في هذه القصيدة وفي قصائده الأخرى في الخلفاء العباسيين ـ يمثل الشاعر المتحمس للخلافة العباسية ، المدافع عن كيانها ، المتمني لها ولخلفائها البقاء والاستمرار ، ومن أجـل هـذا كان شديدا في مهاجمة خصماء الخلافة والخليفة ، حتى ولو كانوا من الطالبيين الذين ـ كما يقال ـ كان الشاعر يميل اليهم في دخيلة نفسه •

شكوى البحتري من صاحب الديوان :

كان لاسراف الخلفاء العباسيين وتبذيرهم ، وكثرة اعطياتهم المستمرة للشعراء والادباء والندماء أثره الخطـير على أموال الدولة ، ممـا جعـل القائمين على ادارتها يتذرعون بشتى الوسائل للماطلة والتسويف في دفع ما يأمر به الخليفة للآخرين[1] •

---

(١) تعرض الفضل بن مروان أحد وزراء المعتصم لنقمته وعزلـه بسبب ذلك (انظر : الطبري : ٩/١٨ ـ ٢٢) ، وانظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٩١ •

والبحتري في هذه القصيدة يشكو صاحب الديوان الى المعتز • ويبدو انه قد لجأ الى مالجأ اليه الآخرون في التسويف والمماطلة •

والقصيدة مفتتحة بالديباجة التقليدية التي التزمها الشاعر في الغالب الأعم من قصائده ، ونعني بها المقدمة الغزلية ، ثم ينتقل الى امتداح المعتز وتعديد الصفات وبالأصح تكرارها له ، فهو لم يرَ مثيلا له في الحلم والجود ، واذا ما اهتز للندى أربى على البحر كرما وعطاء ، وانه ينتمي الى أعرق نسب ، وأكرم محتد ، وان دماثة اخلاقه لتقوم مقام القطر اذا انقطع عن الهطلان او غاب ، واذا ما وضع التاج على رأسه وقد زين باللآليء الزهر ــ حسبته كواكب الفكة قد اكتنفت البدر • ويمضي مكررا اعترافه بجميل المعتز ، وكثرة صنيعه له ، حتى ليقول : انه جدد له دولته بفيض احسانه ، وكأنه يلمح بذلك الى ما كان عليه في عهد أبيه المتوكل ، من جاه وثراء •

ثم يعرّج الى الغرض الرئيس من انشاء هذه المدحة ــ على ما يبدو ــ وهو شكواه من صاحب ديوان الأموال ، ولعله يريد به «مقلدا كيد الكلب» الذي ولاه المعتز في سنة ٢٥١هـ بيوت الأموال واعطاء الاتراك والمغاربة والشاكرية[١] • فهو يقول للمعتز : ان أخذ بيده ونصره على عدوه ــ وهو صاحب الديوان ــ أثرى وأربى على المثري • فصاحب الديوان هذا غير مرضي ، وعمله غير حميد ؛ لانه أخر الشاعر عن معشر كلهم متخلف عنه في المرتبة وفي القريض • وهو اذا ما عاتبه في أمر أجابه عن غيره بعد لأي ، وانه ليعجب من أمره ، هل انه يجهل ما يقوم به او يعلم ، فان كان جاهلا بذلك فانه أمر عجيب ، وان كان يدري فهو خزي وشنار ، ويطلب في عقبى قصيدته ان يساوى على الاقل ببعض من هم أقل منه نباهة ، وأدنى منزلة كالدّاري او نصر ، وهمــا ــ على ما يظهر ــ من

(١) انظر : الطبري ٩/٢٨٧ ، والديوان ٢/١٠١١ هامش ١٩ •

المتخلفين في عهد الشاعر :

لم أرَ كالمعتز في حلمه الـ ـوافي وفي نائلــه الغمــر
يُستصغر البحــر' اذا استُمطرت يدٌ له تربى على البحــر
علاه في أقصى محلِّ العــلا وفخــرُه في منتهى الفخــر
بين بني المنصور والكامل الأ خـلاق والســجاد والحبر
كأنمــا التـاجُ اذا ما عــلا غُــرَّته بالـدرر الزهــر
كـواكبُ الفكَةِ في أفقهــا دنت فحفت غرَّةَ البــدر
يا واحدَ الأملاك من هاشم وسيّدَ الأشراف من فهــر
أُعطيت أقصى مدة العمــر ممتّعـا بالعــز والنصــر
جـدَّدَ احسانُك لي دولتي وزاد في جاهي وفي قـدري
في كـلِّ يوم منّةٌ لايفــي ببعضها حمـدي ولا شــكري

* * *

ان كنت معدىً على ظــالمي أثريتُ اوزدت على المثري
ما صاحبُ الديوان بالمرتضى ولا الحميدِ الفعل في أمـري
أخّرني عــن معشــر كلهم مؤخَّرٌ عني ، وعن شعري
يجيبني من غـير قولي اذا عاتبتُه فـي الحين والشــهر
ان كان يدري فهي أعجوبةٌ وخزيةٌ انْ كان لا يدري !
أقلُّ ما يوجبــه الحق ان أُلحقَ بالداريّ او نصر[1]

تأسية المعتز بوفاة طفل له :

حدث ان مات طفل صغير جدا للمعتز أيام خلافته اسمه ابراهيم[2]

---

(۱) الديوان ۲/۱۰۱۰ ـ ۱۰۱۲ ٠

(۲) انظر : الديوان ۲/۱۰۰۳ الحاشية وجمهرة انساب العــرب لابن حزم ص ۲۸ ٠

فأنشأ البحتري هذه الأبيات يعزيه فيها بوفاة هذا الطفل . وافتتحها بتفديته الخليفة مما أصابه من مكروه ، وتمنى له البقاء في كنف أيام مرضية ، كما تمنى له البنين الكثيرين الذين سيخلفون هذا النجم الذي ما كاد يلوح حتى أفل . وان افتقاد هذا الطفل لم يكن سوى ذخر في هذه الدنيا ، قدّم الخليفة فضله ، وما قيمة الدنيا اذا لم يكن فيها ذخر للانسان ؟ ثم ينهي الأبيات بتعزيته من هذه الرزية ، وتمنيه له الصبر والسلوان :

بنا لابك الخطبُ الذي أحدث الدهرُ
وعمرتَ مرضيا لأيامك العمر !

تعيشُ ويأتيك البنون بكثرة
تتمّ بها النعمى ويستوجب الشكر

لئن أفَلَ النجمُ الذي لاح آنفا
فسوف تلالا بعده أنجم زهر

مضى وهو مفقود وما فقدُ كوكب
ولاسيما اذ كان يُفدى به البدر

هو الذخر من دنياك قدّمت فضله
ولا خيرَ في الدنيا اذا لم يكن ذخر

نعزّيك عن هذي الرزيّة انها
على قدر ما في عظمها يعظم الأجر

نصبراً أميرَ المؤمنين ، فربما
حمدتَ الذي أبلاك في عقبه الصبر(١)

وابيات البحتري هذه ـ كما ترى ـ لطيفة المعنى ، جميلة المنحى ،

---

(١) الديوان ٢/١٠٠٣ .

لا تنطوي على شيء من المبالغة والتهويل •

ولا نعلم لِمَ لم يتخذ البحتري من بقاء عبدالله بن المعتز الذي مدحه أكثر من مرة ما يخفف به من حزن المعتز ، فهو لم يلمح اليه ، وانما اكتفى بالقول : لئن أفل هذا النجم فسوف تعقبه نجوم أخرى ! وكأن في قوله هذا اشارة الى ان هذا الطفل كان أول ولد المعتز وهذا غير صحيح بالطبع ، اذ ان ولادة عبدالله كانت في حياة جده المتوكل سنة **٢٤٧**هـ كما أسلفنا •

من وحي نقد المعتز :

كان البحتري مرة في مجلس المعتز فقرأ قارىء : « ونادى فرعون في قومه قال : يا قوم أليس لي ملك مصر ••• » • فقال المعتز : ما أبين جهل فرعون ! يدعي الربوبية ، ويفخر بمصر ، فخرج البحتري وقد علقت كلمة المعتز في ذهنه فاستوحى منها هذه الابيات التى جعل نصفها تقريبا في الغزل الذي أبدع فيه على جاري عادته ، ثم انتقل الى التعجب من فرعون الذي ظن ان جريان النيل من تحته كاف لجعله الهاً ، ولو هيىء له ان رأى المعتز المهيمن على الدنيا وأقطارها ومنها مصر ، لتضاءل لديه ما كان يراه في مصر ! ولو رأت عيناه « الزَوّ » وهو نوع من السفن عظيم وقد بنى المتوكل في واحدة منها قصرا منيفا ذكره البحتري في قصيدة له يمدح بها المتوكل[1] • ويظهر انها انتقلت الى المعتز في جملة ما انتقل اليه من ارث الخلافة ــ لاحتقر ــ لعظمة ما يراه ــ الذي نالته يداه من الأمر ، اذ لرأى قصرا عظيما عائما يروح ويغدو فوق لجج الماء •

وكان هذا «الزَوّ» يستعمل في حفلات الصيد بما يعد فيه ويهيأ من أمور • وقد أشار الى ذلك البحتري في احدى مدائحه للمتوكل •

---

(١) انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٣٣ ، ــ والبحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص ٢٣٢ •

ومما يحسّن هذا الزّو ويجمله وجود المعتز عليه الذي بدا مشرق المحيا ، يجلو بغرته الظلام ، ويمضي البحتري في الثناء على المعتز الذي يهتز للاريحية والندى ، ويسفر وجهه طلقا بشوشا لهما ، وانه اذا ما قابل بدر السماء فهناك ترى بدرا على بدر في الجمال ، وبحرا على بحر في الجود • وقد اجتمعت له ديباجة الدنيا ، وبهاء الملك ، ومكرمة الدهر ، وانه ذو عطاء جم ، ومواهب فريدة ، جعلت من الفقير غنيا ، ومن المقل ثريا ، ثم يتمنى له البقاء ؛ لان في بقائه يسر الناس الذى شرد عنهم العسر ، وسيجهد في شكر نعمائه له ما وسعه الجهد ؛ لا عتقاده ان كفر النعم ضرب من الكفر :

تعجبتُ من فرعون اذ ظنّ انه ... اله لأن النيل من تحته يجري
ولو شاهدَ الدنيا وجامع ملكها ... لقلّ لديه مايكثر من مصر
ولو بصرت عيناه بالزّوّ لازدرى ... حقيرَ الذى نالت يداه من الأمر
اذاً لرأى قصرا على ظهر لجّةٍ ... يروح ويغدو فوق أمواجها يجري
تصاد الوحوش في حفا فيْ طريقه ... وتُستنزل الطير العوالي على قسر

* * *

ولم أرَ كالمعتز اذ راح مُوفياً ... عليه بوجه لاح في الرونق النضر
مليّاً بأن يجلو الظلام بغـرة ... تخاضعُ اكبار لها غُـرّةُ الفجر
اذا اهتزّ غبّ الاريحية والندى ... وأسفر في ضوء الطلاقة والبشر
وقابَلهُ بدر السماء بوجهـه ... فبدرٌ على بدر ، وبحر على بحر
رأيتَ بهـاء الملك مجتمعا لـه ... وديباجةَ الدنيا ، ومكرمة الدهر
وخرقٌ متى امتدت يداه بنائل ... فما النّيْلُ منها بالزهيد ولا النزر
مواهب مكّن الفقير من الغنى ... مرارا ، وأعدين المقلّ على المثري
بقيت أميرَ المؤمنين فانما ... بقاؤك يسر الناس شرّد بالعسر

سأجهدُ في شكر لنعماك انني   أرى الكفرَ للنعماء ضربا من الكفر[1]

ويشير الصولي الى ان البحتري بعد اتمامه القصيدة دخل على المعتز فأنشده اياها فلما بلغ :

تعجبت من فرعون اذ ظن انه   إله لان النيل من تحته يجري

أعجب بها ووصله ، وقال : لقد صغرت قدره كما استحق »[2] .

المحمدية في عهد المعتز :

لم يغفل البحتري تسجيل أعمال الخلفاء الذين عاصرهم وعاش في أكنافهم ، وبخاصة أعمالهم العمرانية ، فقد فسح لها في شعره مجالاً واسعاً ، واطنب في اوصافها والاشادة بها ، وقد كان الخلفاء يغرون الشعراء ويدفعونهم الى أوصاف ما يشيدون من قصور ، وينشئون من عمران[3] . وقد فصلنا القول في تلك القصور والعمائر في كتابنا « سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى »[4] .

فبعد المقدمة الغزلية ينتقل البحتري الى مدح المعتز فيقول : ان خلاله الكريمة لا يقارب السحاب معشارها ، وانه موفق للهدى ، أهل للخلافة ، التي ردت اليه فهو يصرف أمورها ، ويدير شؤونها ، ورائده العدل والدين ، وان امرة المؤمنين جديرة به ؛ لما عليه من حسن الخلق ، ونبل السجايا ، وقد زهــا به تاجها ، وتاه سريرها ، وازدهى منبرها ، وانه لمعطاء كريم ، تفيض راحتاه بالجزيل من الهبات والسني من العطايا ، ولو كانت كنوز الدنيا بيده لأفناها جودا ، وانفدها كرما ، وقد أثنت عليه منحه

---

(١) الديوان ٢/١٠٥٢ ــ ١٠٥٤ ولكن الشاعر لم يعمل بفحوى البيت الاخير في صلاته مع الخلفاء ومن امتدحهم ونال أعطياتهم .

(٢) أخبار البحتري ص ١١١ .

(٣) انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ١٨ .

(٤) انظر : الفصل الثالث من المصدر نفسه :

وهباته التي أنعم بها على الآخرين ، ثم ينتقل بعد هذا الامتداح الى وصف المحمدية : وهي كما تشير بعض المصادر ، قرية كانت بالقرب من سامراء ، وكانت تعرف بالايتاخية نسبة الى ايتاخ التركي ، ثم سماها المتوكل « المحمدية » باسم ابنه المنتصر ، وكانت تعرف اولا بدير أبي صفره ، وهم قوم من الخوارج وقد اتخذها المتوكل مقرا يشرف على عملية بناء مدينة المتوكلية •

وذكر اليعقوبي في تاريخه المحمدية هذه في معرض كلامه على تدهور الحالة السياسية في عهد المعتز ، وذكر انها كانت على مسافة ثلاثة فراسخ من قصور الخلفاء ، وأشار الى قصر فيها ولم يسمه ولعله قصر الايتاخية الذي بناه المتوكل • قال اليعقوبي : وضعف أمر المعتز حتى لم يكن له أمر ولا نهي • وأنتفضت الأطراف وخرج بديار ربيعة رجل من الشراة ، يقال له مساور بن عبدالحميد ويعرف بابي صالح من بني شيبان ، ثم سار الى الموصل فطرد عاملها وسار حتى قرب من سر من رأى ، ونزل في المحمدية (ثلاثة فراسخ من قصور الخليفة) ، فدخل القصر وجلس على الفراش • ودخل الحمام ، وندب له المعتز قائداً وجيشا بعد قائد وجيش وهو يهزمهم حتى كشف جمعه واشتدت شوكته •

ويظهر ان المحمدية المذكورة قد ازدهرت حالها وحسنت أمورها في عهد الخليفة المعتز ، وانه ـ كما يقول البحتري ـ قد اتخذها مقرا للسكنى ، ومغنى للانس والطرب ؛ لما كانت عليه من طيب المكان ، ووفرة المياه »[1] حتى عدها لجمالها وروعتها جنة عدن •

ثم ينتقل الى الثناء على عبدالله بن المعتز الذي ينعته بانه زين الدنيا وجوهرها وانه نشوان من هزة الندى والكرم ، ويده موزعة بين الاعطاء

---

(١) انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٥٨ـ٢٥٩ •

والسماحة ، وانه ذو وجه مشرق صبوح ، بهر بطلعته شمس الضحى حين أشرقت وأضاءت[1] .

وانه لا يخيب رجاء من يعتفيه ويسأله ؛ يقول :

انَّ خلال المعتز ليس لها مقاربٌ في السحاب يعشرها
موفّقٌ للهدى تليق به خلافةٌ ، رأيه يدبرها
ردَّتْ اليه أمورها وغدا يُوردها حزمه ويصدرها
فالعدلُ والدين يقصدان الى غاية مجد للدين مفخرها
وامرةُ المؤمنين منتخب لها رضيُّ الأخلاق خيرها
زها بها تاجُها ، وتاه به سريرُها المعتلى ومنبرها
في كل يوم تفيض راحتُهُ مواهبا ما تُخاض أبحرها
لو أنَّ كنز الأيام في يده طاحتْ سنوها جودا وأشهرها

* * *

قد تمَّ حسنُ (المحمدية) بالبد ر الذي بالضياء يغمرها
مشرقةٌ في العيون ضاحكةٌ مبدأُها أنسٌ ومحضرها
تُبدي نسيم الكافور تربتُها ودارُ أنس باليمن تعمرها
مغنى سرور بالسعد تنزلُهُ اذا غدت والسماء تمطرها
وفارساباد اذ تكتنفَها مورقُ أشجارها ومثمرها
جنّةُ عدن متى حللت بها شهدتَ أن القاطول كوثرها

* * *

من لم يكن جوهراً فذلك عبـ ـدالله زَيْنُ الدنيا وجوهرها
نشوانُ من هزة الندى فيدٌ بالمها والسماح تحذرها

---

(١) أشرنا فيما سبق الى ان ابن المعتز كان شديد السمرة ، ولكن البحتري حاول هنا وفي مكان آخر ان يجعل منه ذا محيا صبوح مشرق جميل ؟

أوفى ضياءً بطلعة بهرتْ شمس الضحى اذْ أضاء نيرها
اذا طلبنا اليه مرغبةً لم يعترض دونها تعذّرها[1]

قصر الغرد :

قلنا ان شعر البحتري يعد سجلا حافلا لاعمال الخلفاء العباسيين في سامراء ولاسيما ما يتصل بتشييدهم القصور ، فقد كان الشاعر يختلف اليها ويجالس الخلفاء وينادمهم فيها ، كما كان ينشدهم قريضه في رحابها واروقتها .

ومن الجدير بالذكر ان اوصاف البحتري لهذه القصور - في الاكثر - تنزع نحو الوصف ، العام الظاهري ، فهو لم يحاول التغلغل الى داخلها وتصوير ما يشاهده فيها من ألوان التزيين وضروب التفنن ، اللهم الا في القليل النادر[2] .

بيد انه على الرغم من هذا الوصف الظاهري العام استطاع ان يخلد الكثير من تلك القصور في ثنايا مدائحه لأربابها ، كما له ميزة أخرى وهي انفراده بوصف بعض تلك القصور التي لم تتحدث عنها كثيرا المصادر الاخرى .

ومن تلك القصور ، قصر الغرد هذا ، الذي ذكره ياقوت في معجمه فقال عنه : « الغرد : قال نصر : بسكون الراء ، ولم يزد في ايضاحه ، قال : وهو بناء للمتوكل بسر من رأى في دجلة ، أنفق عليه ألف ألف درهم ، ولم يصح لي انا ضبطه ، وما أظنه الا الغرد والله أعلم »[3] .

---

(١) الديوان ٢/١٠٧٤ - ١٠٧٦ .

(٢) فعل ذلك في وصفه للقصر الكامل كما سيأتي .

(٣) معجم البلدان ١٩٢/٤ - ١٩٣ ، وانظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٤٨ . وجدير بالذكر ان الصولى قد لمح في أخبار البحتري ص ١٠٧ الى وصف البحتري هذا لقصر الغرد فقال : « وهو يصف أبنية المعتز كثيرا ، فمن ذلك قصيدته : عهد لعلوة باللوى قد أشكلا » .

هذا كل يحدثنا عنه به ياقوت ، وهو حديث مقتضب لا يعطي فكرة واضحة عنه . وسنرى في قصيدة البحتري الآتية وصفا جميلا له لا يخلو من التفصيل .

فبعد المقدمة الغزلية المعتادة والدعوة الى احتساء الخمر قبل حلول شهر رمضان انتقل الى وصف القصر فذكر انه يقع على مقربة من نهر دجلة ، وان أرضه دائمة الاخضلال حتى لتحسبها من أجل ذلك ممطورة ، كما انه ساطع النور حتى ان العين لتنكص وتكل من ادامة النظر اليه(١) . فهو في اشراقه وسطوعه كالكوكب الدري الذي يزيد ضوءه لمعانا سواد الظلام وحلكته ، وقد ارتفع عن القباب التي رفدت ميامنه ومياسره حتى بدا بالنسبة اليها كالملك العظيم الذي تخضع له الملوك وتنقاد . كما يشير الى ان شيئاً كان في أعلاه يدور مع الريح ليبين اتجاهها وسيرها ، وبعد هذا الوصف الجميل يعرج الشاعر الى الثناء على المعتز صاحب القصر المذكور ، فينتقل انتقالا جميلا حيث يربط بين ما يراه من أعجوبة البناء وبين ما يجده من أعجوبة سماح الخليفة الذي فضل الناس محتدا وتقى وانعاما ، والذي تحكم أناته في بوادره وحدته ، على ان له عزيمة ماضية لا يثنيها شيء اذا ما اعتزم تنفيذ أمر ما ، وقد ورث الرسول (ص) سجيته المرضية وطريقته العادلة ، ومنطقه الفصل ، وان حكمه لتتوالى حين ينظر في المعضلات فاذا به يفضها ويحل عويصها ، ولا غرو فانه ابن الراشدين الهداة الذين كان لهم الفضل الاول في ارساء قواعد الدين الاسلامي وتأثيله ، وانه لسخي معطاء ذو أخلاق رفيعة سامية ، وذو وجه مشرق وضاء متهلل . واذا ما شاء أن ينتسب وينتمي الى الآباء والاجداد كان في الذرى من الحسب والشرف فآباؤه واجدادهم كانوا

---

(١) يبدو ان أغلبية تلك القصور كانت بيضاء اللون ، مما دعا البحتري الى تكرار هذا الوصف في أغلب نعوته لها !

مابين مؤهل للأمر ، او خليفة او رسول •

وبعد هذه النعوت الكثيرة للخليفة ينتقل البحتري الى شيء آخر وهو اعترافه بمكانته من المعتز ، وان بوسعه نيل ما يبتغيه بسهولة ويسر ، ولكنه ما يلبث ان يعقب هذا الاعتراف بالتماس ينوه فيه باعجال رفده الذي وعد به فطال الوعد •

لاحت تباشيرُ الخريف وأعرضت　　قِطَعُ الغيوم ، وشارفت أن تهطلا
فتروَّ من شعبانَ ان وراءه　　شهراً يمانعنا الرحيق السلسلا

* * *

أحسن بدجلةَ منظرا ومخيَّماً　　والغرد في أكناف دجلة منزلا
خضِلُ الفناء متى وطئت ترابَهُ　　قلت : الغمامُ انهلَّ فيه فأسبلا
حشدت له الأمواجُ فضل دوافع　　أعجلنَ دولابيه أن يتمهلا
تبيَضُّ نقبتُهُ ، ويسطع نوره　　حتى تكلَّ العين فيه وتكلا
كالكوكب الدرِّيِّ أخلص ضوءه　　حلكَ الدجى حتى تألق وانجلى
رفدت جوانبه القبابُ ميامنا　　ومياسرا وسفلن عنه واعتلى
فتخالُهُ وتخالهن ازاءه　　ملكا تدينُ له الملوك ممثلا
وعلى أعاليهِ رقيبٌ ما ينثني　　كلفاً بتصريف الرياح موكلا
من حيث دارت دار يطلب وجهها　　فعلَ المقاتل جال ثم استقبلا

* * *

بدَعٌ لبدع في السماحة ما ترى　　من امره الا عجيباً مجذلا
فضل الأنامَ أرومة مذكورة　　وتقىً ، وأنعم في الأنام وأفضلا
تثني بوادرَه الأناةُ ، وربما　　سارت عزيمته فكانت جحفلا
ورث النبيَّ سجيه مرضية　　وطريقةً قصدا ، وقولا فيصلا
فاذا قضى في المشكلات ترادفت　　حكَمٌ تريك الوحي كيف تنزّلا
خرق سمت أخلاقه فترفعت　　وأضاء رونق وجهه فتهللا

فاذا ترفع في المناسب واعتزى لابوة يتلو الأخير الاولا
عدّ النجوم الطالعات مؤهّلا للأمر ، او مستخلفا او مرسلا

* * *

أصحبته أملي ومثل خلاله كرمت فأعطت راغباً ما أملا
ان شئت جاءت نعمة تلقيت منه ، وسهّل مطلب فتسهلا
لم يبق الا أن تهمّ فينقضي ما قد تطاول او تجزّ فتفصلا(١)

والبحتري على الرغم من اعتماده في مدائحه صفات معينة يكررها في كل قصائده ، كان قديرا على التصرف بتلك الصفات متمكنا من التفنن فيها ، ناجحا في اخراجها بأطر جديدة وألوان زاهية • ولعل ما رزق به من قدرة أدبية فائقة ، وطاقة فنية كبيرة كان السبب في نجاحه بذلك !

القصر الكامل :

وهو أحد قصور المعتز العظيمة الذي ابتناه في سامراء • ومن الغريب حقا أن تغفل كتب التاريخ والجغرافية والادب هذا القصر فلا تتحدث عنه او تشير الى ما فيه من عجائب وغرائب أشار اليها الشعراء فيما وصفوه به من شعر ، وكل ما جاء فيها عنه لمحات خاطفة لا ترسم للقارىء صورة واضحة عنه ، من ذلك ما رواه الصولي في كتابه أخبار البحتري قال : « حدثني ابو الغوث قال : حدثني أبي قال : لما بنى المعتز الكامل دخلت عليه فانشدته :

لو كان يعتب هاجر في واصل او يستقاد لمغرم من ذاهل

حتى أتيت على آخرها ، فقال لي : يا وليد ما أنشدتني قط الا أطربتني ولا رأيتك الا سررت للملك ببقائك • فقبلت الارض وقلت : عبدكم الذي اعتقتموه ، وسائلكم الذى اغنيتموه » • ومن ذلك ما أشار به

(١) الديوان ٣/١٦٥١ ـ ١٦٥٤ •

ياقوت عند ترجمته لعلي بن يحيى المنجم قال : « وقلده المعتز القصر الكامل فبناه ووصله عند فراغه منه بخمسة آلاف دينار وأقطعه ضيعة » هذا كل ما حدثتنا عنه المراجع القديمة »[1] .

يستهل البحتري قصيدته هذه التي يصف بها هذا القصر الجميل بالغزل ، ثم ينتقل الى امتداح الخليفة ، فيتمنى له دوام الملك ؛ لان فيه حصحص الهدى وقوي ، وخفي الباطل واضمحل ، وانه ليرعى الدين ويكلأه بعين ساهرة مؤيدة بالصوارم والقنا ، كما انه غزير النوال ، عظيم العطاء ، متهلل الوجه ، طلق المحيا ، لا يسوف بنائله ولا يمطل ، وانه كالمزن التي يشام في ابراقها الخير والبركة ، ومن أجل كل هذا فانه حقيق بأن يفتدى بالانفس من صروف الدهر وغيره ، ثم ينتقل بعد هذا الاطراء الى وصف القصر الكامل فيشير الى انه حين اكتملت عزيمة المعتز ورويته ، أعمل رأيه في تشييد هذا القصر العظيم ، وقد وفق باقدامه على هذا البناء الذي اتخذه محل سكنى ودار اقامة ، ثم يسترسل في وصف هذا القصر الذي يبدو انه كان ضخما هائلا حتى ان الطير المترنم فوقه قد ذعر مما رآه من هول منظره الخطر الانزلاق ، كما كان شاهقاً سامقا ذاهبا في الفضاء ، زاهية عجائب محاسنه المتناظرة ، وقد بدت حيطانه الزجاجية القائمة ـ في لمعانها وبريقها ـ أشبه بلجج البحر المضطربة على حافات السواحل ، كما بدا رخامه المفوّف الملتقي بالمنظر المقابل له أشبه بطرائق السحب المختلفة الالوان ، وقد طليت سقوفه بالذهب الصقيل الذي بدد بسطوعه ولمعانه دياجي الظلام ، ولهذا فالعيون تجول وتتردد نظراتها في هذا البناء ذي الرونق الجميل الملتهب الذرى الانيق الاسفل . ولهذا

---

(١) سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، وانظر : الديوان ١٦٤٦/٣ الهامش حيث زعم الشارح أن ياقوت لم يذكر قصر الكامل هذا .

القصر بستان فينان نضر ، ترفده دجلة بالماء الثر الوفير وقد هزت نسائم الصبا أشجاره فتثنت وتمايلت وهي ما بين مثمرة وغير مثمرة ، ولكل منهما حسنها وجمالها وهي بذلك أشبه بالحسان الجميلات اللائي برزن يتثنين وكن بين متحليات وعاطلات •

ويحدثنا الشاعر ان المعتز نزل هذا القصر الجديد بالسكنى في أول أيام الربيع حيث الورود ، وحيث حلول عيد النيروز ، وبهذا يكون البحتري قد رسم صورة واضحة جميلة لهذا القصر وملحقاته ، ولولا وصفه له لجهلنا أمره جهلا تاما ؛ بعد ان ضنت المراجع الاخرى بالتحدث عنه كما أسلفنا •

وبعد أن يتمنى الشاعر للمعتز أن ينعم بهذا القصر وان يمد له في عمره ، يلتفت الى ابنه عبدالله فيمتدحه ويرجو أن يراه والده المعتز في سن تؤهله للأمور الجسام التي تنتظره ، وانه مايزال صغيرا كالقمر ، وقد وضعت الموالي (الاتراك) في نموه واكتماله آمالها ورجاءها ، وانهم ليأملون فيه الخير والقدرة لما يرونه فيه من مخايل النجابة التي شهدت عليها الشهود وأيدتها الدلائل ، وهو حدث ، بيد ان أمارات الوقار بادية عليه حتى لكأنه أخذها من التجارب الطويلة والمشيب الكامل ،وانه أي الشاعر اختبر خلاله وبلا صفاته فوجدهما صورة لما في والده المعتز ، وقد سأله وطلب منه أشياء آنفا فوجده كريما معطاء ، وهو صورة تحكي صورة والده في خلائقه وشمائله • وينهي القصيدة ملتمساً تعجيل ما وعده به من عطاء ، فيقول :

لو كان يُعتَبُ هاجر في واصل	أو يُستقاد لمغرم من ذاهل
لحرجت من وشل بعيني سافح	وجنفتِ من خبل بقلبي خابل
ليدمْ لنا المعتز ان بملكه	عزّ الهدى ، وخبا ضلال الباطل
مازال يكلأ ديننا ويحوطهُ	بالمشرفية والوشيج الذابل

يتخرق المعروفُ يوم عطائه ... عن جود منخرق اليدين حُلاحل
متهلل طلقٍ اذا وعد الغنى ... بالبشر أتبع بشرَه بالنائل
كالمزن ان سطعت لوامعُ برقه ... أجلت لنا عن ديمة او وابل
تفديك أنفسنا ـ وقلتْ فديةً ... لك ـ من تصرف كَل دهر غائل

* * *

لمّا كملت رويّة وعزيمة ... أعملت رأيَك في ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك موفقاً ... منه لأيمن حلة ومنازل
ذُعِرَ الحمام وقد ترنّمَ فوقه ... من منظر خطرِ المزلّةِ هائل
رُفعتْ لمنخرق الرياح سموكُه ... وزهتْ عجائبَ حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه ... لُججٌ يمجنَ على جنوب سواحل
وكأن تفويفَ الرخام اذا التقى ... تأليفُه بالمنظر المتقابل
حبكُ الغمام رصفن بين منمّرٍ ... ومسير ، ومقارب ومشاكل
لبستْ من الذهب الأصيل سقوفُه ... نورا يضيءُ على الظلام الحافل
فترى العيون يجلْن في ذي رَوْنق ... متلهّب العالي أنيق السافل
فكأنما نشرتْ على بستانه ... سيراءُ وشي اليُمنة المتواصل
أغنته دجلة اذ تلاحقَ فيضُها ... عن فيض منسجم السحاب الهاطل
وتنفست فيه الصبّا ، فتعطفت ... أشجاره من حُفّل وحوامل
مشيَ العذارى الغيد رُحن عشية ... من بين حالية اليدين وعاطل
والخير يجمع والنشاطُ لمجلس ... قَمنَ المحل من السماحة آهل
وافيتَه والوردُ في وقت معا ... ونزلت فيه مع الربيع النازل
وغدا بنيروز عليك مبارك ... تحويلُ عام اثرَ عام حائل
ملّيته وعمرت في بُحبوحة ... من دار ملكك ألف حول كامل

* * *

ورأيتَ عبدالله في السن التي
تعِدُ الكثير بدهرها المتطاول
قمرٌ تؤمّله الموالي للتي
يقضي بها المأمولُ حق الآمل

يرجون منه نجابةً شهدتْ بها
فيه عدول شواهد ودلائل
ومذاهبٌ في المكرمات بمثلها
يتبين المفضول سبْقَ الفاضل

حدثٌ يوقّره الحجى ، فكأنه
أخذ الوقار من المشيب الشامل
ولقد بلوتُ خلاله فوجدته
مُعطى خلال من لديك جلائل

وسألته لي آنفاً فوجدته
أندى أسرّة راحة وأنامل
يحكيك في كَرَم الفعال خلائقا
بخلائق ، وشمائلا بشمائل

* * *

قدمتَ في عنايةً مشكورة
كانت لديه ذرائعي ووسائلي
وأرى ضمانك للوفاء ووعدَهُ
لا يرضيان سوى النجاح العاجل[1]

« وغير خاف ما في وصف البحتري لهذا القصر : من لطف الخيال وروعة التشبيه ، وبراعة التصوير ، وجمال الفن ، وموسيقى الالفاظ ، وبخاصة وصفه لحيطان القصر ورخامه ، وهي خصائص اشتهر بها شاعرنا البحتري في أوصافه لقصور هذه المدينة ومعالمها الأخرى . بل ان مكنة الشاعر الفنية في الوصف جعلتنا نستسيغ حتى المبالغة التي يجنح اليها أحيانا والتي يمليها الخيال عادة .

والبحتري في هذه القصيدة قد التزم بوحدة الوصف ، ولم يطعمه بشيء من المديح كما فعل في غير هذا المكان . كما انه لم يكتف بالوصف الظاهري للقصر ، وانما حاول أن يصور ما كان في داخله أيضا »[2] .

---

(١) الديوان ٣/١٦٤٦ ـ ١٦٥٠ .
(٢) سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٥ .

وعلى الرغم من جنوح البحتري ـ في مدائحه لابن المعتز ـ الى المبالغة والتهويل فانه كان في هذه القصيدة أيضا أكثر اعتدالا وأقرب قبولا في سواها !

اغراء المعتز بتولية ابنه العهد :

لم يكتف البحتري بتسجيل الحوادث السياسية والأعمال العمرانية التي تحدث في عهود الخلفاء الذين كان يعيش في أكنافهم ، ويتردد على قصورهم ، بل كان أحياناً يشير عليهم ان يولوا أولادهم ولاية العهد ، كما فعل في هذه القصيدة التي امتدح بها المعتز وأغراه وحثه على تولية ابنه عبدالله العهد •

فهو بعد المقدمة المعتادة انتقل الى ابن المعتز فأشار الى تاهب العيس الدياجي قاصدة به ابن أمير المؤمنين ذا الانعام والمعروف ، والذي اذا ما قورن بأبناء الأمجاد كان سيدا وكانوا له عبيدا ، ولاحت عليه من أبيه الوسيم بهجة لو سرى بها الركب في سواد الظلام لانير واهتدى ، واذا ما اعتزى وانتسب كان في الذروة رفعة ومنزلة ومحتداً • انه يرجع في نسبه الى الخلفاء الذين انتهجوا سنة معروفة تنافسوا في اتباعها وحمل أثقالها •

وشدد البحتري في نعت عبدالله بالجمال والصباحة ، فهو يروق بطلعته الجميلة العيون الناظرة اليه ، حتى لو قورن بالبدر لفاقه حسنا وجمالا ، وأشرنا أكثر من مرة الى ان ابن المعتز هذا كان شديد السمرة ، ولكن الشاعر يأبى الا أن يسمه بالحسن والجمال •

ومضى البحتري يكرر الاوصاف التي سبق له أن أسبغها على عبدالله في قصائد أخرى فقال : ان موقعه من قلوب الاولياء والانصار عظيم ، بل ان الاعداء لتحذره وتخشاه وتجد فيه ما يعدل جنودا مجندة • ولفت نظر والده المعتز الى ما فيه من جلالة وأبهة بدتا عليه اذا ما ظهر ، وانه ما فتىء

يطلع في كل يوم بخليقة مهذبة ومقدرة فائقة ، يسعى الى الغايات البعيدة والمطالب العظيمة لا يني ولا يوهن بل يلح ويتزيد .

واقترح البحتري الى تأمير المعتز له كما أشار الى ضرب الدنانير باسمه وتقليده بعض الأعمال ، ولكن البحتري لا يكتفي بما عمله المعتز لابنه فأشار عليه ان يجعله ثانية في السلطة ، وذلك بأن يعهد اليه بولاية العهد من بعده ، واستطرد يلح في طلبه هذا فقال للمعتز : ان مثله لا يفوته أن يحوط المسلمين بأمثال عبدالله فهو لا يهمل رعيته عنه ولا يتركهم سدى بدونه ! وان كان الشاعر يرجو له الخلود ودوام البقاء ، ومع كل هذا فينبغي اشهار فضله ، واظهار نباهته ، فهيبة السيف وبهاؤه تظهران في حالة امتشاقه أكثر مما تبدوان في حالة اغماده .

وبعد ان دعا للمعتز بالبقاء ، ولعبدالله بدوام العيش في حياة أبيه السرمدية انتقل الى ذكر بعض الخارجين على الخلافة العباسية وهو مساور ابن عبدالحميد الشاري الذي خرج بديار ربيعة في ناحية الموصل سنة ٢٥٢هـ واشتدت شوكته واستفحل أمره فهزم جيوش الخلافة وقتل بعض القواد .

ويبدو انه أخذ يتقدم نحو العاصمة العباسية سامراء في عهد المعتز حتى نزل المحمدية (ثلاثة فراسخ من قصور الخليفة) فدخل القصر وجلس على الفراش ودخل الحمام كما يقول اليعقوبي[(١)] .

وفي عهد المهتدي استشرى خطره ، وعظم أمره بما قام به من قتل واحراق فنادى الخليفة في مجلسه بالنفير ، وارسل لمقاتلته عددا من قواده

---

(١) انظر : تاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٢ ، وتاريخ الطبري ٩/٣٧٤ ـ ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ والديوان ٢/٦٧٣ هامش ٣١ .

الاتراك ، وبقي الشاري يقاتل جيوش الخلافة حتى مات في سنة ٢٦٣هـ[١] ٠

فالبحتري أشار الى ان عصبة من جيش الخلافة واثبت الشاري هذا وأثخنته وأصحابه جراحا ففر شريدا في أعالي الجبال بعد ان سدت عليه مسالك السهول ومنافذها ، كما أشار الى ان أصحابه من الاعراب وغيرهم وهم الذين أطلق عليهم (العلوج) كانوا يأملون فيه الآمال العريضة ، كما كانوا يسمونه باسم الخليفة ٠

غير ان البحتري ـ وهو شاعر البلاط ـ والممثل لوجهة نظر الخليفة ـ هزأ بهذا الشاري فوصمه برعي الضأن منذ حداثته حتى مشيبه ، ولا ندري على الحقيقة مصداق ما يدعيه البحتري في هذا الشأن ٠ واستفهم الشاعر عن تمادي الشاري في عيه وعدم اصياعه لامر الخليفة الذي عرف بانتصاره الدائم على أعدائه ، ومضى يستهزىء أيضا قائلا : لو ان الشاري لجأ الى الأيام يستشيرها قبل اعلانه العصيان لنهين ابن أم الكلب أن يستأسد ٠ وأنهى القصيدة آملاً أن تكون عقبى هذا الشاري القتل أو الأسر على أيدي الموالي ٠

وواضح ان هناك تناقضا كبيرا بين ما يصفه البحتري في قصيدته هذه وبين ما تذكره المصادر التاريخية في هذا الصدد ٠

فالبحتري عكس صورة الظفر والنصر لجيوش الخليفة على مساور هذا ، في حين ان المراجع التاريخية ذكرت تقهقر هذه الجيوش واندحارها أمام الشاري ٠ وأغلب الظن ان ما ذكره البحتري لا يخلو من المغالطة ، وتصوير الأمر على عكس ما كان عليه ؟

الى ابن أمـير المؤمنين تـناهبتْ ... بنا العيسُ ديجورا من الليل أسودا
الى منعم لا الجودُ عنه بعـازب ... بطيءٍ ، ولا المعروف منـه بأنكدا

---

(١) انظر الطبري ٩/٤٥٢ ٠

رأينا بني الأمجاد في كلّ معشر فكانوا لعبد الله في المجد أعبدا
عليـه من المعتز بالله بهجـة أضاءت فلو يسرى بها الركب لاهتدى

اذا ما انتمى ناصر المجرة واعتزى الى أنجم مازلنَ للملك أسعدا
الى خلفـاء سنّة قد تنافسـوا لتنقلَ في أعناقهم وترددا

يروق العيونَ الناظرات بطلعة من الحسن لو وافى بها البدرَ باعدا
له في قلوب الأوليـاء محبـة تعدُّ بها الأعداء جندا مجندا

تأملْ أمين الله فرطَ جلالـة وأبهة تبدو عليه اذا بـدا
اذا أعجبتك اليوم منه خليقة مهذبة أعطاك أمثالها غـدا

طلوب لأقصى غاية بعد غـاية اذا قلتَ يوماً قد تناهى تزيّدا

* * *

سـررنا بأن أمّرتَه ونصبته لنا علماً نأوى الى ظله غدا
وأبهجنا ضربُ الدنانير باسمه وتقليده من أمرنا ما تقلدا

ولم لا يرى ثانيك في السلطة التى خُصصت بها، ثانيك في الجود والندى
حقيق بأن ترمي به الجانبَ الذي يهمُّ، وان تفضي اليه وتعهـدا

ومثلُك حاط المسلمين بمثلـه سَداداً، ولم يهمل رعيته سدى
أبنْ فضله واشهرْ نباهة قدره وأبق له في الناس ذكرا مجددا

فللسيفُ مسلولا أشد مهابةَ وأظهر افرندا من السيف مغمدا
بقيت ترجيـه وعاش مؤمّلا يراعي اتصالا من حياتك سرمدا

* * *

لقد ساورت خيلَ المساور عصبة أفاءت عليه الطعن غضا مجددا
حموه سهولَ الارض من كل جانب فظلّ شريدا في الجبال مطردا
علوج وأعراب يرجّون خائنـا أضاع الحجى حتى طغى وتمردا

يسمونه باسم الخليفة بعدما رعى الضأنَ فيهم ذا مشيب وأمردا
فلم لم ترعْهُ الوازعات ويجتنبْ عداوة منصور اليدين على العدى

ولو شاورَ الأيام قبل خروجه نهين ابنَ ام الكلب أن يتوردا
كأن به اما قتيلا مضرّجا بأيدي الموالي او أسيراً مقيداً[1]

عمل أمّ المعتز :

لم يقتصر البحتري ـ شاعر البلاط ـ على تسجيل أعمال الخلفاء حسب ، بل جاوز ذلك الى تسجيل أعمال أمهاتهم وزوجاتهم •

وفي هذه القصيدة يحدثنا عما قامت به قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز من اطعام الحجيج واسقائهم •

فبعد التمهيد الغزلي الذي ينهيه بالتساؤل عن اتخاذه العراق هوى وداراً في حين ان من يهواه يقيم في أرض الشام ، ينتقل الى المدح فيعلل سبب بقائه في العراق الذي يرجع الى وجود الملك المرجّى وهو المعتز ، فلولاه لآثر المسير وفضله على المقام ، فهو لا يسعه القيام بذلك لارتباطه بنعمى وليه الخليفة •

ويمضي يمتدح المعتز ويشيد به وبدولته التي يراها أقرب الى الحسنى ، وأشبه بالدوام والاستمرار •

ويبدو ان البحتري أخذ يوجس خيفة من نهاية عهد المعتز فأخذ يشدد في معاضدته وتأييده والاشادة بخلاله ومزاياه وما الى ذلك ، فهذا الخليفة هو الراعي ورعيته هي السوام ، وان خلاله لتدل على كرمه وفضله وان جوده ليضاهي في غزارته وفيضه الغيث المدرار ، ووجهه ـ في حسنه وجماله ـ البدر التمام •

---

(١) الديوان ٢/٦٧٠ ـ ٦٧٣ ، واخبار البحتري ص ١٠٧ •

والبحتري الـذي ما ينفك يهتبل الفرص الملائمة للاشادة بالموالي (الاتراك) الذين كانوا القوة الضاربة في الدولة ، يحدثنا في هذه القصيدة ايضا عن اولئك الموالي الذين يرى فيهم ضمان انتصار الخليفة على أعدائه ، كما يراهم الذائدين عن الخلافة ، الحامين ذمارها ، وقد اكتنفت الخليفة منهم أناس ذوو آراء حصيفة وهمم عظيمة ، وهؤلاء الموالي أبطال فـي الحروب ، شديدو البأس في الملمات ، تعودوا دحر الاعادي واهتضامهم ، وشجاعتهم ليست وقفاً على شبابهم بل تشمل كهولهم ايضا ، وانهم ذوو عدد عديد في قعودهم وفي قيامهم •

والغريب في أمر البحتري انه بقي يثني على اولئك الموالي كما أسلفنا الى آخر أيام المعتز الذي لقي على أيديهم مالم يلقه خليفة قبله من الامتهان والتعذيب والقتل ••• ولا نعلم على وجــه الصواب الدوافـع الحقيقية لاستمرار البحتري على هذا الثناء ، بعد ان ظهرت من الموالي أمور تدعو الى الريبة والشك في اخلاصهم للخليفة والخلافة ، ولعل خوف الشاعر من فتك اولئك الموالي به ان حاول مهاجمتهم والتعريض بهم – كان من بين تلك الاسباب التي دفعته الى تملقهم والتقرب منهم ، ولعـل هذا هـو السبب نفسه في احجام الشاعر عن رثاء وليّ نعمته بعد مقتله على أيدي اولئك الموالي •

وبعد أن أثنى البحتري على الموالي وبطولاتهم ، يعود كرّة أخرى الى استئناف مدحه للمعتز الذي يتحلى بالرأي الأصيل والعزم الماضي ، والذي اذا نظر اليه خلسة رؤي ملياً لما عهد اليه من أمور الخلافة والملأ ، وانه لغفور عفوّ عن الجانين وان لم يكن ذلك عن ضعف منه ووهن •

وبعد هذا ينتقل الى التحدث عن أمّ المعتز ، ولا ينسى أن يذكر بكرم ابي المعتز وهو المتوكل الذي عاش البحتري في كنفه وبلاطه منعمـاً مرفها ، فهذه أمه سقت الحجيج وأطعمتهم بعد أن أوشكوا على الهلاك ، فأحيت

بعملها هذا ساكني البلد الحرام ، وانتشلتهم من وهدة المسغبة ، وردت اليهم نفوسهم وبانَ فضل عملها هذا بما رددته السنة الوفود القافلة من الحج ، والمنتشرة في أقطار الارض من الثناء والشكر لسيدة الأنام وأم الامام .

ثم ينهى قصيدته بالثناء على أخي الخليفة اسماعيل وابنه عبدالله اللذين لم ير مثلهما تقرّبا من المدح وابتعادا من القدح ، فهما في جمالهما كالنجمين ، وفي وقارهما كالطود ، وانهما قمران عزما على التمام لينفيا عن الناس الظلم ، وعن الارض الظلام ، وهما في كرمهما وجودهما كالسيل المتدفق ومن أجل كل هذا فهو يرجو لهما جميعا تمام النعمى ، وبقاء الحياة :

أأتخذ العراقَ هوى وداراً ... ومن أهواه في أرض الشآم ؟
فلولا غرّةُ الملك المرجّى ... لآثرت المسير على المقام

وكيف يسير مرتبطٌ بنعمى ... تولّته من الملك الهمام
وجدنا دولةَ المعتز أدنى ... الى الحسنى وأشبهَ بالدوام

هو الراعي ونحن له سوامٌ ... ولم أرَ مثله راعي سوام
تبينُ خلالُه كرما وفضلا ... فيشرف في الفعال وفي الكلام
يضاهي جودُه نوءَ الثريا ... ويحكى وجهه بدر التمام

* * *

أمينَ الله عشت لنا مليّاً ... بجمع للمحاسن وانتظام
ضمنت ردى عدوك ، والموالي ... تدافعُ دون ملكك أو تحامي

يحفُّ خليفةَ الرحمن منهم ... ذوو الآراء والهمم العظام
اسود أطعمتْ ظفرا فعادت ... بقسْر للأعادي واهتضام

كماةٌ من كهول او شباب ... وفَوضى من قعود او قيام
أمامُ مُحاذر السطوات يأوى ... الى رأى أصيل واعتزام
اذا استعرضته بخفيٍّ لحظٍ ... رضيت مهزة السيف الحسام

أبوه البحـــرُ ساح لنا نداه ففاضَ ، وأمه ماءُ الغمـــام
سقتْ هلكى الحجيج وأطعمتهمْ وأحيت ساكني البلد الحرام

ووردتْ من نفوسهم اليهــم وقد أشفَوْا على تلف الحَمام
وقد رجعت وفودُ الارض تثني بذاك الطَّوْل والمنن الجسام

لئن شكر الأنامُ لقد أغيثوا هناك بفضــل سيِّدة الأنــام
اذا كفل الامامُ لهم بنعمى تولتْ مثلهـــا أمُ الامــام

* * *

ولم تر مثل اسماعيلَ عيني وعبدالله ذى الشـيم الـكرام
أشدَّ تقربا من كـل حمــد وأبعــدَ منزلا من كـل ذام

تقولُ الفرقــدان ، اذا أضــاءا فان وزنا تقول : ابنا شمام
همـــا قمران همَّا أن يتمـــا لنفي الظلم ـ أجمعَ ـ والظــلام

وســيلا واديين إذا استفيضـا حمدتَ تدفــق الغيم الركام
أنــمَّ لله نعمــاكم فــاني رأيتكم النهايةَ في التمــام(١)

مرض البحتري :

للبحتري في المعتز قصيدة تختلف عن قصائده السابقة ؛ في كونها غير مصرَّعة المطلع ، كما انها تختتم بأربعة أبيات من قصيدة له في المتوكل ، ولعل تشابه القصيدتين في الوزن والروى من أسباب اقحام الأبيات الاربعة في أعقاب هذه القصيدة .

والقصيدة أنشئت ـ كما تقول المقدمة التي وضعت لها غبَّ انقطاع الشاعر عن الخليفة لعلة لحقته ، وقد أشار البحتري الى هذه العلة في البيت الاول والسادس ، فهو يقول : ان ابتعاده وتخليه عن رؤية جمال وجـه

(١) الديوان ٣/١٩٣٢ ـ ١٩٣٥ .

الخليفة أمرّ من علله وأشد من أوصابه التي يلاقيها، وانه ليتبرم بشهري رجب وتموز ، في حين يمتدح العيش في شهري آب وشعبان ، حيث انطلقت رياح الشمال من عقالها ، وقرب الخريف مبشرا بأمطاره وقطره ، ويستفهم البحتري عن انصراف المدامة عنه بعد ان طال وصالها له • ويعلل ذلك بلياذها بحر القيظ وتعوّدها بدنوّ شهر رمضان،ويقسم انه ان سلم مما به ليروى أصحابه من الخمور المعتقة المصونة ، حتى ليرى في كل ليلة مظلمة متأرجحا بين الصحة والسكر، ثم ينثني البحتري بعد هذا يثني على المعتز الذي يرى فيه مجيرا له من ريب الزمان وكوارثه، فقد اجتبي ليكون خليفة للمؤمنين وارتضي ليحوط الايمان والدين ، وان العفو الذي هو أفضل خلائق الانسان سجية من سجاياه ، وقد جهد أن يشمل رعيته بالعدل ويسبغ عليها آلاءه ونعمه ، ولهذا فقد أجمعت قلوبهم على مبايعته والاخلاص له ، حتى ليمكن أن تذكر تلك البيعة ببيعة المسلمين للرسول (ص) تحت شجرة سمرة ، عندما قصد الرسول مكة لزيارتها في العام السادس من الهجرة •

وأمرُّ من عللي تخلّي ناظري ... عن حسن وجه خليفة الرحمان
البرحُ من رجب ومن تموزه ... والعيشُ في آب وفي شعبان

في حيثُ أطلقت الشمالُ عقالَها ... ودنا الخريف بقطره المتداني
ما للمدامة بعد طول وصالها ... صدّتْ صدودَ مجانب غضبان

لاذت بحرِّ القيظ فامتنعتْ به ... وتعوّذت بالقرب من رمضان
فلئن سلمتُ لأروينَّ صحابتي ... من كل بكر في الدنان حصان

حتى أراني كلَّ مظلم ليلة ... بين الصحيح العزَم والنشوان
للشهر ان تدع الملاهي كلَّها ... فيه وان كرمُتْ على الندمان

الله للمعتز جارٌ ، انه ... جارٌ لنا من ريب كل زمان
المصطفى للمؤمنين خليفةً ... والمرتضى لحياطة الايمان

ملك نعدُ العفوَ منه خليقة — والعفو خير خلائـق الانسان
أعطى الرعيةَ سؤلَها من عدله — في السر مجتهدا وفـي الاعـلان
وأنالَها من سيبه ونوالــه — أفضال لا مُكْدٍ ولا منـان
جمعت قلوبُهُم اليه ببيعـة — كانت شبيهة بيعـة الرضوان
أثني بأنعمه التي هو أهلهـا — ودِراك جـدواه الذي أولاني[1]

وبانتهاء هذه القصيدة نأتي على آخر ما أنشأه البحتري في المعتز خلال الحقبة التي واكبه فيها ، فكان شاعره المقرب الذي منحه من عطفه ونعمه الشيء الكثير وما كان أجدر بالبحتري واخلق لو خلد مصرع هذا الخليفة الفتيّ – كما خلد مصرع أبيه من قبل – الذي لقي ما لم يلقه خليفة قبله من الاهانة والتنكيل على أيدي الموالي الذين أشاد بهم الشاعر وأطنب في الثناء عليهم ، بيد انه – لأمر ما – لم يفعل ذلك ، فكان احجامه منفذاً تسدد منه اليه سهام النقد والتجريح ، وتصوّب نصال الاتهام وقلة الوفاء ونكران الجميل •

البحتري ووصيف :

المعروف عن البحتري انه من مؤيدي الموالي والمشيدين بهم ، وفي شعره كثير من الثناء عليهم والاطراء لهم ، وكان من امرائهـم وشيوخهم – كما يقول البحتري – القائد وصيف الذي خدم المعتصم ومن جاء بعـده من الخلفاء حتى قتل على أيدي الموالي أنفسهم سنة **٢٥٣**هـ في عهد المعتز •

وقد مرّ بنا في الفصل الثاني وفي هذا الفصل شيء عن هذا القائد ، وعما قام به من أعمال في عهد المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز • ويبدو ان تغيّره على الخلافة بدأ منذ ان حاول المتوكل مصادرة ضياعه سنة **٢٤٧**هـ واقطاعها صديقه الفتح بن خاقان[2] :

---

(١) الديوان ٤/٢٢٢٥ – ٢٢٢٧ •
(٢) الطبري ٩/٢٢٢ •

لقد لعب وصيف دورا كبيرا في اغتيال المتوكل وفي الهيمنة على المستعين ولكنه أبعد في عهد المنتصر الى الثغور بحجة الغزو ، ثم أمر بالبقاء الى ان يبعث في طلبه ، غير ان معاجلة الموت المنتصر قد قضت على ما كان رسمه له من النفي والابعاد • فلما جاء المستعين وكان لوصيف يد طولى في استخلافه خضع لمشيئته ومشيئة بغا الصغير ، ثم هربا معه منحدرين الى بغداد بعد الفتك بقاتل المتوكل وهيجان الاتراك في سامراء صدهم • ولما آلت الخلافة الى المعتز كتب في اسقاط اسم وصيف وبغا من الدواوين ، ولكنه ما لبث ان تراجع عن ذلك تحت ضغط الاتراك وقادتهم ، وأعلن رضاه عنهما واعادة ما كان لهما من ضياع وأموال •

وفي سنة ٢٥٣هـ شغب الاتراك بكرخ سامراء مطالبين بدفع أرزاقهم فخرج اليهم وصيف ليسكنهم ويهدىء من ثورتهم ، ولكنه فشل في ذلك فتناولوه بالضرب والطعن حتى قتل[١] •

وللبحتري في وصيف هذا قصيدتان ومقطعة •

أسير بأرض الشام :

ولعل أول ما أنشأه البحتري في وصيف هذه المقطوعة التي تعود الى سنة ٢٤٨هـ وهي السنة التي أبعد فيها المنتصر وصيفا هذا بحجة مقاتلة الروم ، ويظهر ان لأحمد بن الخصيب وزير المنتصر يداً في هذا الابعاد ، لما بينه وبين وصيف من الشحناء والبغضاء[٢] •

والبحتري في هذه الأبيات يتوجع لهذا القائد التركي الذي يعد ابعاده الى الشام نوعا من الأسر وعدم الوفاء ، بل ويغمز المنتصر ويلمح الى انه سامه الردى ولم يكن معه متئد البقيا ، ولاليّن القلب ، ويشير بشيء من

(١) انظر : ص٥٣ من هذا البحث •
(٢) الطبري ٩/٢٤٠ •

الغموض الى ما اتهم به هذا القائـد ، ويجهد أن يدرأ عنه كل شبهة ، بل ويقف موقف الذائد عنه واللائم للمنتصر الذي جاوز الحد في العتاب •

وهكذا يقف البحتري من وصيف الذي كان أحد الرؤوس المدبرّة لاغتيال وليّ نعمته المتوكل فيقول :

ذكـرتُ وصـيفاً ذكرةَ الهائم الصَّبِّ
فأجريت سكبا من دموعي على سكب

أسيرٌ بأرض الشام ما حفظوا لـه
ذمامَ الهـوى فيه ولا حرمة الحب

وما كان مولاه وقـد سامَهُ الردى
بمتئد البُقـيا ولالـيّن القلـب

وقالوا : أتى من جانب الغرب مُقبلاً
وما خلتُ أن البدر يأتي من الغرب

وماذنبُ مقصور اليدين عـن الأذى
رقيق الحواشي عن مقارفة الذنـب

عـلى خوف أعداء ورقبـةِ كاشـح
وعَتْبِ مليك جـاوز الحد في العتب

أصـادقتي فيـك المنـى ومُديلتي
صروفُ الليالي من شفيع ومن قرب

متى تذهب الدنيا ولم أشفَ منهمـا
فلا أربي منهـا قضيتُ ولا نحبي (١)

---

(١) الديوان ١/١٣٩ ـ ١٤٠ •

حاجة شريفة :

وهذه مدحة أخرى له في وصيف أنشأها على ما يبدو بعد المقطوعة السابقة بسنوات ، وقد افتتحها على مألوف عادته بالغزل ، ثم أخذ في اطراء الممدوح والثناء عليه ونعته بالكرم والجود ، وبانه سبب غناه والمعلي مكانه ، والصانع الصنائع في الرجال ، والمضطلع بصروف الدهر ، وانه خير كاف له اذا ما ألمت به ملمة او دهمه خطب . وبعد ان استطرد في اسباغ النعوت عليه أعلن عن حاجة شريفة له عنده يأمل انجازها ، ويرجو تحقيقها ، لاسيما وقد نال منه مثلها سابقاً :

فلتعـزفَنَّ عـن البطـالة همّتي
ولیقصرن عـلى الديـار وقـوفي

ولأشـكرَنَّ أبـا عليّ ان مـن
جـدوى يديـه تالـدى وطريفـي[١]

أعـلى مكاني طَوْلـهُ فـأحلّـني
في بـاذخ عنـد السّـماك منيف

صنـع الصنائعَ في الرجـال ولم يكن
كملعّنٍ في البحـث والتكشـيف

وكفى صروفَ الدهـر مضطلعـا بهـا
والدهر تِرْب حـوادث وصـروف

---

(١) يبدو انه كان لوصيف عدد كثير من الاولاد وقد جاء في تاريخ الطبري منهم :

صالح وأحمد وعبدالله ونصر ، وعبيدالله ، وكان هؤلاء قد أرسلوا للاشتراك في مؤامرة اغتيال المتوكل ، ولعل أشهر أولاده صالح الذي لعب دورا كبيرا في خلع المعتز وقتله والاستيلاء على أموال أمه قبيحة .

فمتى خشيت من الزمان مُلِمّـــةً
لاقيتُهــــا فدفعتهــــا بوصــيف

بالأبيض الوضــــاح حين تنوبـــه
حاجاتُنــا ، والازهــر الغطــريف

خِرْقٌ من الفتيــان بــان مبرّزا
بكمالــه وفعــاله الموصــوف

* * *

اني لجـأت الى ذَراك مخيِّمـــا
فيــه ، وعذت بظلـك المألـوف

ما موضعــي بمذمّم عنــدي ولا
سَببي ، وقــد أكــدته ، بضـعيف

لي حاجــة شرفتْ وليــس ببــالغ
فيهــا الذي أملتُ غــير شــريف

وقــد ابتــدأتَ بمثلهــا لامائلاً
فيها الى مطل ولا تســويف[1]

شـيخ الموالي :

ويبدو ان آخر ما أنشأه البحتري في وصيف هذه الحائية التي رثاه فيها بعد أن قتله الموالي سنة **٢٥٣هـ** ونصبوا رأسه على محراك تنور •

والبحتري يأسف على القتيل وما آل اليه أمره ، فكان لمصابه ألم طاغ وأسى مبرح ، وان الموت قد طوى به الحزم والعزم ، ونعته بشيخ الموالي الذي حل منزلا قريبا بعيدا ، وانه لو كان يعلم ما سيصيبه ويحل به

---

(١) الديوان ٣/١٤٠٣ ـ ١٤٠٥ •

للجأ الى من يدرأ عنه عادية الأعداء ، ويذود عنه مداهمة الخصوم وانه لضلال في الرأي ، وخطل في التقدير أن يقضى عليه ويتأخر عن نصرته ، وكان الاولى والأجدر ان يعد بأسه ويدخر انتقامه للعدو للدود المناطح • فقتله عمّ المسلمين مصابه وخص قريش الأباطح ، وكان صيرا للخلافة ، وناصحا للخليفة ، كما كان مقوما للأمور الملتوية ومدبرا للحروب اللوافح ، ولهذا فهو يدعو لجدثه أن يسقى بشآبيب الغيوث الغاديات الرائحات •

وبعد هذا التقريظ للمرثي يلتفت الشاعر الى الخليفة المعتز فيعزيه بهذا الحدث الملم الفادح ، الذي أقيمت عليه المناحات والمآتم ، وانطلقت القوافي في رثائه وامتداحه •

وينهي المرثية بالاشادة في خلفه وابنه صالح الذي نعته بالوقار والحلم وبتوجيه المعتز له الى الشام ، وبأنه سيسير على نهج واضح ، وهو مرضيّ ، ويكون عونا للخليفة ونصيرا :

أفي مستهلات الدموع السوافح
اذا جذ ْنَ برءٌ من جوىً في الجوانح ؟

لعمري لقد بقّى وصيف بهلكه
عقابيل سقمٍ للقلوب الصحائح

أسى مبرْح بزَّ العيون دموعها
لثوى مقيم في الثرى غير بارح

فيالكَ من حزم وعزم طواهما
جديدُ الردى تحت الصفا والصفائح

أساءك من شيخ الموالي نزوله
بمنزل داني موضع الدار نازح

* * *

فيالضـلال الـــرأي كيـفَ أراده
أحباؤه بالمُعضــلات الجـــوائح

تغيّبَ أهـلُ النصر عنـــه وأحضرت
ســفاهة مضعوف وتكثير كاشـــح

فالانهــاهــم عـــن توزّد نفســه
تقلــبُ غـاد في رضــاهم ورائـح

والا أعــدوا بأســـه وانتقـامَه
لـكبشِ العـــدو المستميت المنــاطح

قتيلٌ يعـم المســلمين مصــابـه
وان خصَّ من قـرب قريش الأباطح

تولّى بعــزم للخــلافـة ناصــر
كلوءٍ ، وصـــدر للخليفة ناصح(١)

وكــان لتقويم الامــور اذا التوتْ
عليه ، وتدبـير الحـروب اللواقـح

اذا ما جروا في حلبة الرأي برزتْ
تجاريبُ معروف لـه السبق قـارح

* * *

سقى عهــدَه في كل ممسى ومصبح
دراكُ الغيـوم الغاديــات الروائـح

تعـــزَّ أميرَ المؤمنـين فانهـــا
ملمــاتُ أحـــداث الزمـــان الفوادح

---

(١) لم يعرف عن وصيف نصر الخلافة ، أو نصح الخليفة في غضون حكم المعتز .

لئن علقت مولاك صبحاً فبعدما
أقامت على الأقوام حسرى النوائح

* * *

مضى غير مذموم فأصبح ذكره
حُلىً القوافي بين راثٍ ومادح[1]

فلم أر مفقوداً له مثل رزئه
ولا خَلَفاً من مثله مثلَ صالح

وقور تعانيه الأمورُ فتنجلي
غيابتُها عن وازن الحلم راجح

اذا اختلفت سبْل الرجال وجدته
مقيماً على نهج من القول واضح[2]

سيُرضيك هدياً في الامور وسيرةً
ويكفيك شغب الأبلخ المتجانح[3]

---

(١) لا نعلم أن أحداً رثى وصيفا غير البحتري ، وقد ذكر الطبري (٩/٤٥٥) عدة أبيات للشاعر السلولي في هجاء بغا ووصيف وابنه صالح الذي قتله موسى بن بغا جاء فيها :

ونلت وترك من فرعون حين طغى — وجئت اذ جئت يا موسى على قدر
ثلاثة كلهم باغ أخو حسد — يرميك بالظلم والعدوان عن وتر
وصيف بالكرخ ممثول به وبغا — بالجسر محترق بالجمر والشرر
وصالح بن وصيف بعد منعفر — في الحير جيفته والروح في سقر

(٢) ان نبوءة الشاعر لم تنجح ، فقد كان صالح هذا من أشد اعداء المعتز وكانت اهانة الخليفة وقتله ومصادرة أموال امه على يده ويد اتباعه من الاتراك •

(٣) الديوان ١/٤٤٧ ـ ٤٤٩ • الابلخ : المتكبر •

الفصل الرابع
البحترى والمهتدى

المهتدي :

حين انتهت حياة المعتز على الطريقة التي أسلفنا ذكرها ، تلفت قادة الاتراك المهيمنون على شؤون الدولة الى من يرشحون للخلافة ، فوقع اختيارهم على محمد بن الواثق الذي لقب بعد استخلافه بالمهتدي • وكان منفياً في بغداد من قبل المعتز ، فجيء به الى سامراء[١] ، وبويع بالخلافة يوم الاربعاء لليلة من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين بعد أن أقر المعتز بتنحيه عن الخلافة واعترافه بعدم صلاحه لها[٢] •

ولد المهتدي على الأغلب في سنة **٢١٨**هـ في خلافة جده المعتصم ، ويكنى بأبي عبدالله وأبي اسحاق ، وأمه أم ولد روميه اسمها قرب[٣] •

« وكان رحب الجبهة ، أجلح ، جهم الوجه ، أشهل ، عظيم البطن ، عريض المنكبين ، قصيرا ، طويل اللحية »[٤] • كما كان فصيحا شجاعا فطنا ، وعادلاً تقيا ، وزاهدا ورعا[٥] •

---

(١) جاء في فوات الوفيات ٢/٣٧٤ « ثم أحضروا محمد بن الواثق (من) سامراء فسلم عليه المعتز بالخلافة وبايعه » • وواضح ان احضار المهتدي كان من بغداد لا من سامراء ؛ لان المعتز كان في سامراء آنذاك •

(٢) انظر : الطبري ٩/٣٩١ ، حيث ذكر كتاب خلع المعتز نفسه من الخلافة •

(٣) انظر : الطبري ٩/٣٩١ ، مروج الذهب ٤/٩٦ ، الكامل في التاريخ ٧/١٩٨ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦١ حيث جاء فيه ان اسم امه « وردة » •

(٤) الطبري ٩/٤٦٩ ، وانظر : فوات الوفيات ٢/٥٣٥ حيث جاء انه « كان اسمر رقيقا ، مليح الوجه » • وانظر : تاريخ الخلفاء ص ٣٦١ حيث نقل ما ذكره صاحب الفوات •

(٥) فوات الوفيات ٢/٥٣٥ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦١ ، المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٥٣٩ ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٤٦ •

وقد وقعت عند استخلافه ومبايعته في سامراء فتنة وشغب في بغداد بين سليمان بن عبدالله بن طاهر المسؤول عن الشرطة وانصاره من جهة ، وبين الجند والعامة من جهة أخرى ، حيث اجتمع هؤلاء الى باب سليمان مستنكرين ما حدث للمعتز من الخلع والقتل ، ومطالبين بتولية احمد بن المتوكل (الموفق) الذي كان يقيم في بغداد بأمر المعتز ـ بالخلافة . الا انهم مالبثوا ان اضاعوا للأمر ورضوا باستخلاف المهتدي بعد ان بعث اليهم بمال وفير[١] .

لقد جهد المهتدي أن يحذو في حكمه حذو عمر بن عبدالعزيز ويتشبه به فأخذ نفسه والناس بسيرة صارمة قوامها الدين والتقوى والورع والزهد ، فأمر باخراج القيان والمغنين والمغنيات من سامراء ونفيهم منها الى بغداد ، كما أمر بقتل السباع التي كانت في دار السلطان وطرد الكلاب وابطال الملاهي وكسر آلاتها وآلات اللعب والهزل[٢] ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأمر باخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، كما عمد الى الصور التي كانت في المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين أيدي الخلفاء ، كما ذبح الديوك وحرم الشراب ، وجعل لنفقة مائدته كل يوم مائة درهم بعد ان كانت في عهد الخلفاء قبل نحو عشرة آلاف درهم[٣] .

وحاول أن يقرب منه العلماء ويرفع من منازل الفقهاء ، ويعمهم ببره واحسانه[٤] .

وهناك أكثر من خبر وحكاية عن تعبده وتزهده وتقشفه ، فقد كان يحضر كل جمعة الى المسجد الجامع فيخطب الناس ويؤم بهم[٥] ، كما

---

(١) الطبري ٣٩٢/٩ ـ ٣٩٣ .
(٢) الطبري ٤٠٦/٩ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٢ ، الفخري ص ٢٤٦ .
(٣) مروج الذهب ٩٦/٤ ، ١٠٢ .
(٤) نفسه ١٠٣/٤ .
(٥) نفسه ٩٦/٤ ، الحضارة الاسلامية لآدم ميتز ٤١٣/١ .

كان يقطع الليل تسبيحا وصلاة وتهجدا ، متخذا لنفسه جبة صوف وغلا[١] .

وكثيرا ما كان يقتصر في طعامه على الخبز والخل والملح والزيت ، فاذا ما سئل عن تقشفه هذا وزهده ـ مع ما أسبغ الله عليه من نعمه ، وأفاض من آلائه ـ أجاب بأنه يتشبه في ذلك بالخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز[٢] .

وكان المهتدي يجلس للمظالم بنفسه ، وينظر فيما يرفعه اليه الناس من الخاص والعام ، وقد بنى لذلك قبة لها أربعة أبواب سماها قبة المظالم[٣] . كما كان يأمر بتوفير الراحة للمتظلم فكانت توضع كوانين الفحم في الاروقة والمنازل عند تحرك البرد فاذا ما دخل المتظلم أمر بأن يدفأ ويجلس لكي يسكن روعه ويثوب اليه عقله ، ويتذكر حجته[٤] . وهو آخر من جلس من الخلفاء للمظالم[٥] . وكان عادلاً في أحكامه لا تأخذه في الحق لومة لائم ، أو تثنيه عنه وشيجة قربى أو صلة رحم ، ولا أدل على تمسكه بالعدل وتشدده فيه من احضاره أحد أبنائه وقد استعداه عليه رجل فأدانه وردّ الحق الى ذلك الرجل[٦] .

وكان يشرف بنفسه أيضاً على أمر الدواوين ويشدد في ذلك ، فكان يحضر الكتاب ويجلسهم بين يديه لعمل الحساب ، ولم يكن يخلّ بجلوسه في يومي الاثنين والخميس[٧] .

---

(١) مروج الذهب ٤/١٠٣ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٢ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٦١ ، الفخري ص ٢٤٦ .
(٣) مروج الذهب ٤/٩٦ ، الحضارة الاسلامية ١/٤١٣ .
(٤) المحاسن والمساوىء للبيهقي ص ٥٤٠ .
(٥) الحضارة الاسلامية ١/٤١٣ .
(٦) فوات الوفيات ٢/٥٣٥ .
(٧) تاريخ الخلفاء ٣٦٢ .

ان ما أخذ المهتدي به نفسه من التزمت والتقشف والتشدد في أمور الدين والتضييق على كتاب الدواوين واطراح الملاهي ونفي أصحابها لم يجد صدى ملائما في ذلك العهد الذي كانت الأمور فيه آخذة بالتدهور والانحطاط ، فالتمتع بالملذات والتكالب على المادة كانا من أهم ما يصبو اليهما الناس في تلك الحقبة ، أو بعبارة أخرى ان اهتمام الناس بالحياة الدنيا كان أكثر من اهتمامهم بالحياة الأخرى • ومصداق هذا ما رواه المسعودي في مروجه من أن الاتراك الخارجين على المهتدي قالوا له حين هجموا عليه وعزلوه وحملوه الى دار أحد قادتهم « أتريد ان تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له : ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وانت انما جارك ما بين تركي وخزري وفرغاني ومغربي وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وانما غرضهم ما استعجلوه من هذه الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة »[1] •

أضف الى ذلك ملاحقة المهتدي لكبار القادة الاتراك ومحاولته الايقاع بهم عن طريق القتل والابعاد الى تخوم الدولة بحجة الذود عنها وحمايتها من الخصوم والخارجين على الخلافة • فقد قتل بايكباك أحد قادة الاتراك الذي يمكن أن يعدّ قتله الشرارة الاولى في ثورة الاتراك ضده والتي انتهت بخلعه وقتله •

كما حاول ابعاد موسى بن بغا الكبير عند قدومه الى سامراء بطلب من قبيحة أم المعتز لينقذ ابنها من صالح بن وصيف الذي عذبه ثم قتله وصادر أموال أمه ونفاها الى الحجاز كما ذكرنا من قبل •

---

(١) مروج الذهب ٤/٩٩ •

وجرت الحوادث سراعاً بين المهتدي من جهة وبين الاتراك المؤيدين لقادتهم من جهة أخرى ، وحدث كثير من الاضطراب والفتن في سامراء وبخاصة بعد مقتل بايكباك المذكور • وقد انحاز كثير من العامة الى الخليفة وأيدوه ونصروه بالسنتهم ورقاعهم التي كتبوها وألقوها في المسجد الجامع والطرقات يحثون فيها الناس على مناصرة الخليفة العادل ، وانقاذه من تعذيب الموالي الذين يحاولون ارغامه على خلع نفسه •

والحق ان المهتدي أبدى بسالة وصلابة في هذا الشأن ، وجهد ان يذود عن نفسه وعن الخلافة بكل ما أوتي من شجاعة وقوة ، ولكنه خذل في آخر الأمر فلقى مصرعه على أيدي الموالي المتغطرسين •

وانه لمنظر مؤلم حقاً أن ترى الخليفة راكضاً في الشوارع والاسواق والمصحف في عنقه مستصرخاً الناس أن ينجدوه وينصروه في محنته هذه ، ثم يلوذ بالدور بعد أن يئس من الأنصار والمؤيدين ، يعلو دارا وينزل أخرى طلبا للنجاة ، وهربا من خصومه ومناوئيه •

وتنتهي حياة المهتدي ـ كما انتهت حياة سلفه المعتز ـ بالاهانة والقتل الذي تفنن فيه الموالي الخارجون عليه ، وكان ذلك في سنة ٢٥٦هـ ، ولما ينقض على حكمه عام واحد[١] •

شعر البحتري في المهتدي :

على الرغم من أن المهتدي لم يحفل كثيرا بالشعراء ، ولم يؤثر عنه اثابة أحد منهم بالجزيل من العطايا ، كما كان عليه أسلافه من الخلفاء ، فاننا نجد البحتري يحاول الزلفى والتقرب منه فينشىء فيه ثلاث قصائد وارجوزة ، يبلغ عدد أبياتها جميعا (١٨٦) ستة وثمانين ومائة بيت •

والبحتري في قصائده هذه يتحدث عن صفات المهتدي التي اشتهر

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٥ ـ ٢٣٧ ، الطبري ، ٩/٩٦ ـ ٩٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، مروج الذهب ٤/٩٦ ، ٩٨ ـ ١٠٠ •

بها ، كما يسند اليه الصفات التي سبق أن أسندها الى غيره من الخلفاء ، ولا يفوته أن يشير الى بعض الحوادث السياسية في عهده أيضا •

حوات انفرد بها البحتري :

فهذه احدى مدائحه فيه استهلها بالغـــزل التقليدي ثم انتقل الى امتداح الخليفة الذي رأى فيه من الخلال الكريمة والصفات الحميدة ما يفوق نجوم السماء كثرة • والله قد خوله بمعالٍ خاصة ؛ تجد عمومها في قبيلة قريش التي يعتزي اليها آباؤه الخلفاء ذوو الفضائل في النائبات والمكرمات في الملمات ، وان المسلمين قد أقـرّوا له بالفضل ، واستقامت في عهـده الامور ، واطمأنت الرعية ، ويهنئه بالمواهب العظيمة التي رزقها ، بمعاضدته دين الله ، وتأييده له ، وانه كريم بني هاشم الذين يعدون كرام بني الدنيا في كل مكان ، وانهم من الصباحة والوضاءة بحيث يفوقون أقمار الدجى ويغصبونها نورها • وواضح ان جلّ هذه الصفات قد تناولها البحتري في مدائحه السابقة •

ثم انتقل الى سرد بعض الحوادث في عهـد المهتدي ، فأشـار الى انتصار أحد قواده وهو صالح ــ ولعله صالح بن وصيف ــ الذي جاءت بشائر نصره يزفها الحمام الزاجل الذي قد طال وجومه وسكونه قبل عهد المهتدي ، وهو أمر منقوض بقول البحتري نفسه من قصيدة امتدح بها المعتز :

كلّ ركـاضة من البرد يغـدو الـ ـــريش أولى بهـا من العنوان

والحق ان البحتري قد انفرد بذكر هذا الامر ، اذ لم تشر اليه المراجع المختلفة التي ترجمت للمهتدي •

وان حوزة الاسلام قد حميت وصينت من الأعداء والطامعين ، فقد ولي الخلافة المهتدي ، وان المظلومين قد نالوا حقوقهم ، واستردوا ظلاماتهم

في عهده ، وهدأ العابثون ، وسكن الخارجون حين رأوا بسالته وشـجاعته واقدامه •

والمح البحتري الى اذعان الروم ورضوخهم لمطالب الخليفة ، وهو أمر لم تفصح عنه المراجع المختلفة أيضا •

والبحتري الذي يعرف هوى الممدوح ورغبته في اظهـار صفاته والاشادة بها ، لا يفوته أن يشيد في مدائحه للمهتدي بالصفات التي عرف بها وهي التدين والتقوى والتمسك بالفرائض ، فالدين ليس سوى جهاد يقود اليه ، وصلاة يقيمها ، وانه ليقضي الشهر متخشعا متهجدا ، وان أيسر ما قام به هو صومه أيام الفرض المعروضة • وقد روى السيوطي ان الخطيب قال : «لم يزل (أي المهتدي) صائما منذ ولي الى أن قتل»[1]•

وانه هجر الملاهي والملذات وانقطع الى التبتل وتلاوة القرآن ، وفي هذا اشارة الى عمله في كسر الملاهي وآلاتها ، ونفي المغنين والمغنيات من سامراء الى بغداد كما أسلفنا •

وعلل البحتري قوله الآنف فقال : لاحسن للدنيـــا اذا لم تعضد بآخرة جميلة يبقى نعيمها ويخلد ، هذا على الرغم من ان الشاعر كان يسعى وراء اللذة والمتعة ، ثم انهى مدحته بقوله : ان بقاءه نعمة من الله لدى الناس ، فهم يشكرونها ويتمنون دوامها وبقاءها •

وقد مرّ بنا ان ما أخذ به المهتدي الناس من التشدد في أمور الدين لم يجد صدى مقبولا لديهم ، ومن أجل ذلك : « ثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله اياهم على الطريق الواضحة ، فاستطالوا خلافته ، وسئموا أيامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه »[2] •

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣٦١ •
(٢) مروج الذهب ٤/٩٦ •

اذا المهتدي بالله عـدّت خـلالـه
حسبت السماء كاثرتـك نجومهـا
لقـد خوّل الله الامـام محمـداً
خصوص معال في قريش عمومهـا
أبوّتـه منهـا خلائفهـا الالـى
لهـا فضلها فـي النائبات وخيمها
وليـس حديثُ المكرمات بـكائـن
يـد الدهـر الا حيث كان قديمهـا
* * *
هنتك أميرَ المؤمنين مواهـبٌ
من الله مشكور لديك جسيمها
وتأييـدُ ديـن الله اذ رُدّ أمره
اليـك فروّى في الامـور عليمها
بنو هـاشم في كل شرق ومغـرب
كرامُ بني الدنيـا وانت كريمهـا
اذا ما مشـتْ في جانبيك بأوجـه
تهضّمُ أقمـار الدجـى وتضيمهـا
* * *
توالى سوادُ الريش من عند صالح
اليـك بأخبـار يسرُّ قدومهـا
مُحلّقةً ينبى عـن النصـر نطقهـا
وقبلك ما قد كان طـال وجومهـا
تخبّـرُ عن تلـك الخوارج أنـه
هوى مكرهـا تحت السيوف عظيمها

أرى حوزة الاسلام حين وليتَها
تخرّم باغيها وحيط حريمها

تدارك مظلوم الرعية حقه
وخلّى له وجه الطريق ظلومها

وبصبصَ أهلُ العيث حين هداهم
أخو سطوات ما يبل سليمها

وقد أعطت الرومُ الذي طولبت به
بابريقَ لما خبرَتْ من غريمها

* * *

هل الدين الاّ في جهاد تقودنا
اليه عِجالا ، أو صلاة تقيمها

تقضّتْ ليالي الشهر الا بقيّةً
تهجد فيها جاهداً او تقومها

وأيسرُ ما قدمت للـه طالبا
لمرضاته أيامُ فرض تصومها

* * *

هجرت الملاهي حسبةً وتفرّداً
بآيات ذكر الله يُتلى حكيمها

وأخللتَ باللذات وهي أوانسٌ
مرابعها مستحسنات رسومها

وما تحسن الدنيا اذا هي لم تُعَنْ
بآخرة حسناءَ يبقى نعيمها

بقـــاؤك فيــنا نعـــمةُ الله عندنـا
فنحـــن بأوفى شكرهـا نستديمهـا[1]

وواضح ان البحتري لم يشر في غضون هذه المدحة الى شيء يتصل بكرم الخليفة وجوده ، كما تعودنا منه في مدائحه لمن سبقه من الخلفاء ، وهذا دليل على ان الشاعر كان يلمح فيه شيئاً من العزوف عن بذل الامـوال للشعراء والمداحين •

وواضح كذلك ان البحتري على الرغم من اجادته في مدحته هذه ، فان أمارات التكلف لتبدو واضحة عليها •

موكب المهتدي :

وهذه مدحة أخرى له ، تغزل في مقدمتها ووصف السحاب ورعده وبرقه ، وطلب اسقاءه الخمر صباحا ومساء ، بعد ان انقضى شهر رمضان الذي حال بينه وبين دوران الكؤوس وعزف الاوتار • وانه لغريب من البحتري أن يصرح بهذا وهو يمتدح خليفة معروفا بعزوفه عن اللذات ، متشددا في اتباع السنن الواضحة ، صارما في تطبيق الفرائض الدينية • ولا ندري ماذا كان موقف المهتدي عند استماعه لدعوة البحتري هذه ، وماذا كان تعليقه عليهـــا ؟ وأكبر الظن انه لم يستسغ هذا القول ولـــم يحفل به •

ثم انتقل الى الامتداح فهنأ الخليفة بملكه الذي حازه له المقدار ، وهو تسنمه منصب الخلافة التي كانت ترقبه منذ أمد طويل ، وتنتظره ، وانها كانت فقيرة اليه ، محتاجة له ، وقد اعوزت دونه القناعة ، فبقيت الخلافة موقوفة حتى تهيأ لها حضوره وموافاته ، وان الله قد علم بسيرته فاختاره لها واجتباه ، وكان اصطفاؤه لها أمراً واضحا لاشك فيه ولاريب ،

---

(١) الديوان ٣/٢٠٢٣ ـ ٢٠٢٦ •

وقد أجمعت قلوب الرعية والاولياء على محبته والاذعان له ، فكان مزيناً بالوقار والخشوع ، متحليا بالاباء والصلاح ، وان آثار العبادة والتنسك لتبدو جلية على أسارير وجهه ، وكان الى جانب ما يتحلى به من سكينة واخبات ذا سطوات على العدى واقتدار ، كما كان يتصف بالحكم الفصل والقضاء العادل السريع الذي لا يعوزه التريث والاستشارة ؛ لما كان عليه من التثبت والحصافة ، والمقدرة ، كما لا يحوجه رأي أو حجة مستعارة اذا ما تكلم بين يديه الوفد ، وانه لحمال أعباء الخلافة بحيث لو حملها جبل رضوى لناء بها ، وانه ليدرأ عن المسلمين ما يتعرضون له من مكاره ومصاعب ، وقد أضفى على بهاء الخلافة بهاء ، فهو بالنسبة للناس الشمس وهي النهار ، وقد حمى الدنيا وأجارها من الخوف والظلم ، فهل يشكره المحامون والمجارون ، ويستطرد البحتري في اسباغ النعوت على الممدوح فيصفه بالتقى والفتاء والفضل والتكرم والرضا والاختيار ، وانه سليل ولد العباس عم الرسول (ص) الذين يعدون صفوة الله ، وخيار الناس طراً ، وهو في مقدمتهم زكاء وشرفا واجتباء .

وبعد ان أثنى على قريش وعدّد مناقبها وكرم محتدها ؛ لان الخليفة سليلها وأحد أبنائها ـ انتقل الى وصف موكب المهتدي الى دار الخلافة ، فقال : ان الدار ازدانت بمشهد الخليفة ، كما ازدانت في عهد أبيه من قبل ، ولعل في هذا تلميحا الى مشاهدة البحتري موكب الواثق يوم كان يختلف الى سامراء وان لم يتيسر له الاتصال بالخليفة كما أسلفنا[1] .

وكان الموكب الذي يتكون من الموالي ـ حماة الخلافة وانصارها ـ ضخما كبيرا ، وقد تدجج أصحابه بسلاحهم ، فبدوا ـ وهم يتحركون في الضحى ـ كجبال ماج الحديد عليها واضطرب ، كما ماجت البحار

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص ٢٢ .

واضطربت ، ووصف البحتري كذلك استشراف الناس للخليفة وتطلعهم لرؤيته ، وما كان يبدو على وجوههم من الفرح والغبطة والبشر ، ثم وصف الخليفة نفسه فقال : ان القلوب لتملأ من رؤيته والابصار لتخشع من اشراقة وجهه[٢] . وقد ذكر الناس به سيرة أبيه ومشابهته له وكرم محتده ، وقد رانت عليهم سكينة وشملهم هدوء الا ما كان من مد أيديهم يومئون بها ويشيرون ، وأصابتهم حيرة ودهشة ، وعمهم صمت مطبق ، مما رأوا من هيبته وشاهدوا من وقاره حتى لو طلب اليهم ان يجيبوا جواباً لما كانوا يقدرون ، وقد علموا جميعا بانه نعمة جاءتهم بها الاقدار ، فلتق نفسه من السوء النفوس ، ولتزد في عمره الاعمار :

يا خليليَّ نمتما عن مبيتٍ — بتُّهُ آنفاً ونومي مطار
فاسقياني فقد تُشوِّفت الرا — حُ ، وطاب الصبوح والابتكار

كان عند الصيام للهو وترٌ — طلبته الكؤوسُ والأوتار
بارك اللهُ للخليفة في الملـ — ـك الذي حازه له المقدار

رتبةٌ من خلافة الله قد طا — لتْ بها رقبة له وانتظار
طلبته فقراً اليه ، وما كا — ن به ساعةً اليها افتقار

* * *

علم الله سيرةَ المهتدي بالد — ـه فاختاره لما يختار
لم تخالجْ فيه الشكوكُ ولا كا — ن لوحش القلوب عنه نفار

أخذ الأولياءُ اذْ بايعوه — بيدي مخبت عليه الوقار
وتجلَّى للناظرين أبيٌّ — فيه عن جانب القبيح ازورار

وأرتنا السجادَ سيما طويل الـ — ـليل في وجهه لها آثار
ولديه تحت السكينة والاخـ — ـباتِ سطوٌ على العدى واقتدار

(٢) مرّ بنا في ص١٦٩ ان المهتدي كان جهم الوجه .

وقضاءٌ الى الخصوم وشيك لايروّى فيها ولا يستشار
راغبٌ حين ينطق الوفد عن عـ ـون برأي أو حجة تستعار

مستقلٌ ولو تحمل ما حمل رضوى لابت جبل مغار
زاد في بهجة الخلافة نورا فهو شمسٌ للناس وهي نهار

التقى النقي والفاضل المفضـ ـضل فينا ، والمرتضى المختار
ولدته الشموسُ من ولد العبا س عمّ النبي والأقمار

صفوةُ الله والخيارُ من النا س جميعا وانت منها الخيار
اللبابُ اللباب ينميك منها لذرى المجد والنضار النضار

فبكم قدمّتْ قصياً قريش وبها قدّمتْ قريشا نزار

* * *

زينَ الدارَ مشهد منك كانت قبل ترضاه من أبيك الدار

وأنارتْ لما ركبتَ اليها والموالي الحماة والأنصار
في جبال ماج الحديد عليهن ضحى مثل ما تموج البحار

وغدا الناسُ ينظرون وفيهم فرحٌ ان رأوك واستبشار
طلعة تملأ القلوب ووجهٌ خشعتْ دون ضوئه الابصار

ذكروا الهدى من ابيك وقالوا هي تلك السيما ، وذاك النجار
وعليهم سكينةٌ لك الا مدَّ أيد يوما بها ويشار

بهتوا حيرة وصمتا فلو قيـ ـل أجيروا مقالةً ما أحاروا
وقليلٌ ان أكبروك لك الهيـ ـبةُ ممن رآك والاكبار

كلهم عالمٌ بأنك فيهم نعمة ساعدتْ بها الاقدار
فوقت نفسك النفوسُ من السو ء وزيدت في عمرك الأعمار[1]

---

(١) الديوان ٢/٨٥٢ ـ ٨٥٦ .

وعلى الرغم من ان البحتري قد أعاد في هذه القصيدة ما كان بثه في تضاعيف مدائحه للخلفاء السابقين ، الا انه قد صاغه باسلوب لا يخلو من الطلاوة والجدة ، حتى ليخيل الى القارىء انه يأتي به أول مرة •

وهو كذلك لم يشر في هذه القصيدة كما لم يشر في القصيدة السابقة الى شيء يتصل بكرم الخليفة ، او عطائه •

ووصف البحتري لموكب الخليفة دليـل عـلى وجوده في سامراء واقامته فيها خلال هذه الفترة من حكم المهتدي •

ارجـوزة :

وللبحتري ارجوزة في المهتدي افتتحها بالغزل ووصف الصحراء وما تجشمه من صعاب ثم انتقل الى امتداح المهتدي الامـام الذي لا تنضب فضائله ولا تجف قدمه ، وقد عمت نعمه ، وأصابت الناكثين نقمه ، وهو يعلم ما لا يعلمه غيره ، وذو همة تطاول النجول رفعة وسمواً ، وهو امام مشتهر بالعدل والتفضل ، وحكيم تؤدب الناس حكمه ، وقد استمد الهامه مما كان جده الرشيد يلهمه ، فعضد الدين ، وأقام دعائمه فانتشر الامن ، وعمت الطمأنينة ، فكان بذلك ناصر الاسلام والذائـد عن حماه وحوزته ، وان هناك الكثير من أعدائـه الذين لقوا حتفهم وذهبت دماؤهم هدرا ، ونحن نعلم من سيرة المهتدي انه لم يقتل من أعدائه أو المناوئين له سـوى بايكباك القائد التركي كما اسلفنا[1] •

---

(١) يشير المسعودي في مروج الذهب ١٠٠/٤ ، والبيهقي في المحاسن والمساوىء ص ٥٣٨ – ٥٣٩ الى ان المهتدي أمر بقتل أحمد بن اسرائيل الذي كانت له معه حادثة في عهد المعتز ، في حين يشير الطبري في تاريخـه ٣٩٦/٩ – ٣٩٨ الى ان الذي قام بهذا الامر هو صالح بن وصيف ، وان المهتدي لم يكن راضيا بذلك •

الى الامام لاتجفُ قُذُمُهُ — من عاجل أو آجل يقدمه
ان أبا اسحاق عمّتْ نعمه — وجَعْجَعتْ بالناكثين نقمه[1]

خليفةٌ يعلم مالا نعلمه — نيطتْ بأعلى النجم قدما هممه
امام عدل كلُّ فضل توأمه — ثم حكيمٌ أدبتنا حكمه

يُلْهَمُ ما كان الرشيدُ يُلهمه — قام به الدين وقامت دعمه
وصالحَ السمعَ الازل غنمه — يا ناصر الاسلام أنت سلمه

يثني عليه حلّه وحرمه — ومثله حطيمُهُ وزمزمه
كم من عدو لك مطلول دمه — يرعى النجومَ والنجوم ترجمه

أنت أمينُ اللّه لا تُجمجمه — وفي الحديث والقديم كرمه
وخيرُ بنيان الملوك أقدمه — والشامخُ الباذخ منه قشعمه[2]

حوادث شتى :

ومن مدائحه في المهتدي هذه القصيدة التي استهلها – كالعادة – بالغزل ثم انتقل الى الامتداح فكرر كثيرا مما سبق ان قاله في اثناء مدائحه له ولغيره من الخلفاء ، وتحدث عن ردّ المهتدي للهدايا في عيد المهرجان ، ومعاداته لاعياد المضلين ، واثنى على موسى بن بغا ، ثم تطرق الى ما حصل في غرب الدولة من الاصطرابات والفتن ، وامتدح مفلحا القائد ، ثم ختم القصيدة بالدعاء للخليفة بالبقاء •

فبعد المقدمة المعتادة اثنى على الخليفة الذي فاقت أخلاقه الغيث ، وفضائله لتبعث في النفوس ما تأمله فيه وترجوه ، حتى ان عطاياه السريعة وهباته العاجلة لتعجز اللوام والعذال تداركها • وكرر البحتري ما سبق

---

(1) مرّ ان للمهتدي كنيتين : احداهما ابو اسحاق •

(2) الديوان ٤/٢١٣٧ – ٢١٣٩ •

ان قاله في مدحة أخرى ان الخلافة سعت الى المهتدي راغبة فيه ، وانه لم يسع وراءها وان اصطفاءه لها كان في أوانه ، فلم يكن ذلك اعتباطا ولا خبط عشواء ، وهو امام ذو كفاءة في تصريف الامور ومعالجة المهام[1] ، وانه لخليق بعمة الرسول التي يعتم بها والمسماة بالسواد ، وجدير بارث صاحبها . واذا ما تقلد ذا الفقار ـ سيف الامام علي ـ أضيف الى صاحبه في الشجاعة والبطولة ، وهو تقي ورع ، وذو عزمة ماضية نافذة ترجع في أصولها الى جده الرشيد وأبيه الواثق ، وان الخلافة على ما فيها من الفخامة والعظمة ـ لم تغير من شيمه ولم تبدل من طباعه ، وقد انقادت اليه واذعنت الى سلطانه كما ان اقبال الدنيا بحسنها ولذاتها لم تغره أو تطمعه فيها .

ويمضي البحتري يمتدح ما عرف به المهتدي من العكوف على الصلاة وارتداء ما خشن من الثياب ، وعزوفه عن البذخ واللذات ، ومقاومته لأهل البدع والمجون ، ومن أجل كل هذا فان سجادة الخليفة أحسن منظراً ، والطف شكلاً من التاج المرصّع بالاحجار الكريمة ذات اللمعان والاتقاد ، والذي كان الخلفاء قبله يضعونه على رؤوسهم ، كما ان الصوف بخشونته وغلظه اولى بالخلفاء واحرى بالأئمة من سبائب الحرير ذات الأصباغ والشيات .

ويشير البحتري الى ردّ المهتدي للهدايا التي كان يتلقاها الخلفاء في عيد المهرجان أحد أعياد العباسيين الذي اقتبسوه من الفرس ، كما يشير الى معاداته لاعياد المضلين ، يدفعه الى ذلك تحريه للهدى ، وتقيده بفروض الشريعة ، وقد يسّر للمسلمين سبيل الحج فاندفعوا يؤدون

---

(١) من الجدير بالذكر ان البحتري ضمن هذه القصيدة عددا من ابيات قصيدة أخرى له قالها في المتوكل ، وضعناها بين معقوفتين عند اثبات ابيات القصيدة .

مراسيمه بكل سهولة واطمئنان بعد ان كانوا يعدون الحج ـ لما يلاقونه من المشقة والاعنات ـ جهاداً . ثم يشير الى ان موسى بن بغا القائد التركي الذي كان في هذا الوقت ـ كما أشرنا ـ عاملاً بالريّ يحارب آل أبي طالب ، وما كان بالديلم بقزوين ، فيقول : انه كفى الخليفة بشجاعته وبسالته هذه البلاد التي تولاها ، فدبّر أمرها وأصلح فسادها[1] . وقضى على كل من تسوّل له نفسه الخروج على الخلافة وشقّ عصا الطاعة ، وانه من الشجاعة بحيث يصل مكروهه الى عقر دار أعدائه اذا ما حاولوا التقرّب منه ، والتحرّش به .

ويشير البحتري كذلك الى بعض الحوادث التي وقعت في الجبهة الغربية من الدولة في الشام والعريش وفلسطين ، ويحث الخليفة على ملافاة الأمر ، وضرب العاصين ضرباً شديداً ، حتى تسكن ضوضاؤهم ، وينتهي عصيانهم وعنادهم ، فرب حركة خافتة تنطوي تحتها جلبة عظيمة ، ورب

---

(١) من المستحسن أن نشير هنا الى ما ذكره الطبري عن عمل موسى هذا في أهل الريّ حين عزم على تركهم والتوجه الى سامراء للاحقة صالح ابن وصيف الذي قتل المعتز واستحوذ على أموال أمه قبيحة ، قال الطبري : ٩/٤٠٧ ـ ٤٠٨ ، « ... ثم ان موسى افتتح خراج سنة ست وخمسين ومائتين يوم الاحد مستهل شهر رمضان سنة ست وخمسين ومائتين ، فاجتبى ـ فيما ذكر ـ في يوم الاحد قدر خمسمائة الف درهم ، فاجتمع أهل الريّ ، فقالوا : أعزّ الله الامير ! انك تزعم ان الموالي يرجعون الى سامرا لما يقدّرونه من كثرة العطاء هناك ، وانت وأصحابك في أكثر وأوسع مما القوم هناك فيه ، فان رأيت أن تسد هذا الثغر وتحتسب في أهله الأجر والثواب ، وتلزمنا من خراجنا في خاص أموالنا لمن معك ما ترى ان نحتمله فعلت . فلم يجبهم الى ما سألوا ، فقالوا : أصلح الله الامير : فاذا كان الامير عزم على تركنا والانصراف عنا ، فما معنى أخذنا بالخراج لسنة لم نبتدىء بعمارتها ، وأكثر غلة سنة خمس وخمسين ومائتين التى قد أخذ الامير خراجها في الصحارى لا يمكننا الوصول اليها ان رحل الامير عنا ، فلم يلتفت الى شيء مما وصفوه له ، وسالوه اياه » .

جمرة خبيثة في الرماد تكون علة في اشعال حريق وثورة عارمة .

وهؤلاء الخارجون لم يكونوا جهلاء بأمرهم ولا غافلين عن مغبة أعمالهم ، وانما حينهم قد قرب ، وأجلهم قد دنا فما يحتاجون لخضد شوكتهم والقضاء على فتنهم سوى نهضة من الخليفة وارسال جيش لجب من الموالي ، مسلّح بنصر الله ومزوّد بعاجل تقواه .

ويشير كذلك الى ما عمله مفلح القائد بالخارجين والعاصين في الثديين، وقد وصمهم الشاعر « بحماة الكفر » .

ثم ينهي القصيدة بالدعاء للمهتدي بالبقاء وانفاد عمر الدهر ، وبمواصلة الشكر على آلائه ونعمه التي اسبغها عليه .

غدا المهتدى بالله والغيثُ ملحَقٌ	بأخلاقه او زائدٌ في عدادهـا
حمدنا به عهدَ الليالي وأشرقتْ	لنا أوجهُ الأيام بعد اربدادهـا
اذا كرّت الأمالُ فيه تلاحقت	مواهبُ مكرور الأيادي مُعادها
وقد أعجز العذّالَ أن يتدركوا	لهى تسبق الألحاظَ قبل ارتدادها
سعتْ تبغاه الخلافةُ رغبة	اليه بأوفى قصدها واعتمادهـا
فما علقته ضبطَ عاشية الدجى	ولكنها اختارته بعد ارتيادها
(امام اذا أمضى الأمور تتابعت	على سَنَنٍ من قصدها وسَدادها)
متى يتعمّمْ بالسحاب تُلَثْ على	كفيٍّ لها يحتاز ارث اسودادها
وان يتقلدْ ذا الفقار بنصفْ الى	شجاع قريش في الوغى وجوادهـا
مزايدُ نفسٍ في تقى الله لم تدعْ	لها غايةً في جدّها واجتهادهـا
له عزمة ما استبطأ الملكُ نجحها	ولا استعتب الاسلام ورْيَ زنادها
رشيديةٌ في نجرها واتقية	يرى اللهُ ايثارَ التقى من عادها

(وما نقلت منه الخلافةُ شيمةً وقد مكنته عنوةً من قيادها)
ولا مالت الدنيا به حين أشرفت له في تناهي حسنها واحتشادها
لسجّادةُ السجاد أحسن منظراً من التاج في أحجارها واتقادها
وللصوفُ أولى بالأئمة من سَبَا الـ ـحرير وان راقت بصبغ جسادها

* * *

رددتَ هدايا المهرجان ولم تكن لتسخو النفوس الوفر عن مستفادها
وعاديتَ أعيادَ المضلين معلناً ولولا التحري للهدى لم تعادها
وقامت سبيل الحج للغضَب التي هوت نحوه من قربها وبعادها
فهوّنتَ مشكوراً فريضة حجها وكانت تعدُّ الحج بعض جهادها
كفيت بلاداً ظل موسى بجيشه زعيمكَ في اصلاحها وفسادها
اذا عصبة ضلت فأبدت سوادها لشغبٍ على مُلك رمى في سوادها

* * *

تشوّف أهلُ الغرب فارم بعزمة الى ارمٍ اذ مانعت وعمادها
لتسكنَ ضوضاء العريش وتنتهي فلسطونَ عن عصيانها وعنادها
فكم ثمَّ من اجلابة تحت خفيةٍ ومن جمرة مخبوءةٍ في رمادها
فهل هي الاّ نهضةٌ من مشيّعٍ (يراوحُها بالخيل ان لم يغادها)
كتائبُ ، نصرُ اللهِ أمضى سلاحها وعاجل تقوى الله أكبر زادها
عليهن من شُوس الموالي فوارسٌ (عدادُ حصى البطحاء دون عدادها)

* * *

ليهنك ان قالوا سريةُ مفلحٍ أبان طلى العاصين وقعُ جلادها
وقد طاردتهم بالشُديين خيله فباتت حماة الكفر صرعى طرادها[1]

* * *

---

(١) الشديان (العبد : جبيل أسود في ديار طيء يكتنفه جبلان أصغر منه يسميان الشديين) انظر الديوان ٢/٦٧٩ هامش (٤١) .

(بقيتَ أمير المؤمنينَ وأنفدت حياتُك عمر الدهر قبل نفادها)
ولا زال للدنيا بهاءٌ وبهجة بملكك يزدادان طولَ ازديادها
سأشكر من نُعماك آلاءَ منعمٍ وجدتُ طريقي كله في تلادها[1]

والبحتري في قصيدته هذه ما زال يحسن الظن بالموالي وقادتهم على الرغم مما رآه من تنكيلهم بالخلفاء واغتصابهم اموال الدولة واحتجانها لانفسهم واولادهم ٠

والغريب ان البحتري لم يحاول ولو مرة واحدة في مدائحه لخلفاء بني العباس ان ينوّه بالجند العرب ، أو ينبه الى ضرورة تقريبهم واتخاذهم سنداً للدولة عوضاً عن اولئك الموالي الذين أساءوا الى الخلافة والخلفاء أكثر من غيرهم ٠

وقد ضمن الشاعر قصيدته هذه أبياتاً واضاف أبيات من مدحه له في المتوكل ولا ندري ما الذي حمله على هذا مع ما كان عليه من سعة الذرع بقول الشعر ، والقدرة على التوسع فيه[2] ٠

والبحتري يشير في هذه القصيدة لأول مرة الى انعام المهتدي عليه ، في حين لم يشر في القصائد السابقة الى شيء من هذا ، ولا نعلم ما هي النعم التي أسبغها عليه الخليفة الزاهد ، وأكبر الظن أنها لم تكن كبيرة ٠

ولعل تحشيه التحدث عن كرم المهتدي وجوده ، وكتفاءه ببيت واحد يلمح فيه الى انعامه عليه خير دليل على نزر عطاياه له ٠

والبحتري كثيراً ما كان يحلو له في مدائحه للمتوكل والمعتز أن يشيد بكرمهما وجودهما وافاضة عطاياهما عليه ، حتى ليمكن ان نقول ان أيّة

---

(١) الديوان ٢/٦٧٤ ـ ٦٧٩ ٠

(٢) انظر : الموشح للمرزباني ص ٥١٥ ٠

مدحة من مدائحه فيهما لم تخل من التحدث عن ذلك . ولا غرو اذا ما تذكرنا انهما كانا من المعجبين به فقرباه من أجل ذلك ومنحاه الشيء الكثير من عطفهما وتشجيعهما وتقديرهما !

قبة الميدان :

ولعل آخر ما أنشأه البحتري في المهتدي هذه القصيدة التي تحدث فيها الى جانب الغزل عن مصرع عبيدة العمروسي الشاري على يد مساور الشاري ، وعن القبة التي ابتناها المهتدي لنفسه والتي أسماها قبة المظالم ، وتحدث كذلك عن مسير موسى بن بغا الى مساور الشاري ، وألمح في آخرها الى أمله في السماح له بالدخول على الخليفة .

فبعد المقدمة انتقل الى الثناء على الخليفة الذي سما بمجده حتى طال النجوم رفعة ، وفاقها سمواً ، وان قربه من الرسول (ص) وشهادة القرآن بطهارة عنصره لدليل على كرم محتده ، وشرف نسبه ، وانه ذو عزيمة نافذة ، ماضية ، وتأييد لحكم الهدى والرشاد ، بصرامة وجد وخشونة ، وقد ظهرت « قبة الميدان » التي ابتناها المهتدي للجلوس فيها والنظر في ظلامات الناس بأجمل حلية وأبهى زينة حين توسطها الخليفة .

وأشار البحتري الى شيء يكاد يكون غامضاً وهو حمل المهتدي البالغين على عتاق الخيل توقياً على صبية كانت أعدت للهلاك ، ثم اثنى على عمله هذا فعده سبقاً له لم يقم بمثله أحد من قبل .

وأظهر الشاعر أساه وبثه لبعض الناس الذين كانوا في طاعة الخليفة ، فمضوا ولم يروا حسن عدله يوم كانت أيامهم سوداً مكفهرة ، ولم يتمتعوا بنعم كرمه وفيض جوده ، ولم يعلموا ان المكارم قد ردت الى أصحابها . واذا لم يكن الغائبون قد نالوا شيئاً فان الحاضرين قد أصابوا من نعمائه وبره الشيء الكثير .

واستطرد في ذكر الحوادث التي وقعت لبعض الخارجين على الخلافة

فأشار الى ما أصاب عبدة العمروسي الشاري الذي التقى معه مساور بن عبدالحميد الشاري أيضاً بالكحيل في جمادى من سنة ٢٥٦هـ ، وكانا مختلفي الآراء ، فظفر به مساور وقتله[1] .

وشمت الشاعر بما حدث بين الشاريين ووصمهما بالكفر والمروق والضلال ، ثم ذكر ما عهد به المهتدى الى موسى بن بغا من ملاحقة مساور بجيش كثيف لجب لو رادى الجبال الراسيات لهدّها ، بيد ان موسى ومن معه من القواد توقفوا عما كلفوا به خوفاً من أن ينالهم صالح بن وصيف بمكروه ، وقد أشار الى ذلك الطبري فقال : « وبات الناس (اي في سامراء) ليلة الأحد لثمان خلون من صفر (من سنة ٢٥٦هـ) على ذلك ، فلما كان غداة يوم الاثنين انتهى الى المهتدي ان مساوراً الشاري صار الى بلد ، فقتل بها وحرّق ، فنادى في مجلسه بالنفير ، وأمر موسى ومفلحاً وبايكباك بالخروج ، وأخرج موسى مضاربه ، فلما كان يوم الاربعاء لاحدى عشرة مضت من صفر بطل أمر موسى ومحمد بن بغا ومفلح في الخروج ، وقالوا : لا يبرح احد منا حتى ينقطع أمرنا وأمر صالح ، وهم مجمعون على ذلك ، يخافون من صالح ان يخلفهم بمكروه »[2] . ثم ان موسى ـ بعد خروجه بجيشه من سامراء ـ تنحى عن وجه الشاري وترك حربه وصار الى طريق خراسان ، بحجة ممالأة المهتدي لأحد القواد الاتراك الذين كانوا في معيته وهو بايكباك ، حيث كاتبه سراً وأمره بقتل موسى وتسلم قيادة الجيش منه ، ففاتح بايكباك هذا موسى بما كتبه اليه المهتدي ، فكان ذلك سبباً في انحرافه عن مقاتلة الشاري واتجاهه بجيشه الى طريق خراسان[3] .

---

(١) انظر : الطبري ٩/٤٥٥ .

(٢) الطبري ٩/٤٥٢ .

(٣) نفسه ٩/٤٥٦ .

وأنهى البحتري مدحته ـ بعد ان كرر ثناءه للمهتدي ونعته بالتيقظ والحزم ـ بالتحدث عن نفسه فقال : انه امرؤ لا يتبع النقص رائده ، وان مودته لا تتجاوز الكرماء ، وانه ظل يرقب نعمة مؤكدة من الخليفة ، ويرعى حسن رأيه فيه الذي يعتبره ذخره وعتاده للزمان ، والمح في آخر بيت من القصيدة الى امله في أن يأذن له الخليفة بالوصول اليه ، وانه ليعد ذلك صنيعاً جميلاً منه ، سيظل يلهج بشكره الى آخر أيامه ، ولعل في هذا اشارة الى حجب الشاعر عن الخليفة وصعوبة الوصول اليه ، قال :

وللمهتدي بالله مجد لو ارتقت ... اليه النجومُ رفعة ما تهدت
موارثُ من آي الكتاب وقربةٌ ... من المصطفى حيزتْ اليه فردت

مليٌّ بنصر الحق والحق أوحدٌ ... اذا عصبة منا لظلم تصدّت
وتأييدُهُ حكمَ الهدى بخشونةٍ ... من الجد لو مرت على الصخر خدت

* * *

جلتْ (قبةُ الميدان) أحسن حليةٍ ... لنا عن تلالى غرة قد تبدت
وقيدت عتاقُ الخيل حين تلفتت ... بأعطافها مختالة وتقدّت
حملت عليها البالغين توقياً ... على صبيةٍ للهُلْك كانت أعدت

* * *

آسيت لأقوامٍ ملكتَ أمورهم ... وكانت دجت أيامهم فاسوأدت
مضوا لم يروا من حسن عدلك منظراً ... ولم يلبسوا نُعماك حيث استجدت

ولا علموا ان المكارم أبديتْ ... جِذاعاً ولا أن المظالم ردّت
لئن خسَّ حظ الغائبين لقد زكت ... حظوظ الشهود من نداك وجدت[١]

* * *

هنتك أميرَ المؤمنين بشارةٌ ... اليك على كره الأعادي تأدّت

---

(١) خس : رذل ونقص .

لقد بسط الآمال حادثُ وقعةٍ بدجلة أجرتها دماءً فمدت[1]
كتائبُ للمراق سارت لمثلها وكلٌ كفت أقرانها وأبدت

ولما تلاقوا قلت : منٌ ونعمةٌ من الله ، اي العُصبتين تردت
فكلتاهما كفراً أضلت وأوبقتْ وكلتاهما ظلماً بغت وتعدت

* * *

والله ما لاقى عبيدةُ اذ رأى دجاجالوغى ضاقت به فاجرهدت[2]
اذا بتكتْ يمنى يدٍ فهي التي مكان الشمال حاجزت او تحدت
وقد سار موسى في جنانٍ لوانها تُرادى الجبالَ الراسيات لهدت
لهم عادةٌ من نصرة الله في العدى أُقيمَ بها دَرْءُ الثغور فسدت

(١) يعلق شارح الديوان على هذا البيت بقوله : « يشير الشاعر الى الشغب الذي حدث ببغداد يوم الخميس سلخ رجب سنة ٢٥٥ ووثوب العامة بسليمان بن عبدالله بن طاهر وذلك اثر مبايعة المهتدي فكانت فتنة قتل فيها وغرق في دجلة وجرح آخرون ثم استقام الامر بعد ذلك ، وتمت البيعة للمهتدي يوم الخميس لسبع خلون من شعبان » .

ويخيل الينا ان ماذهب اليه الشارح بعيد الاحتمال ، فليس من المعقول ان يلجأ البحتري الى حادثة قديمة وقعت في اول استخلاف المهتدي فيثيرها من جديد ، لان عمله هذا يكون – اذا صح قول الشارح – أشبه بمن ينكأ جرحا ، لاسيما وان المتقاتلين قد هدأوا وبايعوا الخليفة وانضووا تحت رايته ، وخضعوا لحكمه ومشيئته بعد فترة قصيرة جدا من حكمه (انظر : الطبري ٩/٣٩١ – ٣٩٣) .

ويبدو ان الذي أوقع الشارح في هذا الوهم هو ذكر البحتري للفظة (دجلة) في هذا البيت فظن انه يشير بذلك الى الشغب المذكور ، في حين ان ماذكره البحتري في أمر المتخاصمين وتقاتلهما ووصمهما بالكفر والمروق دليل واضح على انه كان يريد بذلك الشاريين . ومما يؤيد ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه من التقاء الشاريين بالكحيل : وهي مدينة عظيمة على دجلة بين الزابين فوق تكريت من الجانب الغربي ، كما يقول ياقوت (معجم البلدان ٤/٤٣٩ طبعة بيروت) ، وانظر : مراصد الاطلاع لابن عبدالحق ٣/١١٥٠ – ١١٥١ .

(٢) اجرهد : أسرع وامتد ، والارض والسنة : اشتدت وصعبت .

فأنت لمن ودَّ الرشاد مراصـــد لساعاتِ حزم للجليل استُعدَّت
وعينٌ متى كلفتهـا الحفظ لم تنم ونفسٌ متى ما سمتها الجد جدت

وكنتُ أمرأً لا يتبع النقصَ رائدي ولا تعـدى الأكرمين مودتـي
غنيتُ أُراعي نعمـةً منك أكدت مقدمـة الأســباب فيها فشـدت

وصالحَ رأي منك كنت ذخرتـهُ فصارت عتادي للزمـان وعدتـي
فان تم اذنٌ في الوصـول فانـه تمامُ وجوب الشكر آخر مدتي(١)

ويمكن تلخيص شعر البحتري في المهتدي بانه لا يخلو في جملته من التكلف والتملق والتصنع ، وانه كان يدور حول صفات الخليفة المتزمت والمتشدد في تطبيق الفرائض وأخذه الناس بسيرة صارمة لم يألفوها عند من سبقه من الخلفاء • وجهد البحتري ان يظهر نفسه بمظهر المؤيد لسياسة الخليفة واتجاهه المتشدد في اطراح الملاهي وملاحقة أصحابها ، مع انه كان في حقيقته يجري في حلبتهم وينغمس في ملذاتهم •

ومع كل ذلك فان مدائحه هذه لم تخل من الجودة والسبك والبراعة والوصف ، والارتفاع الى مستوى شعره الجيد •

---

(٢) الديوان ١/٣٦٩ ـ ٣٧٣ •

الفصل الخامس
البحتري والمعتمد

المعتمـــــد :

بعد مصـرع المهتدي جاء الاتراك بجماعة من اولاد المتوكل كانوا محبوسين في الجوسق فاختاروا أحمد وبايعوه بالخلافة ، ولقب المعتمد على الله ، وذلك يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين[1] .

ولد المعتمد في سامراء سنة تسع وعشرين ومائتين[2] . ويكنى بأبي العباس وبأبي جعفر[3] ، وأمه أم ولد رومية اسمها فتيان[4] .

وكان « أسمر مربوعاً نحيف الجسم ، حسن العينين ، مدور الوجه ، على وجهه اثر جدري »[5] ، وكان كريماً معطاء حتى قيل انه « من اسمح آل العباس ، وكان يمثل بينه وبين المستعين ، ويقال ما ولى اسمح منهما »[6].

وروى ابو الفرج الاصفهاني عن جحظة انه كان عند المعتمد يوماً فغنته « شارية » فاستحسن غناءها فأمر لها بألف ثوب من جميع انواع

---

(١) انظر : الطبري ٩/٤٧٤ ، تاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٧ ، مروج الذهب ٤/١١١ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ ، محاضرة الابرار ١/٣٢ .

(٢) انظر : النجوم الزاهرة ٣/٨٢ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ وانظر : مروج الذهب ٤/١١١ حيث يشير الى ما يفيد بان ولادته كانت سنة ٢٣١هـ ، وانظر كذلك محاضرة الابرار ١/٣٢ حيث يشير الى ما يفيد بأن ولادتـه كانت في سنة ٢٢٧هـ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ ، النجوم الزاهرة ٣/٨٢ .

(٤) انظر النجوم الزاهرة ٣/٨٢ ، وتاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ ، تاريخ الطبري ٩/٤٦٨ ، مروج الذهب ٤/١١١ وفيه ان امه كوفية ، ومحاضرة الابرار ١/٣٢ وفيه ان اسم امه فينان وهو تصحيف .

(٥) العقد الفريد ٥/١٢٦ ، والتنبيه والاشراف للمعودي ص ٣٢٠ وجاء فيه انه (كان حسن الجسم كبير العينين طويلا جسيما ، طويل اللحية، عظيم الهامة) .

(٦) الديارات ١٠٢ الطبعة الثانية ١٩٤ .

الثياب الخاصية وهو أمر لم يسبقه فيه خليفة آخر[1] . كما كان مشغوفاً بالطرب ، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهي ، وكثيراً ما كانت تدور في مجالسه أحاديث مطولة عن الملاهي وتطورها وصنوفها وعن آلات الطرب وأصولها وانتشارها لدى الأمم المختلفة ، ولعل ما ذكره المسعودي في مروجه من تلك المجالسات خير دليل على شغف الخليفة واهتمامه الكبير بذلك[2] . قال المسعودي في صدد مجالس المعتمد ومجالسته ومذاكراته ما نصه « وللمعتمد مجالسات ومذاكراته قد دونت في انواع من الأدب ، منها مدح النديم ، وذكر فضائله ، وذم التفرد بشرب النبيذ ،وماقيل في ذلك من المنثور والشعر ، وما قيل في أخلاق النديم وصفاته وعفافه وأمن عبثه ، والتداعي الى المنادمات والمراسلات في ذلك ، وعدد أنواع الشرب في الكثرة ، وهيئة السماع ، وأقسامه وانواعه ، وأصول الغناء ومباديه في العرب ، وغيرها من الأمم وأخبار الاعلام من مشهوري المغنين المتقدمين والمحدثين ، وهيئة المجالس ، ومنازل التابع والمتبوع ، وكيفية مراتبهم ، وتعبية مجالس الندماء والتحيات ... »[3] .

وكان المعتمد يميل الى قرض الشعر ، وقد رويت له امثلة جاء الكثير منها في الديارات للشابشتي ، وأهم ما يلحظ في هذا الشعر ان بعضه موزون وبعضه الآخر غير موزون . واكبر الظن ان الثاني منه موضوع ومنحول بغية التشنيع عليه والحط من منزلته . وكان يوجّه بعضه الى المغنيات ليضعن له الالحان ، كما وجدت مدارج مكتوبة بالذهب من شعره[4] .

---

(١) الاغاني ١٤/١٠٩ (طبعة الساسي) .

(٢) انظر : مروج الذهب ٤/١٣١ ـ ١٣٧ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٣٨ ، الحضارة الاسلامية ١/٢٥٥ .

(٤) الديارات ص ٩٨ ـ ١٠٦ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٨ حيث اشار الى انه كان له ورّاق يكتب شعره بماء الذهب .

لقد بدأ المعتمد خلافته بالاعتكاف على الملاهي والانهماك في الملذات ، وفوّض الأمور الى أخيه طلحة الملقب بالموفّق والناصر لدين الله فطمع هذا واستبد بالأمر ، وغلب على المملكة ، ومال الناس اليه وأحبوه وكرهوا أخاه المعتمد لايثاره اللهو وانقطاعه اليه ، وما زال الموفق يضيّق على المعتمد ويسلبه سلطانه حتى حظر عليه وحبسه ، فكان اول خليفة قهر وحبس وحجر عليه ، ثم عمد الى نقله من مكان الى آخر فأحدر الى واسط ووكل به بفم الصلح • وحين شعر المعتمد بما آل اليه أمره من الخور والوهن رام تغيير الحال ، فعزه وأعوزه وامتنع عليه[1] •

ولعل من أهم ما قام به للتخلص من سيطرة أخيه الموفق وهيمنته على أمور الدولة هو محاولته الهروب من سامراء الى مصر ، وقد كاتب في ذلك أحمد بن طولون والي مصر وأحد مؤيديه يعلمه بالأمر ، وفعلاً رحل المعتمد مع بعض قواده وحاشيته الى ناحية الموصل بحجة التصيّد في يوم السبت للنصف من جمادى الاولى سنة (٢٦٩هـ) ، ولكنه قبض عليه وعلى أصحابه من قبل عامل الموصل الذي عزره وأنبه على فعلته هذه في وقت كان أخوه الموفق مشغولاً في معارك دامية مع صاحب الزنج في البصرة ، فأعيد الى سامراء وفشلت خطته[2] •

والحق ان الموفق كان اكثر جدارة من المعتمد ، وأقدر على تصريف الأمور وقد قاد جيوش المعتمد لمحاربة المستعين وأهل بغداد في أيام الصراع بينهما • كما كان موفقاً في أكثر المعارك التي خاضها مع الخارجين على

---

(١) مروج الذهب ١٢٣/٤ ، التنبيه والاشراف ص ٣١٨ ــ ٣١٩ ، الديارات ص ١٠١ ، النجوم الزاهرة ٢٤/٣ ، ٨٢ ــ ٨٣ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ ــ ٣٦٦ ، الفخري ص ٢٥٠ •

(٢) الطبري ٦٢٠/٩ ــ ٦٢١ ، المروج ١٢٣/٤ ، الديارات ١٠١ ــ ١٠٢ النجوم الزاهرة ٢٤/٣ ، ٨٢ ــ ٨٣ ، تاريخ الخلفاء ٣٦٥ •

الخلافة العباسية ، ولولاه لهزّت الخلافة العباسية هزّاً عنيفاً ، ولطوحت بها الفتن والثورات الداخلية •

ان حالة الضعف التي كان عليها المعتمد قد صورت تصويراً واضحاً بنماذج من شعر الخليفة نفسه ، فقد روى ان احدى المغنيات غنته فرام اربعمائة دينار يصلها بها فعزّت عليه ، فطلب نصفها فلم تتوفر له فقال :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلّ ممتنعاً عليه ؟
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
اليه تحمل الأموال طرّاً ويمنع بعض ما يجبى اليه[1]

انّ مدة استخلاف المعتمد أربت على ثلاث وعشرين سنة ، وهي أطول مدة حكم فيها خليفة عباسي في مدينة سامراء التي مكثت عاصمة للخلافة العباسية زهاء ثمان وخمسين سنة •

والحق ان هذه الحقبة من عمر الخلافة العباسية مليئة بالحوادث الداخلية والخارجية ، وان من يتصفح كتب التاريخ التي تعنى بالحوادث وتسلسلها • ليرى زحمة هذه الحوادث وكثرة الخارجين على الخلافة ، حتى ليمكن القول بأن الخلافة العباسية لم تشهد في عمرها كله من الاضطرابات والفتن ما شهدت هذه الحقبة •

لقد هزت الخلافة في أكثر أقطارها هزاً عنيفاً كلفها الكثير من الاموال والنفوس ، وقد لا نخطىء اذا ما زعمنا ان تلك الهزات العنيفة كانت الامارات الاولى لظهور الدويلات التي انسلخت من جسم الدولة العباسية فيما بعد !

---

(١) الديارات ١٠١ ، تاريخ الخلفاء ٣٦٥ ، زهر الاداب ٣/٧٩٥ ورواها للمعتضد وهو وهم •

لقد ظهرت في غضون هذه الحقبة الدولة العبيدية في المغرب[1] ، كما ظهرت في سنة ٢٧٨هـ حركة القرامطة في الكوفة التي جاءت بمبادىء جديدة ودعوة غريبة[2] .

ان ضعف الدولة وانحلالها السياسي قد أطمع فيها الكثير من الرجال والقادة فاهتبلوا الفرصة وشقوا عصا الطاعة ، واستقلوا بولاياتهم ، وقد وصلت جيوش بعضهم الى قرب العاصمة العباسية سامراء[3] . بل حاول بعض قطاع الطرق ان يداهم العاصمة ويستحوذ على أموال التجار وينهب دور الناس[4] .

وعلى الرغم من كثرة الفتن والاضطرابات الداخليـة فان اسـتفحال أمر مساور الشاري بديار ربيعة واستشراء خطر الصفار في المشرق وثورة الزنج في البصرة من أهم ما انتاب الدولة من هزات عنيفة .

وقد اشتدت وطأة الصفار هذا على الخلافة وسولت له نفسه أن يقصد العراق وينازل جيوش المعتمد فجهز الخليفة جيشا لجبا جعل أخاه الموفق على رأسه ، فالتقى الجيشان بين السيب ودير العاقول فانخـذل الصفار وأصحابه واندحروا مفلولين بعد ان خسر أغلب جيشه .

ويبدو ان هذه المعركة كانت الحد الفاصل في حياة الصفار واستمرار حكمه بعد ذلك ، اذ ان شوكته قد خضدت بعد هذه الحادثة فمات سنة ٢٦٥هـ ، وخلفه اخوه الذي انضم تحت راية الخلافة العباسية وخاض عدة معارك ضد الخارجين عليها[5] .

---

(١) انظر : تاريخ الخلفاء ٣٦٦ .

(٢) انظر : الكامل في التاريخ ٤٤٤/٧ وتاريخ الخلفاء ٣٦٦ .

(٣) النجوم الزاهرة ٥١/٣ .

(٤) نفسه ٧/٣ والطبري ٥٥١/٩ .

(٥) انظر في تفصيل ذلك : الطبري ٢٤٨/٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٨٦ ، ٤٧٦ ، ٥٠٢ ، ٥٤٤ مروج الذهب ١١٢/٤ ــ ١١٩ ، التنبيه والاشراف ٣١٩ والديارات ١٨٢ ــ ١٢٩ والمستطرف ٥٤/٢ .

أما ثورة الزنج فقد قام بها رجل شخص من سامراء سنة تسع واربعين ومائتين الى البحرين وادعى بها انه علي بن الفضل بن ابي طالب ، وبعد ان لقيت دعوته شيئاً من القبول اتصل بالزنج الذين كانوا يكسحون السباخ فجمعهم اليه وكوّن منهم جيشا كبيرا وأخذ يكتسح بجيوشه الامصار والبلدان فيقتل ويحرق ويسبي ، وحين استفحل أمره واستشرى خطره ندب المعتمد لحربه أخاه الموفق كما ندب لحربه كبار قادة الاتراك واستمر القتال سجالا بين صاحب الزنج وجيوش الخلافة ما يربي على اربع عشرة سنة ، ازهقت فيها أرواح لا يحصرها عدّ ولا يحيط بها احصاء .

وبعد حروب طاحنة دامية استطاع الموفق ان يضيّق الخناق على صاحب الزنج ويفتك به بعد ان بدد جيوشه وقضى على كبار قادته قتلاً وأسرا وترغيبا . وكان اليوم الذي قتل فيه يوما مشهودا في تاريخ الخلافة العباسية ، لما كان عمله في الاقطار التي استحوذ عليها ، وما بثه في نفوس الناس من الرهب والفزع والرعب[١] .

ومن الطبيعي أن يستغل كثير من الولاة والعمال انشغال الخلافة بمحاربة كبار الخارجين عليها ، فيحاولون العصيان في مناطقهم وشق عصا الطاعة على الدولة ، وقد حدث بالفعل خلال هذه الحقبة : حتى أن بعضهم قد ضرب باسمه دنانير ودراهم[٢] .

ولا يسعنا بالطبع سرد كل ما حدث خلال هذه السنين من حكم

---

(١) للوقوف على تفصيل الحوادث يستحسن الرجوع الى المصادر التالية : الطبري ٤١٠/٩ ـ ٦٦٦ ، مروج الذهب ١١١/٤ ، التنبيه والاشراف ٣١٩ تاريخ اليعقوبي ٢٤١/٣ ، تاريخ الخلفاء ٣٦٤ الفخري ٢٥٠ ـ ٢٥١ ، سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) الطبري ٥٩٩/٩ ـ ٦٠٠ ، تاريخ الخلفاء ٣٦٤ .

المعتمد ، ويكفي ان نحيل على المصادر التي تكفلت بتسجيلها وتدوينها[1] .

وحاول الروم غير مرة مهاجمة ثغور الخلافة والايقاع بأهلها ، في اثناء هذه الحقبة كذلك ، منتهزين انشغال الجيوش العباسية في مقاتلة الخارجين عليها من الداخل[2] .

وعلى الرغم من تردي الحالة الاقتصادية في عهد المعتمد نتيجة النفقات الباهظة على الجيوش ، وامتناع بعض الولاة عن دفع الاموال الى الدولة ، فان الخليفة تهيأ له ان يشيد عددا من القصور الفخمة في سامراء ، ولعل أضخمها وأفخمها القصر (المعشوق) الذي مازالت معالمه شاخصة للعيان الى يومنا هذا .

وقد وصف البحتري بعض تلك القصور ، كما أشار اليها غيره اشارة خاطفة[3] . بقي المعتمد مغلوبا على أمره مدة بقاء أخيه الموفق على قيد الحياة ، فلما توفي الموفق ليلة الخميس لثلاث بقين من صفر سنة ثمان وسبعين ومائتين على أثر مرض عضال[4] ، تنفس المعتمد الصعداء ، وحسب انه تخلص من شدة وطأة أخيه عليه ، بيد انه ما لبث أن ابتلي بابن الموفق الملقب بالمعتضد الذي كان أمره معه أشد مما كان عليه أبوه ، فاضطر أن يخلع ابنه المفوّض من ولاية العهد ، ويعهد بها الى ابن أخيه المعتضد في سنة ٢٧٩هـ[5] .

---

(١) انظر : الطبري ٩/٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٨ ـ ٤٧٩ ، ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٥٠٢ ـ ٦٦٧ ، تاريخ اليعقوبي ٣/٢٣٨ ـ ٢٤١ ، مروج الذهب ٤/١١١ ـ ١٤٢ ، النجوم الزاهرة ٣/٦ ـ ٧٦ تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ ـ ٣٦٦ .

(٢) انظر : الطبري ٩/٥٠٦ ، ٥١١ ، ٥٣٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥٣ ، ٦١٢ ، ٦٦٦ .

(٣) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٨ ـ ٢٨٣ .

(٤) انظر : مروج الذهب ٤/١٤٠ ، التنبيه والاشراف ص ٣١٩ ، النجوم الزاهرة ٣/٧٩ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٤٠ ، التنبيه والاشراف ص ٣١٩ ، النجوم الزاهرة ٣/٨٠ ، تاريخ الخلفاء ص ٣٦٧ ، الفخري ص ٢٥١ .

وبعد أشهر من هذه السنة (٢٧٩هـ) وفي يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب لقى الخليفة حتفه وهو مقيم في بغداد ، فحمل الى سامراء ودفن بها(١) .

وتعددت الاسباب في موته ، فقيل : انه سُمَّ ، وقيل : انه نام فغم في بساط ، وقيل : انه مات فجأة من أثر ادمانه الشراب وقيل غير ذلك(٢)

شعر البحتري في المعتمد :

من الغريب ان البحتري لم ينشىء في المعتمد ـ على الرغم من المدة الطويلة التي حكم فيها وهي التي تربي على ثلاث وعشرين سنة ـ سوى أربع قصائد ومقطعة وان واحدة من هذه القصائد الاربع ينازعه فيها المهتدي .

تتألف هذه القصائد من (١٤١) مائة وواحد واربعين بيتا ، اشتمل القسم الغزلي منها على (٣٣) ثلاثة وثلاثين بيتا ، كما اشتمل بعضها على (١٣) ثلاثة عشر بيتا في مدح عبيدالله بن يحيى بن خاقان وزير المعتمد .

ويبدو أن الشاعر لمح ضعف الخليفة وقلة ذات يده فانصرف عنه الى غيره ممن يجد في كنفه ما يسد حاجته ويشبع نهمه . وقد مر بنا ان المعتمد كان مغلوبا على أمره من قبل أخيه الموفق الذي استحوذ على شؤون الدولة وهيمن على مرافقها العامة ، ويظهر ان الخليفة لم يكن له من الامر سوى الخطبة والسكة والتسمي بامرة المؤمنين ، وما تبقى من أمور الحل والعقد كان لأخيه الموفق(٣) .

---

(١) مروج الذهب ١٤١/٤ ، النجوم الزاهرة ٨٢/٣ ، محاضرة الابرار ٣٢/١ ، وجاء فيه ان وفاته كانت سنة تسع (وتسعين) ومائتين . ويبدو ان لفظة تسعين مصحفة عن (سبعين) .

(٢) مروج الذهب ١٤١/٤ ـ ١٤٢ ، النجوم الزاهرة ٧٩/٣ ـ ٨٠ .

(٣) الفخري ص ٢٥٠ .

وخليفة من هذا النوع ما كان ليحتل من قلب البحتري وشعره شيئاً ذا بال • ومن الغرابة كذلك ان البحتري لم ينشىء في الموفق الذي دوى اسمه في أرجاء الدولة كقـائد محنك قضى على أغلب الفتن التي هـزت الخلافة العباسية هزا عنيفا سوى قصيدتين : الاولى بعد انتصاره على صاحب الزنج ، والاخرى في رثائه بعد موته • وأغلب الظن ان عزوف البحتري عن الموفق كان ماديا أيضا ، اذ لم يعرف عن أخي الخليفة تقريبه للشعراء وتحفيه للادباء ، كما لم يعرف عنه الميل الى الاعطاء والاغداق عليهم • ولعل انشغاله في الحروب وخضد شوكة العصاة حـالا دون تفرغه لهـذا الأمر ، وعلى هذا فلم يكن للشاعر مندوحة من ان يؤم الوزراء والقواد والولاة ، بل وحتى الكتاب وعمال الخراج فيمدحهم ويطنب في مدحهم •

وان من ينظر في ديوان الشاعر منذ استخلاف المعتمد في سنة **٢٥٦**هـ الى الحقبة التي غادر فيها العراق قافلا الى بلده منبج ليرى كثرة القصائد التي دبجها في اولئك الممدوحين، مما يعيد الى الاذهان حالته الاولى التي بدأها بالتطواف في المدن والامصار مادحا ومنتجعا[١] •

---

(١) لا يسعنا أن نسرد القصائد التي نظمهـا الشاعر في رجالات الدولة منذ استخلاف المعتمد ولكننا نكتفي بالاشارة الى عددها وأسـماء من قيلت فيهم :

١ ـ الوزراء :

صاعد بن مخلد وابنه العلاء وأخوه عبدون (٢١) قصيدة •
اسماعيل بن بلبل (٢٥) قصيدة •

٢ ـ في الطولونيين :

أحمد بن طولون قصيدتان
خمارويه بن أحمد بن طولون أربع قصائد •

٣ ـ القواد :

اسحاق بن اسماعيل بن نوبخت (أربع) •

رأب صدع الخلافة :

ولعل أول مدحة للبحتري في المعتمد هــذه المقطعة التي استهلها بتلافيه للخلافة التي وهت وكاد سربها أن ينفر ، وهو ما كرره في مدائحه للخلفاء من قبل ، وانه حين بدا طالعا من سدّة الملك أعاد الى الاذهان جلالة أبيه المتوكل ، وقد جمع الى الجود طلاقة المحيا ، وبشاشة الوجه ،

رافع بن هرثمة واحدة .
اذكو تكين واحــدة .
وصيف الصغير خادم ابن أبي الساج واحدة .
الخضر بن أحمد سبع قصائد .
أبو المعمر الهيثم بن عبدالله واحدة
أبو الحسين محمد بن صفوان العقيلي واحدة .
سيما الطويل قصيدتان
الشاه بن ميكال أربع قصائد .

٤ ـ العمــال :

حمولــة ست قصائد .
اسحاق بن كنداجيق ثلاث قصائد .
ابن بســطام سبع قصائد .
أحمد بن محمد الطائي ست .
محمد بن العباس الكلابي واحدة .
أحمد بن الاسكافي ثلاث .
الحارث بن عبدالعزيز بن أبي دلف اثنتان .
بنو ثوابة أربع .
أحمد بن عبدالعزيز بن الشلمغان واحدة .
آل الفرات ثلاث .
أبو طلحة منصور بن مسلم واحدة .
علي بن محمد الفياض سبع .

٥ ـ الـكتاب :

كاتب ابن ليثويه واحدة .
جرادة الكاتب ثلاث .

وتجمعت في عهده بركات الارض من كل حدب وصوب ، ونضر عود العيش بعد يبسه وجفافه ، واستفتح عهده بالنصر المؤزر للخلافة على أعدائها :

لقد أمسكَ اللهُ الخلافةَ بعدما … وهت ، وتلابى سربها أن ينفرا
بمعتمدٍ فيها على الله أسندت … اليه ، فألفته الرضا المتخيرا

ولو لم يقم للمسلمين بحقها … لغودر معروفُ العواقب منكرا
ولما بدا من سُدّة الملك طالعاً … ذكرنا به خيرَ الخلائف جعفرا

شمائلُ مبسوط اليدين الى الندى … ووجهٌ أضاءَ الجودُ فيه فأسفرا
أتتْ بركات الارض من كل وجهة … وأصبح غصنُ العيش فينان أخضرا

وقد خبَّرَ الفتح المعجل أننا اقـ … ـتبلناه ميمونَ القيام مظفرا[1]

بين المهتدي والمعتمد :

وهذه مدحة للشاعر ، يرى شارح ديوانه انها في المعتمد على الرغم من اشارة الثعالبي في ثمار القلوب ص١٨٦ الى انها في المهتدي ، وعلى الرغم من ان الاوصاف التي ذكرت فيها قريبة من المهتدي ايضا[2] .

والحق ان من ينعم النظر في النعوت التي اسبغها الشاعر على الممدوح لا يسعه الا أن يذهب كما ذهب الثعالبي في انها مقولة في الخليفة الزاهد المهتدي . غير ان بيتا واحدا ورد في القصيدة صرح فيه باسم المعتمد وهو قولـه :

ان الخلافة أحمدت من (أحمد) … شيما أناف بها على الاحماد

ومعلوم ان اسم المعتمد هو أحمد . وأكبر الظن ان الشاعر نظم هذه

---

(١) الديوان ٢/١٠٥٥ .

(٢) انظر : الديوان ٢/٧٣١ الحاشية .

القصيدة في أواخر حياة المهتدي ولم يتسن له انشادها اياه ، فلما بويع المعتمد بالخلافة بعده نقلها اليه بعد ان أدخل أو حور البيت السابق ، ولعل ما يؤيد هذا ان تاريخ انشائها كان في السنة التي قتل فيها المهتدي وهي ٢٥٦هـ • ومهما كان الامر فان الشاعر انتقل بعد المقدمة الغزلية ودون حسن تخلص كما هي عادته في أغلب مدائحه الى الامتداح ، فهذه الخلافة وجدت في صاحبها من الشيم ما أناف بها على الحمد والثناء ، وانه متحل بالتقوى والتخشع ، وقد انحلته موالاته للصيام ، وبانت على جبينه سيما السجود ، وهذه النعوت مرت بنا كثيرا في مدائحه للمهتدي ، ولم يعرف بواحدة منها المعتمد الذي انصرف بكلته الى اللهو والملذات كما اسلفنا ، وهو جواد سمح اليدين كالبحر اعطاء ورفدا ، ومتكلم فصيح يجلو بخطبه ما يعتور النفوس من حيرة وارتياب ، وقد وجد فيه المسلمون أقرب الناس تقى وأكثرهم سدادا ، وانه يستقي فضائله ومحامده من آبائه واسلافه ، وان محلته لتعلو وترتفع على ما للعدى من الهمم ، وللحساد من النفاسة ، وهو حليم وقور حصيف ، تزينه شجاعة نادرة ، وتحليه يقظة متوثبة ، وقد ودت رعيته ، لما رأت فيه من اتباع الحق والمناضلة دونها ان لو قدم عهده في الحكم والميلاد • ومعلوم ان المهتدي كان شديدا في اتباع الحق لا تأخذه في مناصرته والاخذ به لومة لائم • وقد مرّ بنا في ترجمته ذلك •

وان بني العباس وجدوا فيه هداية لهم وتبصرة بأمرهم لما اتسم به من بعد البصر وثبت البصيرة ، فاقتفوا آثاره وساروا وراءه مهتدين بهديه ، ومستنيرين برأيه ، وهو لما اتصف به من الحلم ورحابة الصدر ، لا يؤاخذ من أساء وأذنب ، فهو عفوّ عن الجانين ، صفوح عن المذنبين •

وبعد أن أضفى الشاعر على الخليفة كل ما أعدّ من الصفات أنهى مدحته بالتلميح الى اعفائه من الخراج الذي يخشاه ويرهبه :

ان الخلافة أحمدت من أحمد
شيماً أناف بها على الاحماد

ملك تحييه الملوك ودونه
سيما التقى وتخشع الزهاد

وقذت موالاة الصيام تصرفاً
من لحظ ظمآن الهواجر صاد

متهجدٌ يخفي الصلاة وقد أبى
اخفاءَها أثرُ السجود البادي

سمحُ اليدين اذا احتبى في مجلس
كان الندى صفةً لذاك النادي

انظرْ اليه اذا تلفت معطيا
نيلا ، وقلْ في البحر والوراد

واذا تكلمَ فاستمع من خطبة
تجلو عمَى المتحير المرتاد

أفضى اليه المسلمونَ فصادفوا
أدنى البريّة من تقى وسداد

بفضيلة في النفس توصّل عنده
بفضائل الآباء والأجداد

ومحلة تعلو فتسقط دونها
همُ العدى ونفاسة الحساد

وزنوا الأصالة من حجاه وانما
وَزنوا بها طَوْدا من الأطواد

ووراءَ ذاك الحلـــم ليثٌ خفيـــة
مـــن دون حوزتهم وحيـــة واد

متيـــقظٌ عصمـــت بوادرُ أمـــره
بعرى من الرأي الأصيل شـــداد

* * *

ودت رعيتُهُ لـــوان ليـــاليـــا
قدُمـــت بـــه في الملك والميـــلاد

تبعتْ بنو العبـــاس هـــدى موفق
ثبتٍ البصيرة بالمحجـــة هـــاد

مستجلبٍ لهـم اجتهـــادَ نصيحـــة
مـــن اوليـــائهم وذود أعـــاد

وكأنهـم لمـــا اقتفـــوا آثـــارَهُ
تبعـــوا ضـــياءَ الكوكب الوقـــاد

ينسى الذنوب وما تقـــادم عهدهـــا
ملقى الضـــغائن دارسْ الاحقـــاد

تعفـــو لعفو اللـــه عنـــك تحرِّيا
والعفو خـــيرُ خـــلائق الأمجـــاد

* * *

أخشـــى الخراج وقد دعوتُ لعظمـــه
ملـــكَ الملوك ورافـــد الرفـــاد[1]

---

(١) الديوان ٢/٧٣١ ـ ٧٣٤ يحسن الرجوع الى مدائح الشاعر في المهتدي في الفصل السابق للوقوف على الصفات التي نعت فيها الخليفة المذكور ·

بعض الحوادث :

وهذه مدحة أخرى له في المعتمد ، انتقل بعد الغزل الى المدح فاشار على من يلتمس الجدوى ، ويطلب العطاء أن يطـرح الناس ويؤم الامام المعتمد الذي فاق الغيث المدرار كرما وجودا ، والذي اتصف بهمة عاليـة استمدها من أبيه المتوكل ، كما تحلى بخـلال كريمة لا حصر لهـا ، فأشرقت الدنيا بهاء ، وازدهت الليالي ضمنا ورواء ، اتسـم بدء عهـده بالانتصارات والفتوحات التي تعيد الى الاذهان انتصارات المسلمين في بدر وأحد . فهذه الانتصارات تتوالى صباح كل يوم بما توقعه جيوشه المظفرة بالاعداء والخارجين .

وهذه احدى الوقائع التى حدثت بين بعض الخارجين على الخلافة وهو عيسى بن الشيخ بن السليل ، وبين قائد من قواد الخلافـة وهو أماجور ، فقد قيل ان أماجور خرج من دمشق في سنة ٢٥٦هـ مرتادا لنفسه عسكرا ، فعلم به ابن لعيسى بن الشيخ وقائد لعيسى يقال له (أبو الصهباء) ، كانا معسكرين بالقرب من المدينة ، فزحفا اليه بجيش كبير ظنا منهما أن يوقعا به ، فلما التحم الجيشان في معركة حامية الوطيس قتل أبو الصهباء ، وفر الباقون ومعهم ابن عيسى المذكور[١] .

والبحتري يشير الى هذه الوقعة التى أودت بأبي الصهباء وأدت الى

---

(١) تاريخ الطبري ٩/٤٧٤ ـ ٤٧٥ ، تاريخ اليعقوبي ٣/٢٨٣ وفيه ان عيسى بن الشيخ بن الشليل (كذا) امتنع من البيعة بفلسطين فوجـه اليه برجل من الاتراك يقال له أماجور ، فقدم أماجور دمشق وزحف عيسى من فلسطين حتى أناخ بباب دمشق فحاصره ، فلما اشتد الحصار بدمشق خرج أماجور واصحابه من المدينة واتبعه ابن لعيسى يقال له منصور ، وخليفة له يقال له ظفر بن اليمان ويعرف بابي الصهباء فحمل عليهمـا أماجور واصحابه فقتل منصور بن عيسى بن شيخ ، وأسر المعروف بأبي الصهباء فضرب عنقه وصلب .

فرار جيشه أمام جيش الخليفة ، واوضح أن فرار المخذولين بدأ من قرى بلاس : وهي بلدة على بعد عشرة أميال من دمشق ـ وانتهى الى مشارف اللُد الواقعة على نحو (٦٨) كيلومترا من القدس • كما يشير الى ما أصاب الاعداء من الرعب والخوف حين سماعهم بتوجه طلمجور اليهم ، وطلمجور هذا أحد كبار قادة الاتراك ومن أصحاب المؤيد • ويبدو انه كان من مؤيدي صالح بن وصيف الذي استتر في سامراء في سنة ٢٥٦ﻫ بعد أن وصل موسى بن بغا اليها مطالبا اياه بدم المعتز وأموال أمه قبيحة[١] • ويظهر انه كان والياً على الري في سنة ٢٦٦ﻫ ثم أخرجه منها القائد التركي أساتكين[٢] •

فالرعب أصاب الاعداء حين طرق سمعهم ان هذا القائد سيسير اليهم على رأس جيش كثير العدة والعدد ، والشاعر يحث الخليفة على ارسال هذا القائد للحد من طغيان الاعداء ، ويتمنى أن يحقق ذلك كي يسير على منهاجه او يتسنى له ان يوافي البلد الذي يقصده :

أيها الجازع أجوازَ الفلا ... يطلب الجدوى من القوم الحمُدْ
خل عنك الناسَ لا تغرر بهم ... واعتمدْ بحر الامام المعتمد

ملكٌ يكفيك منه أنه ... وجدَ الدنيا فأعطى ماوجد
لو من الغيث الذي تجرى به ... راحتاه من عطاء لنفد

همةٌ نعرفها من جعفر ... وخلال فيه يكثرْنَ العدد
أشرقت أيامنا في ملكه ... وازدهتْ حسنا ليالينا الجدد
حققَ الآمالَ فيه كرم ... ملأ الدنيا عطاء وصفه

* * *

---

(١) الطبري ٩/٤٣٩ ـ ٤٤٠ •

(٢) نفسه ٩/٥٤٩ •

نُصرت راياتُه أو ناسبت ... راية الدين ببدر وأحد
فله كلَّ صباح في العدى ... وقعةٌ تلم فيهم وتهد

* * *

وأبو الصهباء قد أودى على ... حوله الجيلُ كما أودى لُبد
فرَّ عنه جيشه حيث الظُّبا ... شرَّع تفري طلاهم وتقد
من قُرَيَات بلاس ينتهي ... بهم الركض الى حيطان لُدّ

* * *

ولقد راع الاعادي خبر ... من طلمجور وقد قيل يفد
مستقلاً في رَها رجراجة ... للقنا فيها اعتدال وأَوَد
ارم بالكهل على جمهورهم ... ترم منه بالشهاب المتقد
علني أسري على منهاجه ... أو أوافي معه ذاك البلد[1]

واقعة الزاب :

وهذه مدحة أخرى له في المعتمد وقد اشتمل جزء منها على مدح وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان .

فهذا خليفة الله عاد بما للدنيا من حسن وبهجة ، وهو معطاء كريم ، وشديد الوطأة على من يخرج عليه ويجني ، وهو فخم رائع لا يضيق فناؤه بالوافدين عليه والمعتفين ، وداريء عن رعيته ما يرتكبه الاعادي والخصوم ، متيقظ لكل ما ينتابها من أمور ، حنون عليها حنو الآباء على الابناء ، وقد أسبغ على ذوي الخاصة والفاقة بما اشتهر به من جود وكرم ، فأحالهم الى أثرياء أغنياء ، وكان المعتمد مشهورا بالكرم كما أسلفنا .

والشاعر ينصح الاخرين بتجنب سخط الخليفة ، لان في سخطه

---

(١) الديوان ٢/٦٦٧ ـ ٦٦٩ .

الموت الزؤام ، والهلاك المحتم ، وهذا الخليفة مظفر في حروبه مانكاد تسمع في عهده الا بالانتصارات تتلوها الانتصارات ، فهذه ارسال خيوله ، ومقانب جياده معدة للاغارة على كل من تسول له نفسه شق عصا الطاعة والخروج عليه ولو كان في أقاصي البلاد وثغورها النائية • ويشير البحتري بعدهذا التمهيد الى واقعة حدثت في عهد المعتمد ـ على ما يبدو ـ بين جيوشه وبين الشراة بالقرب من الزاب وهو أحد روافد دجلة يقع شمال العراق •

ويظهر أن البحتري قد انفرد بذكر هذه الحادثة كما انفرد بذكر غيرها فيما مر بنا • اذ لم تشر اليها التواريخ التي سجلت حوادث السنة التي وقعت فيها وهي سنة ٢٥٦هـ غير ان بعض المراجع التاريخية أشارت الى ما حدث بين مساور بن عبدالحميد الشاري وعبيدة العمروسي وهو أحد الشراة أيضا في الكحيل ومقتل الاخير في سنة ٢٥٦هـ وفي أواخر أيام المهتدي كما اسلفنا[١] ، كما أشارت الى فتح مساور مدينة بلد القريبة من الموصل واحراقها ، الامر الذي أثار نخوة المهتدي فنادى في مجلسه بالنفير[٢] • وأشارت أيضا الى ان المعتمد وجه مفلحا القائد في سنة ٢٥٦هـ لحرب مساور والشارى الذى تراجع أمام جيش الخليفة الى ديار ربيعة سنجار ونصيبين والخابور ثم تهيأ له بعد قفول مفلح الى سامراء ان يستولي على أكثر أنحاء العراق[٣] • ولعل هذه الوقعة التي يشير اليها البحتري كانت بين مساور هذا وبين جيش الخليفة الذى كان يقوده مفلح •

ويظهر ـ اذا صح ما ذكره الشاعر ـ ان القتال كان شديدا والمعركة رهيبة وان الشراة لقوا على أيدي الجيش العباسي الكثير من العنت والقتل

---

(١) انظر ص١٩٠ من هذا البحث هامش (٢) وانظر : الكامل ٢٢٦/٧ •

(٢) انظر : ص١٩٠ أيضاً •

(٢) انظر : الامالي للقالي ٧٨/١ ، ووفيات الاعيان ٣٠٤/٢ •

حتى ان دماءهم اختلطت بمياه الزاب فأحالته أحمر قانيا •

عـاد بحسن الدنيا وبهجتهـا خليفـةُ اللّه مرتجى صَفَدُهُ
منخرقُ الكف باعطـاء مكيـ ـثُ السطو دون الجانين متئده

فخم اذا حطّت الوفود الـى فِنائه لـم يضق بها بلـده
رِدءٌ لأهل الاسلام أين عنوا متصل من ورائهم مدده

نكلأهم عينُهُ ، وترجفُ عن نقيصة أن تنالهـم كبـده
كـأنـه والديـرفُ بـه مفرطُ اشفاقه وهم ولـده

قد خصمَ الدهر عـن مقلهم بالجود ، والدهر بيّن لـدده
معتمدٌ فيهم على الله تقـا د الى سَيْبه فتعتمده

لاتقـربنْ سخطه فان لـه مستنقعاً يجتويه من يرده
مقلفر ما تكاد تسري من الآ فـاق الاّ بمُفرح بـرده

ان رفعت للعدى فساطلُهـا أنجـز صرف الزمـان مايعده
واقعـن جمع الشُراة محتفلا بالزاب والصبح ساطعٌ وقده

غداة يوم أعيا على عُصَبٍ من المحلين أن يكرَّ غده
أين نجـوا هاربين عارضهم باغٍ من الموت مشرف رصده

بـاتوا وبـات الخطىُّ آونـة منشبة في صدورهم قِصده
يختـلط الـزاب في دمائهـم حتى غدا الزاب مشربا زبده[(١)]

قصرا المعشوق والمشوق :

وهذه آخر مدحه للبحتري في المعتمد • ومن الجدير بالذكر ان البحتري قد أنشأ هذه المدحة بعد مرور حوالي عشر سنين على انشائه

---

(١) الديوان ٢/٧٣٥ ـ ٧٣٨ •

المدائح السابقة في الخليفة المعتمد ، فقد أشار فيها الى حوادث وقعت بعد سنة ٢٦٤هـ ، ومعنى هذا ان الشاعر قد احتجب عن بلاط الخليفة هذه المدة كلها ، ويبدو انه كان مشغولا بالتطواف في المدن والامصار لامتداح القواد والعمال والكتاب كما ذكرنا من قبل .

فبعد المقدمة الغزلية التي ذكر فيها بعض المواضع في الجزيرة العربية محاكياً بذلك شعراء العرب القدامى ، انتقل الى الشكوى من قلة ماله الذي لم يبق منه سوى ما يسد به خلة عائلته وذوي رحمه ، وهي شكوى ظهرت واضحة ملحة في قصائده في غضون هذه الحقبة مما سنشير اليه بعد هذا الفصل .

وأشار الشاعر الى التشفي مما أصاب أحد الوزراء الذين لم يأخذوا بيده مما كان يعانيه من مضايقة عمال الخراج له على ضياعه الكثيرة في الشام ، ولعله أراد به الحسن بن مخلد الذى كان وزيرا للمعتمد في سنة ٢٦٤هـ ثم هرب من سامراء بعد ان قدم اليها أبو أحمد الموفق أخو المعتمد[١] . ثم انتقل الى امتداح الخليفة الذى رأى فيه خير من يعضده وينصفه من خصمه ، ثم كرر الاوصاف والنعوت التى قالها فيه وفي غيره من الخلفاء ، فهذا المعتمد على الله مؤيد من الله بعهد وثيق ، وذو تدبير ينبيء عن اقتصاده فيما يعانيه من أمور ، ثم أقسم بالمواضع المقدسة والاماكن المشرفة انه ساس الامة سياسة الحاني عليها الشفيق بها ، وانه لم شعث أخوته ، وحدب عليهم بعد ان نالتهم جفوة ، وفرقهم العقوق ، فرأب صدعهم وانعش آمالهم بما منحهم من عطاء ، وأسبغ عليهم من منح . ثم أشار الى نهاية مساور الشاري الذي مات في سنة ٢٦٤هـ ، كما أشار الى يعقوب بن الليث الصفار الذي توفى سنة ٢٦٥هـ .

---

(١) الطبري ٥٤١/٩ .

وأشار كذلك الى صاحب ثورة الزنج الذي أسماه أحمق البصرة ، والى انه يلاقي عنتاً من مضايقة جيوش الخلافة له .

وبعد هذا التلميح بأولئك الخارجين على الخلافة الذين أشغلوها حقبة من الزمن عرّج على وصف قصري المعتمد : المعشوق والمشوق .

فالمعشوق : « من أعظم قصوره وأضخمها بناه في سامراء في الجانب الغربي من دجلة ، ويعرف هذا القصر الآن بين الناس باسم العاشق ، وما تزال أطلاله وآثاره شاخصة الى اليوم : وقد أشاد به كثير من المؤرخين القدامى فقال اليعقوبي : « وولى احمد المعتمد بن المتوكل فأقام بسر من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ، ثم انتقل الى الجانب الغربي بسر من رأى فبنى قصراً موصوفاً بالحسن سماه المعشوق ، فنزله فأقام به حتى اضطربت الأمور فانتقل الى بغداد » .

وقال ياقوت : « المعشوق : اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء ، في وسط البريّة ، باقٍ الى الآن ليس حوله شيء من العمران، يسكنه قوم من الفلاحين ، الا انه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان من القصور غيره ، وبينه وبين تكريت مرحلة ، وعمرّه المعتمد ... »[1] .

أما المشوق : فلم تشر اليه المصادر القديمة ، ولولا ذكر البحتري له عند وصفه لقصر المعشوق لجهلنا أمره جهلاً تاماً ، ويبدو من قول البحتري ان المعتمد قد أنشأ هذا القصر قبل انشائه قصر المعشوق »[2] .

---

(١) سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٨ . والجدير بالذكر ان شارح الديوان يقول في الحاشية (الديوان ١٤٦٤/٣) في معرض كلامه على قصور المعتمد نقلا عن ياقوت ... وعمرّ (أي المعتمد) قصرا آخر يقال له الاحمدي ،

والحق ان وصف البحتري لهذين القصرين وصف سريع خاطف أشبه بالتلميح فهو لم يعطنا صورة واضحة عنهما ، فالمعشوق قصر مبارك توالت في عهده الفتوح ، وازدهر الزمان ، وانه يطل على ضفة دجلة بوجه طليق مشرق ، يستقبل الشمس عند اول بزوغها • هذا كل ما جاء عن هذا القصر الضخم الذي كان يتألف من طابقين ويحتوى على العديد من الغرف والحجر والمرافق المختلفة •

أما المشوق ، فلم نعرف عنه شيئاً من الاوصاف سوى ان المعشوق بدا للعيون جميلاً مثله ، وانه أخذ في اللحاق به •

وأنهى الشاعر مدحته بالدعوة الى احتسائه الخمر على الانغام الرقيقة ، وارادها أن تكون صرفاً خالصة • ولعل ما جرأه على هذا ميل الخليفة الى ذلك ، وقلة احتشامه من التصريح بها :

سـألتُ عن مالي ولا مالَ لـي	غير بقـا يا تـركت للحقـوق
موجهـاتٍ لـذوي عيلـةٍ	تُقَضّ منهـم في فـريقٍ فريق
هلا اتقـى الظـالمُ من دعوتـي	تُقـاه مـن أنفيـة المنجنيق
زوتْ وزيرَ السوء عن ملكـه	الى المكـان المنتشق السـحيق

ولعل القصر الاخير (الاحمدي) هو الذي يسميه البحتري في البيت (٣١) المشوق ، او لعله (الهاروني) وهو قصر قرب سامراء ينسب الى هارون الواثق بالله ، وهو على دجلة بينه وبين سامراء ميل ، وبازائه بالجانب الغربي (المشوق) •

والحق أن أحدا ــ فيما نظن ــ من الخلفاء العباسيين في سامراء لم يحاول تغيير اسم أي قصر من القصور التي تنتقل اليه بحكم الاستخلاف ، على الرغم مما يدخلونه عليها من الاصلاحات والترميمات ، وقد بقيت هذه القصور محتفظة باسمائها الاولى •• وعلى هذا فمن المستبعد أن يكون المعتمد قد سمى الهاروني باسمه الخاص (الاحمدي) كما تخيل شارح الديوان •

مناكدٌ قـد كان من لؤمـه   يحمي على الناس بلالَ الحلوق

* * *

وفي أمين اللـه لـي منصـفٌ   ان حاد خَصْمي عن سواء الطريق
معتمـدٌ فيا على اللـه قد   أيـدَهُ اللـهُ بعقـد وثيق

ترى عرى التدبير يحكمن عن   مقتصـدٍ فيما يُعاني شـفيق
حلفتُ بالمسعى وبالخيف من   مِنى ، وبالبيت الحـرام العتيق

لقـد وجدنـا لك اذ سستنا   سياسةَ الحاني علينا الشفيق
جمعتَ أشتات بني جعفـرٍ   بالبرّ لما فُرّقـوا بالعقـوق

وكنت بالطَوْل الذي جئتـه   اليهـم بالأمس عينَ الخليق
وما أضعتَ الحق في أجنبٍ   فكيف تنسى واجباً في الشقيق
جادتْ لك الدنيا بما مانعتْ   وابتدأت في رتَق تلك الخـردق

* * *

فشيعةُ الشاري الى ذلّـةٍ   قد جنحوا للسلم بعد المروق
ورمّـةُ الصغار متروكـةً   رهناً لاحدى علقات العلـوق

وخائنُ البصـرة عند التي   نُخشى عليه لاحج في مضيق
بنوي فراراً لو يرى مخلصاً   من سبب يُفضـي به أو طريق

* * *

لا زال معشوقُك يسقى الحيا   من كلّ داني المزن واهي الخروق
فما قلونا مذْ رأيناهُ مـن   فتح جديـد وزمـانٍ أنيق

أشـرفَ نَظّـاراً الى ملتقـى   دجلـة يلقاها بوجـه طليق
وطالعَ الشمسَ على موعـدٍ   بمثل ضوء الشمس عند الشروق
لم أرَ كالمعشـوق قصـراً بدا   لأعين الرائين غير المشـوق

هذاك قد برّزَ في حسنه سَبَقاً ، وهذا مسرع في اللحوق
هما صبوح باكرٌ غيمه ثُنيَ في أعقابه بالغبوق

* * *

الماءُ لا يبعثُ لي نشوةً فعاطني سَوْرَةَ ذاك الرحيق
حسبُك أن تكسر من حدها بالنَغَم الصافي عليها الرقيق
آليتُ لا أشرب ممزوجةً ان لم تكن مزجة ريق بريق[١]

وواضح من هذه القصائد ان البحتري جهد في اول الامر ان يتقرب من الخليفة علّه يجد في كنفه ما وجده في كنف من سبقه من الخلفاء . ويبدو ان ضعف الخليفة ، وقلة ذات يده حالا دون ذلك .

ومعلوم ان شاعرنا كلف بالمال يسعى وراءه ما وسعه الجهد والطاقة ، وحين تبين له ان لا فائدة ترجى من الخليفة ولى وجهه شطر الوزراء والامراء والقواد والعمال ، ومعنى هذا انه لم يعد شاعر البلاط كما كان في عهد الخلفاء السابقين .

وقد استعاض عنه الخليفة بشاعر آخر اتخذه لنفسه لم نعرف عنه سوى انه أبو الطريف شاعر المعتمد العباسي[٢] .

ويخيل الينا ان الشاعر لم ينشىء القصيدة الأخيرة في الخليفة الا حين ضايقه أصحاب الخراج ، وشددوا عليه ، فثارت ثائرته ، وراح يلتمس

---

(١) الديوان ٣/١٤٦٤ ـ ١٤٦٨ .

(٢) انظر : الامالي للقالي ١/٧٨ ، ووفيات الاعيان ٢/٣٠٤ .

من اولى الامر أن يرفعوا عنه ما طولب به .

وواضح انه أنشأها وهو في سامراء ، ودليل ذلك وصفه لقصري الخليفة : المعشوق والمشوق !

ويمكن أن يقال عن شعر البحتري في المعتمد عموماً بانه لا يرتفع الى مستوى شعره الجيد الذي أنشأه في المتوكل والفتح والمعتز ، ويخيل الينا أن أحسن قصائده فيه هي القصيدة الدالية التي ينازعه فيها المهتدي .

الفصل السادس
البحتري ورجال الدولة
في
عهد المعتمد

أشرنا في الفصل السابق الى ان البحتري جهد في اول استخلاف المعتمد أن يتقرب منه ليحظى بمكانته السابقة كشاعر للبلاط ، وحين وجد وهن الخليفة ، وقلة ذات يده وهيمنة أخيه الموفق على شؤون الدولة رأى من الاصلح له ان يتزلف من الوزراء والقواد والعمال يمتدحهم وينتجعهم •

ويبدو ان سامراء في عهد المعتمد لم تعد المدينة الوحيدة التي كان الشاعر يقيم فيها فيطيل ، فقد عادت الى مسرح السياسة مدينة بغداد ، وظهرت الى جانبها مدينة واسط التي اتخذها الموفق وبعض وزرائه مقراً لهم يديرون منها حركات جيوشهم لمحاربة الخارجين على الخلافة : كالصفار وصاحب ثورة الزنج الذي استفحل أمره واستشرى خطره في خلال هذه الفترة •

غير ان سامراء بقيت على الرغم من ذلك حاضرة الخلافة ، ومستقر الخليفة الى سنة ٢٧٨هـ حيث انتقل المعتمد منها الى بغداد واتخذها عاصمة للخلافة العباسية بدلاً من سامراء[١] •

عبيدالله بن يحيى بن خاقان :

استوزر المعتمد في خلال خلافته الطويلة عدداً من الوزراء ، كان في مقدمتهم عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، ومن المحتمل ان يكون أكثر مقام الوزير المذكور في الحاضرة بجنب الخليفة •

وقد امتدحه البحتري بعدد من القصائد ، مما يدل على تردده على

---

(١) انظر : سامراء في أدب القرن الثالث الهجري ص ٣٤١ ـ ٣٤٢ •

هذه المدينة ، واقامته في ربوعها في غضون هذه المدة .

والحق ان كثيراً من شعر البحتري الذي قاله في هذه الحقبة من خلافة المعتمد ، كان ينتجع به رجالات الدولة ، وهم في غير هذه المدينة . وان ما أنشأه في بعض وزراء المعتمد ورجالاته غفل من أية اشارة الى المكان الذي كانوا يقيمون فيه ، ومع ان عبيدالله هذا كان يختلف الى بغداد في أيام وزارته ، فان البحتري لم يشر الى ذلك ، وعلى هذا فنحن نرجح ان ما أنشأه فيه كان يقصده به وهو مقيم في سامراء . واذا صح فنرى من المفيد قبل الكلام على قصائد البحتري في الوزير المذكور ان نلم بشيء يتصل بحياتـه .

فهو ابو الحسن عبيدالله بن يحيى بن خاقان ابن أخي الفتح بن خاقان ، صديق المتوكل وخدينه والمقتول معه في سنة **٢٤٧**هـ .

ولد عبيدالله سنة **٢٠٩**هـ[١] . ويبدو ان نجمه بدأ يعلو منذ سـنة **٢٣٦**هـ حين استكتبه المتوكل بعد صرفه لمحمد بن الفضل الجرجرائي عن الوزارة[٢] ، فقد رفعه المتوكل واعلى مرتبته ومحله وولاه ، وأمر أن يكتب مولى أمير المؤمنين ، كما أمره أن يأمر كتاب الدواوين أن يؤرخوا الكتب باسمه فاستعفاه من ذلك ، غير انـه كـان يولـّي عمـال الخراج والضياع والبريد والمعاون والقضاة في جميع الدنيا ، ولم يكن لأحد معه عمل[٣] .

ومكث عبيدالله وزيراً للمتوكل منذ سنة **٢٣٦** هـ الى ان قتل في سنة **٢٤٧**هـ ، وقد جبن في حادثة مقتل المتوكل حين عرض عليه الموالون لـه

---

(١) الديارات ص ١٢٦ .

(٢) انظــر : الطبري ١٨٥/٩ ، الكامل لابن الاثير ٥٦/٧ ، مروج الذهب ٦/٤ ، وفيه ان استكتاب المتوكل لعبيدالله كان في سنة ٢٣٣هـ ، في حين يذكر كل من الطبري ١٦٢/٩ وابن الاثير ٣٩/٧ ان المتوكل ولـّى يحيى بن خاقان والد عبيدالله ديوان الخراج بعد عزل الفضل بن مروان عنه ، ويبدو ان المسعودي قد خلط بين الامرين فاشتبه عليه .

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢٢١/٣ .

استعدادهم لتنفيذ ما يأمره به[١] . وذكر ابن عبد ربه ان عبيدالله هذا نفاه المتوكل الى جزيرة أقريطش فأقام فيها مدة ثم رضي عنه وصرفه الى أحسن حالاته[٢] . ولعل هذا النفي ـ اذا صحّ ـ كان قبل استكتابه .

ويظهر ان عبيدالله لم يكن على صلة حسنة بالمستعين الذي استخلف بعد المنتصر ، اذ أمر بنفيه الى برقة ومنعه من الحج وذلك في سنة ٢٤٨هـ[٣] .

وكان عبيدالله دمث الأخلاق ، مرضيّ السيرة ، محبوباً لدى الناس ، له معرفة بالحساب وشؤون الأموال ، وقد وصفه صاحب الفخري بقوله : « كان عبيدالله حسن الخط ، وله معرفة بالحساب والاستيفاء ، الا انه كان مخلّطاً ، وكان مجدوداً ، فكانت سعادته تغطي عيوبه ، وكان كريماً حسن الادب ، وكان كرمه أيضاً يستر كثيراً من عيوبه ، وكان فيه تعفف ، وكانت سيرة عبيدالله هينة ، والجند يحبونه ... »[٤] .

ويبدو ان الرجل لم يكن شجاعاً ولا قويّ الارادة ، ولعل احجامه عن نصرة المتوكل وعمه الفتح في ساعة محنتهما بعد ان كان بوسعه القيام بشيء ما ـ خير دليل على ذلك .

ولما ولّي المعتمد الخلافة اتفقت الآراء على استيزار عبيدالله هذا فاحضر واستوزر بعد تمنع منه وتنصّل[٥] .

وبقي في منصب الوزارة الى سنة ٢٦٣هـ حيث سقط عن دابته في الميدان فمات وكان موته في مدينة بغداد[٦] .

---

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

(٢) العقد الفريد ٥/٤٠٦ .

(٣) الطبري ٤/٢٥٨ ، الكامل ٧/١١٩ ، تاريخ اليعقوبي ٣/٢٢١ ان هذ االنفي كان في اول سنة ٢٤٩هـ .

(٤) الفخري ص٢٣٨ ، وانظر ص٢٥١ من المرجع نفسه .

(٥) الفخري ص٢٥١ ، الطبري ٩/٤٧٤ .

(٦) الطبري ٩/٣٥٤ ، ٥٣٢ ، وابن الاثير ٧/٣١٠ .

وللبحتري فيه تسع قصائد ومقطوعة يبلغ عدد أبياتها جميعاً (٢٠٩) تسعة ومائتي بيت .

وهذه القصائد ـ على ما يبدو ـ ما عدا واحدة منها كان مما أنشأه فيه في اثناء وزارته للمعتمد .

والغريب ان البحتري لم يذكر عبيدالله هذا في شعره في غضون الحقبة التي كان يحتل بها مركزاً مهماً في عهد المتوكل . ولعل انصرافه الى الخليفة والفتح حال بينه وبين ذلك .

وهناك ظاهرة واضحة في شعر البحتري تلفت النظر حقاً ، وهي علاقته بمن يتصل بهم من الرجال الذين ينتجعهم ويسترفدهم ، فهو ما يكاد يتصل بشخصية ذات أهمية حتى يلقى بكل ثقله نحوه ، ويمضي يوالي فيه قصائده الواحدة تلو الاخرى ، حتى اذا استنفد ما عنده ، او حصل على بغيته منه انصرف عنه الى غيره وقطع صلته به .

وان نظرة سريعة في ديوانه لتبين بجلاء هذه الظاهرة .

بنو خاقان :

ولعل اول مدائحه فيه وأقدمها هذه القصيدة التي بعث بها اليه من سامراء ، وهو يتقلد قنسرين والعواصم كما تقول مقدمة الديوان .

ومن الجدير بالذكر ان المصادر التي ترجمت لعبيدالله لم تشر الى انه تولّى هذا المنصب ، ولعله تولاه في عهد المستعين في حدود سنة **٢٥٠**هـ الذي نفاه الى برقة ، ومنعه من الحج في سنة **٢٤٨**هـ كما مرّ بنا .

وقد أظهر البحتري في قصيدته هذه ـ بعد المقدمة الغزلية ـ عصبيته لبلده الشام الذي حزن عليه وأسف لما أصابه من خصاصة وعوز بعد رحيل عبيدالله عنه الذي أحسن اليه وأفضل عليه ، واستطرد مفتخراً ببلده ومفاخراً

به ، فهذه حلب ان كانت تبدي الكآبة لرحيل الممدوح عها فانها غلبت على انهمار القطر وصوبه التهتان ، وفاقت البرود الموشاة بأنيق رياضها ، وأفواف أزاهرها ، ذات الشيات والالوان ، وان الممدوح الذي شبه بالغيث قد رحل عن الغرب الى الشرق فسقى فارس بعد ان اشتد فيها الظمأ ، ثم عاج في أهل الفرات فكان لهم فراتاً ثانياً .

ونعته بالملك الذي وجد في كنفه نعيم العيش ، وغضارة الحياة ، وقد التزم العدل في حكم الرعية والتلطف في جباية الخراج ، فكان خير ممثل للسياسة التي سار عليها قومه الخاقانيون الذين عرفوا بتقى الله ، ونصيحة السلطان وسمو المجد ، والذين كانت تبهى بهم المواكب والمجالس لما كانوا عليه من التبجيل والوقار ، ثم انتقل الى الثناء على ذات الممدوح الذي يفديه بنفسه لما كان يوليه اياه من الاحسان والافضال حتى ليعده خله وأخاه الذي كفاه كلّ حاجاته ورغباته واذا كانت الحوادث قد حرمته من عطاء المتوكل بسبب مقتله ، فان ممدوحه هذا ليسد مسده في كل شيء .

والبحتري ـ كما قلنا أكثر من مرة ـ كان يردد في ثنايا الكثير من قصائده اسم وليّ نعمته المتوكل الذي وجد في ظله من الاكرام والاعزاز ما لم يجده في ظل خليفة آخر(١) :

عصبيتي للشام تُضرم لوعتي وتزيدُ في كَلفي وفي أشجاني
كانت بعبدالله أحظى خطةً بنوافل الافضال والاحسان
حتى ترحّلَ سائراً فتبدلت بعد العطاء غضاضةَ الحرمان
ان تكتئبْ حلبٌ فقد غلبت على حلبِ الغمام وصوبه التهتان
وعلى أنيقِ الروض يزهر بينه أفوافُ نَوْرٍ معجب الألوان

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص٢٨٥ ـ ٢٨٧ .

من واضح يقَق ، وأصفر فاقع ومضرّج جسد ، وأحمر قاني
غيث تحملَ عنهم متوّجهاً من غربهم لمشارق البلدان

ان أسقيته فارس فبعقب ما ظمئت جوابُ ربعها الحرّان
او عاج في أهل الفرات فاته سيُقال جاءهم فرات ثان

ملك هصرنا العيش في جنباته غضّ المكاسر لين الأفنان
أعطى الرعيةَ حكمها من عدله في السر مجتهداً وفي الاعلان

غيرُ العنوف الفظّ حين يجدّ في جمع الخراج ، ولا الضعيف الواني
وهي السياسةُ لم تزل معروفةً لذوي السياسةِ من بني خاقان

المعلنين تقى الاله وخوفَه والمؤثرين نصيحة السلطان
والرافعين بناءَ مجدٍ لم يكن ليطولَه يوم التفاخر بان

تبهى المواكبُ والمجالس منهم بمبجلّين على الوقار رزان
نفسي فداءُ أبي محمد الذي ما زلتُ أحمد في ذراه مكاني

خلٍّ بلغت برأيه شرف العلا وأخ غنيتُ به عن الاخوان
واذا المسافة دون نائل جعفر بعدت عليّ فان نيْلك دان[1]

سياسة :

وهذه أبيات له ـ ولعلها من قصيدة خرم منها القسم الغزلي ـ يشير فيها الى سياسة عبيدالله تجاه بعض الخارجين على الخلافة ، وأخذه اياهم بالرفق واللين حتى استطاع أن يكسبهم الى جانبه ويتخلص من شرورهم •

ومن اولئك الخارجين عيسى بن الشيخ الذي امتنع عن البيعة بفلسطين سنة ٢٥٦هـ وزحف الى دمشق فحاصرها وقطع الاموال عن الخلافة ،

(١) الديوان ٤/٢٢٣٧ ـ ٢٢٤١ •

فارسل اليه جيش بقيادة أماجور التركي الذي التقى مع منصور بن عيسى فقتله ، ثم عرض على عيسى ولاية أرمينية على ان يقيم الدعوة للمعتمد فقبل ذلك بعد تمنع .

فالبحتري يشير الى عمل الوزير هذا ونجاحه في كسب هذا الخارجي الذي أصبح يرد عادية الروم ، ويذود عن حمى الخلافة بعد ان كان لا يقل في شروره وعدوانه عنهم .

ثم يشير أيضاً الى تلطف الوزير بالصفار الذي استفحل أمره في هذه الاثناء كما أشرنا من قبل .

فعمل الوزير السلمي هذا قد عاد على الخلافة بالنفع العميم ، اذ قضى على كثير من الفتن والاضطرابات دون اراقة دماء ، كما ضمن بهذه السياسة اموال مصر الكثيرة التي كانت تمنع من الوصول الى حاضرة الخلافة . ولعل الشاعر يريد بذلك استيلاء عيسى بن الشيخ على تلك الاموال في سنة ٢٥٦هـ ، أيام امتناعه عن البيعة وعصيانه في فلسطين . فقد أشار ابن الاثير في الكامل الى انه « لما استولى ابن الشيخ على دمشق ، وقطع الحمل عن بغداد ، اتفق ان ابن المدبر حمل مالاً من مصر الى بغداد ، مقداره سبعمائة ألف دينار فأخذها عيسى بن الشيخ فارسل من بغداد اليه حسين الخادم يطالبه بالمال ، فذكر أنه أخرجه على الجند ... »[1] . وهـــذا العمل جدير بان ينعت صاحبه بالتدبير الموفق ، والسياسة الحكيمة .

ويشير البحتري بعد ذلك الى التواء أمر الممدوح عليه ، وقلة التفاته له ، مع انه يمت اليه بالذمام القديم ، والمنزلة التي كانت له في عهد المتوكل ، والذي قطع على نفسه عهداً بعد مصرعه أن لا يقرب الراح حزناً عليه ، وقد برّ بوعده ، وله من الشهود العدول ما يؤيد ذلك ويؤكده :

---

(١) الكامل في التاريخ ٢٣٨/٧ .

رددت بعيسى الروم من حيث أقبلت — وكان نظيرَ الروم او هو أزيد
عدوّ أجلْتَ الرأي حتى جعلته — وليّاً يسرّ النصر فيه ويحمد
ومازلتَ بالصفار حتى رمى به — الى الشرق لطفٌ من تأتيك اوحد

عساكرُ شتى من أعاد هزمتها — ومانازعتْ في هزمهن يدا يد
وكنت متى حاولتَ قهر محارب — بلغتَ الذي حاولت والسيف مغمد

وسوغتَنا أموال مصرَ هنية — وقبلك كانت غصة تتردد
مشاهدُ من تدبير رأي موفق — اذا فاتَ منها مشهد عاد مشهد

أعينَ ببادیها الخليفةُ جعفر — وخُص بتاليها الخليفة أحمد

* * *

فلمْ يلتوي أمرى عليك وشأنه — صغير ، ومأتى نجحه ليس يبعد
ولي غيرُ حق واجب ان رعيته — فمثلُك يرعى مثله ويؤيد

أمتُّ اليك بالذمام الذي خلا — ومنزلة من جعفر ليس تجحد
واني هجرت الراح حولا مجرّماً — له وشهودي بالذي قلت شهد

فلا أحرمنْ والفضل عندك يرتجى — ولا أظلمنْ والعدل عندك يوجد[1]

وزير كفء :

لم يقصر البحتري على امتداح عبدالله بقصائد خاصة به بل امتدحه ضمن مدحه للخليفة المعتمد أيضا • وهذه أبيات من احدى مدائحه في المعتمد أشاد فيها ـ بعد اشارته الى حادثة الزاب التي خذل فيها الشراة أمام الجيش العباسي ـ برضاء الموالي على الوزير ؛ لانه جرى في حسن ظنه بهم على سنن الخليفة ومذهبه ومعلوم ان البحتري ما يفتأ ينتهز كل مناسبة سانحة للاشادة بالموالي وتبيان فضلهم على الخلافة ، بما يقومون به من محاربة الخارجين والقضاء على الفتن والاضطرابات ، وان كانوا هم

---

(١) الديوان ١/٥١٦ ـ ٥١٧ •

أنفسهم قد أشاعوا الخوف ، وأكثروا الفساد والافساد . ومضى الشاعر يعدد النعوت والصفات التي تحلى بها الوزير ، وهي اليقظة والحرص على معالجة أمور الناس ، والترفق في جميع الاموال وجبايتها ، فكان خير وزير كفء ، وسائس للامور ، ومدبر للشؤون وكتوم للاسرار ، ومفرّج للكروب ، ومقوّم للزيغ والاعوجاج :

أرضى الموالي نصحٌ يظل عبدُ الـ ... ـله يغلو فيهم ويجتهده
يجري على مذهب الامام لهم ... ويحتذي رأيَه فيفتقده

ويغتدي في صلاح شأنهم ... لسانُهُ المكتفى به ويده
يستثقلُ النائمون من وسَن ... وهو طويل في شأنهم سهده

ترفقاً في اطلاب مالهم ... وجمعه ، أو يعمهُم بدده
ترفّقَ المرء في ذخيرته ... آذاهُ ضيق الزمان اوصلده

وزير مَلْك تمت كفايته ... فلم يهنْ حزمه ولا جلده
مأخوذةٌ للأمور أهبتُهُ ... تسبقها قبل وقتها عدده

لا تهضمُ الراح حدّه أصلاً ... ولا تبيت الاوتار تضطهده
لا يصل الصاحبُ الأخصُ الى ... مطوىً سرٍّ أجنه خلده

ان غلّس المدهنون في ضمر ... أضحى على الحق ظاهرا جدده
أو عالجَ الأمر وهو ممتنع ... تيسرتْ لانحلاله عقده

قوّمَ ميل الزمان فاطأدتْ ... لنا أو أخيه واستوى أوده(١)

وواضح ان البحتري كان صادقا في اسناد الصفات التي يجب ان تكون في رجل الدولة ، ومصرّف أمورها ، وقد فعل مثل ذلك في نعته

---

(١) الديوان ٢/٧٣٨ — ٧٣٩ .

للفتح بن خاقان عم الممدوح من قبل[1] .

البحتري والتقسيط :

كنا نود أن نرجىء الكلام على ضياع البحتري وما عاناه في سبيل المحافظة عليها الى فصل قابل ، غير انا نرى من الضرورة ان نلم بشيء من ذلك في هذا الموضع من البحث ؛ بسبب القصائد التي رفعها الشاعر الى عبيدالله بن يحيى بن خاقان في خلال وزارته هذه .

وقبل ان نسوق شكوى البحتري في هذه القصائد نرى لزاما علينا ان نقف عند نقطة نراها جديرة بالاهتمام وهي تتصل بالسنة التي طولب فيها الناس بالتقسيط .

فشارح الديوان يؤرخ القصائد التي شكا فيها الشاعر هذا الامر والتي رفع بعضها الى عبيدالله وبعضها الآخر الى الحسن بن مخلد قبل استيزاره في سنة ٢٥٦هـ ، ومعنى هذا ان التقسيط فرض على الناس منذ أول استخلاف المعتمد وأول استيزار عبيدالله ، وهو أمر نراه بعيد الاحتمال ؛ فالمعروف ان الخلفاء كانوا يبدأون عهودهم بالتخفيف عن كواهل الرعية تحببا اليهم ، وتقربا من نفوسهم ، وتثبيتا لسلطانهم ، كما ان الدولة لم تكن في ضائقة مالية في هذه السنة بالذات ، وانما كان ذلك بعد فترة غير قصيرة من حكم المعتمد ، وبخاصة في الفترة التي بدأ بها صاحب ثورة الزنج يشدد الخناق على الخلافة ، ويعيث في مدنها الفساد ، ويحل في ربوعها الدمار .

وذكر الصولي في أخبار البحتري عن ابن البحتري انه قال : « لما طولب الناس في أيام المعتمد برد الاقطاعات ونقص الايغار ، وقسطت

---

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل الفصل الثاني .

على الضياع الاموال ، طولب ابي بمثل ذلك ، فقال :

أمرتجع مني حباء خلائف   توليت تسيير المديح لهم وحدي

الابيات ... ثم رأى انه لا يخلصه من ذلك الا ابو محمد الحسن ابن مخلد فمدحه بقصائد منها ... »[1] .

وعلق محقق الكتاب على هذا الخبر بقوله : « حوالي سنة ٢٧٠هـ وقعت الخلافة العباسية في أزمة مالية ، وأصبح من العسير على الموفق تأمين حاجات جنده للقضاء على المتمردين في الاطراف ففكر بفرض قرض اجباري يدفعه التجار والعمال والكتاب للدولة ، ويرد اليهم عند الاتساع عليها ، وطلب من الوزير صاعد بن مخلد تنفيذ ذلك ، فاستوحش الوزير وتردد ... »[2] .

ومعنى هذا ان التقسيط لم يفرض الا في عهد استيزار صاعد بن مخلد الذي ولى الوزارة سنة ٢٦٥هـ ، وان الضائقة المالية التي يشير اليها المحقق كانت في سنة ٢٧٠هـ .

ومن الطريف حقا ، انا نرى المحقق يقول في الهامش رقم (٣) الذي يلي الهامش (٢) في ص ١٠٩ ما نصه : « أصبح للبحتري في منبج أملاك وضياع جليلة في نهاية العمارة والحسن (نشوار المحاضرة ٣٦/٨-٣٧) و « كتب وكيل البحتري من منبج يعلمه ان العامل قد تحامل عليه في خراجه ، وعارضه فيما أقطعه السلطان بما يكره ؛ وانه أدخله في جملة أهل البلد في التقسيط. فقامت على البحتري القيامة ، وصار الى ديوان عبيدالله بن يحيى بن خاقان ، والعمال والكتاب مجتمعون فشكا اليهم ما كتب

---

(١) أخبار البحتري ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) نفسه ص ١٠٩ هامش (٢) .

به وكيله »[1] . ثم أحال المحقق الى مختصر طبقات الشعراء لابن المعتز الذى أضاف الى ما تقدم « فقال له بعض العمال : تحتاج الى بذل لكتب الى العامل هناك أن يجرى ضياعك على ما لم تزل ، فأنشأ البحتري يقول[2] : « وذكر الابيات التي سنذكرها بعد قليل » .

فالخبر المتقدم يشير الى ان التقسيط فرض على الناس في عهد عبيدالله ، وان البحتري حين أعلم بذلك قامت قيامته فدخل على عبيدالله في مجلسه وأعلن شكواه ، ثم اعقبها بعدة قصائد في هذا الشأن .

ومعلوم ان عبيدالله توفى سنة ٢٦٣هـ كما أسلفنا ، وعلى هذا فان ما ذكره محقق اخبار البحتري من ان التقسيط فرض على الرعية في سنة ٢٧٠هـ بسبب الضائقة المالية بعيد الاحتمال أيضا ، اذ كيف يفرض التقسيط على الناس سنة ٢٧٠هـ في حين ينشىء البحتري فيه قصائد تعود الى سنة ٢٦٣هـ على أقل تقدير ؟

ونحن نرى ان أمر التقسيط لم يكن في ٢٥٦هـ كما يرى شارح الديوان ، كما لم يكن في سنة ٢٧٠هـ كما يقول محقق أخبار البحتري ، وأغلب الظن انه فرض على الناس في أواخر ايام عبيدالله بعد ان استفحل أمر الخارجين على الخلافة .

ولعل اول ما أنشأه البحتري بهذه المناسبة هذه الأبيات التي تدل على عمق تأثره ، وشدة ألمه . وفي الحق انها صرخة مدوية في وجوه الخلفاء الذين دبج فيهم روائع خرائده ، وسكب عصارة ذهنه ، وأفنى زهرة عمره ، فهو يقول بأعلى صوته : هل سيسترجع منه ما حباه به

---

(١) نفسه ص ١٠٩ هامش (٣) .

(٢) طبقات الشعراء ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ طبعة دار المعارف ، وانظر : الديوان ٤٩٣/١ الحاشية .

الخلفاء الذين انفرد بتسيير مدائحه فيهم ، حتى طبقت الآفاق ، وانهم مدينون له بشهرتهم بما نسجه فيهم ولو اعطوا ما أعطوا ، فاذا فرض التقسيط على الناس ولم يُجد ما في السجلات من توكيدات تضمن حقوقه وتؤيد مناصرته فليردوا ما أنشأه فيهم من القوافي السائرة التي أكسبتهم من الثناء والمجد ما خلدهم مدى الدهر ، وليعيدوا اليه شبابه الذى افناه في خدمتهم وامتداحهم •

وما له وهذا التقسيط الذى فرض على الآخرين ، انه لا يشبه من فرض عليهم ؛ لانه شاعر وسبيله ان يُعطى ولا يُعطي ، وانه لمن الغريب أن يطالب بما أتعب فيه ذهنه ، وأجهد قريحته ، وأفنى شبابه :

أمرتجَعٌ مني حباءُ خلائف
تولّيت تسيير المديح لهم وحدي ؟

ولم يشتهر الا الذي قلتُ فيهم
وان رفَدوا يوما وزادوا على الرفد

فان أخذ الايغارُ أخذ صريمة
ودارت على الاقطاع دائرةُ السرد

ولم يغن توكيدُ السجلات والذي
تناصرَ فيها من ضمان ومن عقد

فردُّوا القوافي السائرات التي خلتْ
وماكسبتكم من ثناء ومن مجد

وشرخَ شباب قد نضوت جديده
لديكم كما ينضو الفتى سَمَلَ البرد

وما أنا والتقسيطُ اذ تكتبونني
ويكتب قبلي جلّةُ القوم او بعدي

سبيلي أن أعطى الذي تسألونني
وحقي أن يجدى علي ولا أجدي

تبعت رجالا أطلب المال عندهم
فكيف يكون المال مطلبا عندي(١)

واردف البحتري الأبيات السابقة بقصيدة بعث بها الى عبيدالله من مدينته منبج . ويبدو من قول الشاعر في البيت الثاني :

وما حبست (بغداد) منا عزيمة
بمكتوم ما نهوى بها ومذاعه

ان الممدوح كان آنذاك في بغداد ، ومما جاء فيها في أمر التقسيط قوله :

كفاني من التقسيط فحش عيانه
وقد ذعرتني مندبات سماعه

تعمده في الأمر الجليل ، ولا تقف
عن الغيث أن تروى بفيض بقاعه

فلن تكبر الدنيا عليه بأسرها
وقد وسعتها ساحة من رباعه(٢)

ثم أخذت قصائده في هذا الصدد تنثال على عبيدالله يشكو في بعضها ما طولب به ، ويشكو في الاخرى صنيع الوزير الذى رفع عنه الحيف ، وأزال عن صدره الكرب ، منها هذه القصيدة التي ـ كما يبدو ـ قصد بها عبيدالله ، وأطال المقام آملا أن يحظى بالمثول بين يديه . وبدأها بذكر

---

(١) الديوان ٤٩٣/١ ـ ٤٩٤ .
(٢) الديوان ١٣١٩/٢ .

همته التي كلفته الكثير ، وانتي كانت تزجية لمواصلة الرحيل والتماس الرفد ، ثم التفت الى الممدوح فأطراه وأثنى عليه وأشار الى أمر التقسيط الذي أفزعه وأرهبه ، والذي أنقذه منه الوزير المذكور ، ودافع عن نعم الآخرين التي كادت ان تطوح بها الطوائح ، وأشار كذلك الى اطالته المقام والانتظار للوصول الى الوزير ، حتى سئم المقام ، ومل الانتظار ، وعزم على الرحيل والقفول :

أيهذا الوزير تمَّ لك الطَّوْ ل ، ولازلت ترتجى وتنيل
أنت فينا بقيةُ الدين والدنـ ـيا ، وظلُّ النعمى علينا الظليل

ما بلغنا التقسيطَ حتى خشينا عثرة مايقالُها المستقيل
قد لعمري دافعتَ عن نعم القو م أوانَ انكفت وكادت تزول

مانعاً من جليل ما أسلموه انما يدفعُ الجليلَ الجليل
حسبُنا الله في ادامة ما عوَّدتنا فيـك ، وهو نعم الوكيل

وسئمتُ المقام حتى لقد صا ر شبيهاً بالنُجح عندي الرحيل
ومتى رمتُ نصرة من شفيعي فشفيعي عن نُصرتي مشغول

بين كأس وعلّةٍ ، فهو اما مبتدي نشوة ، واما عليل
جمعةٌ تنقضي وشهرٌ يوفي عدَّ أيامه ، وحول يحول

أنا غادٍ ورائح عنك بالشكـ ـر فماذا ترى ، وماذا تقول ؟(١)

الوهوب المعطاء :

وتتوالى مدائح البحتري في الوزير بعد ان انقذه من أمر التقسيط ، وهذه أبيات يثني فيها على كرمه وانجازه وعوده ، واقالته له من عثرات الخطوب ، وحياطته من هفوات الزلل ، وتعهده بانجاح مسعاه ، وقد شمل

---

(١) نفسه ٣/١٧١١ ـ ١٧١٢ .

الناس بكرمه الفياض وعطائه الجم ، ولم يلجأ الى ما يلجأ اليه الآخرون من التعلل والاعتذار ، والمماطلة والتسويف :

رأيتــك تُنجـز مالم تعــد   وفاءً ، وتفعلُ مالم تقــل
ســألتُ بقـــدري فاعطيتني   بقدرك تُضعف ضعفاً بكل

فما ضرني النقصُ في همتي   اذا كنت تُضعف لي ما أسل
وآمنتني من شَمات العدى   على الخوف من كرهه والوجل

فآمنك اللهُ عثــرَ الخطو   ب ، وحاطك من هفوات الزلل
ولمــا تضمنتَ أمــرى قعــد   تُ عن السعي ذا ثقة متكل

وقلــتُ : نعم نجحت حاجتي   وكنتُ أقول : عسى اولعل
وقــد علم القوم أن الذي   تُحَمّلُ لابــد أن يحتمل

وأنــك تــسعفهم بــالكثـ   ـير ، فلمْ لا تساعفُ فيما يقل
ولــم تعتللْ في الذي يطلبو   ن فتقبلَ فيما طلبت العلل

ولم تبتذلهــم بمنــع الخطيــ   ـر فترضى لجاهل ان يبتذل[1]

شكر وحاجة :

وهذه مدحة أخرى للشاعر في عبيدالله انشأها بهــذه المناسبة . واستهلها بالغزل كما هي العادة ، ثم انتقل الى الثناء على الوزير الذي كرّر أخذه الناس بالرفق واللين . ولعله يومي بذلك الى التخفيف في أمر التقسيط ، ونعته بالتدبير والصلاح وقوة العزيمة ، وشكره على ما أسداه له من نعم تليدة وطريفة ، ولكن البحتري لم يكتف بهذا بل أخذ يلمح الى انجاز حاجات جديدة ، يأملها في ممدوحه الذي عليه اعتماده ، واليه قصده :

---

(١) الديوان ٢/١٩١٠ .

لقــد أجـرى الوزيرُ الى خلال
مــن الخيرات زاكيـةِ العـداد

توخّى الرفــقَ غير مضيع حــزم
ولا متنكــب قصــدَ الســداد

ولمــا دبّرَ الدنيــا اســتعاضت
جوانبهــا الصلاحَ من الفســاد

تحــلُ بذكــره عُقَدُ النواحـــي
وتفتــح باســمه أقصى البــلاد

اذا أمضــى عزيمتَه لخطــب
كفــاه العفــوُ دون الاجتهــاد

ســأشــكر مــن عبيدالله نعمــى
تقــدّم عــائد منهــا وبــاد

ومن يأملْ أبا الحسن المرجــى
يبتْ ومــرادُه خــير المــراد

فــداؤك من صــروف الدهــر نفسي
وحظــي من طــريف او تــلاد

أتبعُــدُ حاجتــي واليك قصــدي
بهــا ، وعــلى عايتك اعتمــادي ؟

ســيكفيني مقــامٌ منك فيهــا
حميــدُ الغب محمــود المبــادي[1]

---

(١) الديوان ٦١٢/١ ـ ٦١٣ .

عراقة محتد :

ومن جياد مدائحه في عبيدالله هذه القصيدة التي افتتحها بالغزل المعتاد وذكر همته وتنقله وجوبه الفيافي وما عاناه من جراء ذلك ، ثم انتقل الى امتداح بني خاقان اسرة الممدوح فأشاد بمجدهم وأخلاقهم ، ثم أثنى على عبيدالله الذى انصرف اليه بهمته دون سـواه ، ومازال يلهج بشكره لما أولاه اياه من نعم سابغة ، وهبات وفيرة ، ثم كر راجعـا الى امتداح اسرته الأعجمية العريقة في كرمها ، الكريمة في محتدها ، وانه ليمثل من هذه الاسرة ذراها : مجدا وخلقا وتدبيرا ووقارا . وان الدهر ليبسم عن طلاقة بشاشته ، والعيش ليرطب عن نضارة عوده ، وانه نصيح للسلطان ، والمعي في حل المعضلات ، حازم الرأي ، ماضي العـزيمة ، ولهذا كله فهو جدير بأن يتخذ ذخرا للملمات وان يمد له في عمره ، مكلوءا بعناية الله وحياطته :

أعلى بنو خاقانَ مجداً لم تزل ... أخلاقُهم حبسـا على تشييده
والى ابي الحسن انصرفتُ بهمتي ... عن كلِّ منزور النوال زهيده

أثنى بنعمته التي سبقتْ لـه ... ومزيدهِ من قبل حين مزيده
وعلوّه في المكرمات فجودُه ... فيها طوال الدهر فوق وجوده

واذا أشار الى الأعاجم أعربتْ ... عن طارف الحسب الكريم تليده
عن مستقرٍّ في مراتب مجدهم ... في باذخٍ نائي المحل بعيده

تجري خلائقه اذا جمَدَ الحيا ... بغليـل شـانئه وغيـظ حسوده
يفدي عبيدَالله من حسـاده ... من بات يَرْبَأ عنهم بعبيده

أرِجُ الندى ينبث في معروفه ... من عَرْفه ويزيد في توكيده
ومبجلٌ وسط الرجال خفوفُهم ... لقيـامه ، وقيامهم لقعـوده

الدهر يضحك عن بشاشة بشره ... والعيشُ يرطب عـن نضارة عوده

ونصيحةُ السلطان موقع طرفه ونجيُّ فكرته، وحلم هجوده
ان أوقع الكتابَ أمرٌ مشكل في حيرة رجعوا الى تسديده
والحزمُ يذهب غيرَ ملتاث الى تصويبه في الرأي أو تصعيده
أوفى على ظلَم الشكوك فشقَّها كالصبح يضرب في الدجى بعموده
نعتدُّه ذخر العلا وعتادَها ونراه من كرم الزمان وجوده
فالله يُبقيه لنا ويحوطه ويُعزه ويزيد في تأييده[1]

بنو خاقان أيضا :

ولعل آخر ما أنشأه في عبيدالله هذه القصيدة التي جمع فيها الأوصاف والنعوت التي بثها في مدائحه السابقة فيه، فبعد التمهيد الغزلي المألوف انتقل الى امتداح آل خاقان الذين نعتهم بكرم الاخلاق وطيب الشيم، وانهم ينتمون الى بيت عريق في مجده، عظيم في مسعاه وعلاه، وان عبيدالله ليكسبهم ـ بدماثة خلقه، وجميل سيرته، وعظيم مجده ـ محبة من قلوب العرب والعجم، وهو جواد معطاء وكريم مفضال، حتى لامه العاذلون فيما شاهدوه من سماحته وفيض نداه، وانه أقام بحسن تدبيره قناة الملك فاعتدلت واستقامت، وقد حصف رأيه، واكتمل حلمه، واشتدت شكيمته ولما يزل في عنفوان الشباب، فكيف به وقد قطع مرحلة الشباب، واجتاز عتبة الكهولة، ودلف الى مرحلة من العمر، تكسب صاحبها الخبرات والتجارب ؟

ومضى البحتري يشيد باوصافه، ويطرى هيمنته على الامور، واصغاءه لذوي المظالم، ومناصرته للمستصرخين، وما كان عليه من الرزانة والهيبة والعزيمة والمضاء، فساس الخلافة خير سياسة، وذاد عن حقها بسيفه وقلمه، وأصبحت الرعية تعيش في طمأنينة ودعة بما أفاض عليها

(١) الديوان ٢/٦٩٣ ـ ٦٩٦ .

من كرم ، وأحاطها به من عناية ، ولا يفوت البحتري أن يختتم مدحته هذه بتذكير الممدوح الود القديم الذي يربطه به ، والذي يعود الى أيام عمه الفتح والخليفة المتوكل :

اللـه جارُ بنـي خاقانَ انهم الـ
ـلأثْرون من كرم الأخلاق والشيم

بيت تقـدَمَ فيـه المجد واجتمعت
لـه عظامُ المساعي والعلا القـدم

والنازحـون عن الفحشاء يُبعدهم
عـن لؤمها عظمُ الأخطـار والهمم

مـا انفك مجـدُ عبيدالله يكسبهم
محبةً من صدور العرب والعجم

ما ان يزالُ الندى يدني اليه يدا
ممتاحـة مـن بعيد الدار والرحم

يلومـه عاذلـون في سماحته
على خلائقَ لـم تُذمم ولـم تُلَم

خرقٌ أقـام قناةَ الملك فاعتـدلت
بمستتب من التدبير منتظـم(١)

مستحكم الرأي ، لا عهدُ الصبا كَثَبٌ
منه ، ولا هو بالموفى على الهـرم

قد أكمـل الحلمَ واشتدت شكيمتُه
على الأعادي ، ولم يبلغ مدى الحلم

---

(١) خرق : كريم سخيّ .

فكيف اذ شاب واحتازت تجاربُهُ
له الحجى ، وتلقّى الحزم من أمم

طرْفٌ مطلٌ على الآفاق يكلأها
بناظر لم ينم عنها ولم ينم

مذال السمع للداعين ليس بذي
بأْوٍ على الصارخ الأقصى ولا بُذُم[1]

اذا استعاذَ به المستصرخون رأوا
وجها يجلّي سواد الظلم والظلم

ان قللوا هيبةً أو أكثروا لغطاً
أصغى بحلم وردّ القول عن فهم

حارسَ ملك له من دونه أبدا
صدر شفيق ، ورأيٌ غير متهم

سستَ الخلافة اشرفا وحيطة
وذدت عن حقها بالسيف والقلم

وما انفككتَ ولا انفكت أناتك من
توفير وفر امرىءٍ منهم وحقن دم

توخياً لاصطناع العُرْف تصنعه
في الصالحين ، وابقاء على النعم

* * *

انى أمتُ بود قد تقادم عن
حُدْث الليالي ولم يخلق على القدم

وذمةٍ بك لم يشبهْ تأكدها
الا وفاؤك للأقوام بالذمم[2]

---

(١) البأو : الكبر والفخر ، البذْم : الرأي والحزم والجلَد ، واحتمالك لما حملّت ٠

(٢) الديوان ٣/١٩٧٣ ــ ١٩٧٧ ٠

وظاهر ان شعر البحتري في عبيدالله عموما يعيد الى الذاكرة شعره في عمه الفتح[١] • ويبدو ان الشاعر كان يلمح صفة أو صفات في الممدوح فيتخذ منها مادة أصلية يبني عليها أكثر قصيده ، ثم يستمر في تكرار تلك الصفة واعادتها بل والتفنن في وصفها ونعتها • وقد فعل ذلك حين لمح صفة الهيبة والوقار والرزانة في الفتح فاتخذ منها مادة لمدحه كررها في أكثر قصائده فيه ثم لمح في عبيدالله هذا صفة التلطف في معاملة الرعية والقدرة على ادارة الدولة والدماثة في الخلق فاتخذ من كل ذلك مادة بثها في تضاعيف مدائحه له أيضا •

البحتري والحسن بن مخلد :

وممن اتصل بهم البحتري في عهد خلافة المعتمد الحسن بن مخلد ابن الجراح ، وهو من دير قنّى ، ومن أصل فارسي •

ولد سنة ٢٠٩هـ ، وفي سنة ٢٤٣هـ ولاه المتوكل ديوان الضياع خلفا لابراهيم بن العباس الصولي الذي توفي في هذه السنة •

وكان كاتبا لقبيحة أم المعتز ثم تعرّض هو وبعض الكتاب الى الحبس والتعذيب والمناظرة من قبل صالح بن وصيف في سنة ٢٥٥هـ في آخر عهد المعتز ، واستطاع وحده ان ينجو من القتل لصدقه وميل الخليفة اليه ، ثم كتب للموفق في عهد خلافة أخيه المعتمد ، واستوزره الاخير أول مرة بعد وفاة عبيدالله بن يحيى بن خاقان سنة ٢٦٣هـ ولكنه لم يمكث في الوزارة الا أياما معدودات هرب بعدها الى بغداد بسبب قدوم موسى بن بغا

---

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل (الفصل الثاني) •

الى سامراء ، فاستوزر الموفق سليمان بن وهب في سنة ٢٦٤هـ فخرج هـذا من بغداد الى سامراء فلما وصلها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده ، وانتهب داره وداري ابنيه ، واستوزر الحسن بن مخلد ثانية ، فشخص الموفق من بغداد الى سامراء منكراً استيزار الحسن ومغاضباً لأخيه المعتمد ، ثم تراضيا واتفقا ، فاطلق سليمان بن وهب ، وهرب الحسن بن مخلد ، وصـودرت أمواله وأموال اسبابه ، ولم يمكث في الوزارة ايضاً سوى أيام معدودة[١] .

ويبدو ان الحسن قد استوزر مرة ثالثة ، فقد أشار المسعودي الى ذلك في كتابه التنبيه والاشراف قال : « واستوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ثم الحسن بن مخلد بن الجراح ، ثم سليمان بن وهب ، ثم الحسن بن مخلد ثانيـة ، ثم أبا الصقر اسـماعيل بن بلبل ، ثم الحسـن بن مخلد ثالثة ... »[٢] .

وألمح ابن الطقطقى الى شيء من هذا في قوله : « واعلم ان هؤلاء وزراء المعتمد كالحسن بن مخلد ، وسليمان بن وهب ، وأبي الصقر بن بلل تولوا الوزارة وعزلوا مراراً ، مرتين أو ثلاثاً »[٣] .

ويظهر ان الحسن كان متقناً لعمله ، دقيقاً في ضبط أموره ، حتى قيل عنه أنه أحد كتاب الدنيا ، كان له دفتر صغير يعمله بيده ، فيه أصول أموال الممالك ومحمولاتها بتواريخها ، فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه ،

---

(١) لم تكشف لنا المراجع عن سبب الخلاف بين الحسن بن مخلد وبين الموفق من جهة وبينه وبين موسى بن بغا من جهة أخرى .

(٢) ص ٣٢٠ ولكنه لم يشر الى ذلك في مروجه وانما اكتفى بالقول: « وما أفضت الخلافة الى المعتمد على الله استوزر عبيدالله بـن يحيى بن خاقان وزير المتوكل ، فلما مات عبيدالله استوزر الحسن بن مخلد ، ثم صارت الوزارة الى سليمان بن وهب ثم صارت الى صاعد » .

(٣) الفخري ص ٢٥٤ .

بحيث لو سئل في الغد عن اي شيء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور • وكانت وفاته في سنة ٢٦٩هـ[1] •

شعر البحتري فيه :

للبحتري في الحسن سبع قصائد يبلغ عدد أبياتها (١٤٣) مائة وثلاثة واربعين بيتاً ، أرخها شارح الديوان جميعاً في سنة ٢٥٦هـ بحجة ان الشاعر تعرض الى أمر التقسيط في هذا التاريخ كما أسلفنا ، ومعنى هذا انه امتدحه وهو لم يل الوزارة بعد • وقد اوضحنا فيما سبق موقفنا من تاريخ التقسيط الذي فرض على الناس في عهد المعتمد ، وعلى هذا فنرى ان تاريخ هـذه القصائد ينبغي أن يتأخر عما وضعه لها شارح الديوان • واذا صح ما ذكره المسعودي وابن الطقطقي من ان الحسن بن مخلد استوزر ثلاث مرات ، فمن المحتمل ان تكون هذه القصائد قد قيلت في هذه الفترات الثلاث لا سيما وان الحسن قد استوزر بعد عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذي امتدحه البحتري بقصائد نحا فيها منحى قصائده في الحسن وهو تبرمه من أمر التقسيط •

ويبدو ان الحسن قد أنقذه من أمر التقسيط هذا بعد الحاح الشاعر عليه في قصائده التي انثالت عليه انثيالاً ، وقد أشار الصولي الى ذلك في اخبار البحتري فقد روى عن ابن البحتري انه قال : « لما طولب الناس في أيام المعتمد برد الاقطاعات ونقص الايغارات ، وقسطت على الضياع الاموال ، طولب أبي بمثل ذلك ، فقال :

أمر تجمع مني حباء خلائف تولّيت تسيير المديح لهم وحدي

الابيات ، ثم رأى انه لا يخلصه من ذلك الا أبو محمد الحسن بن مخلد فمدحه بقصائد منها :

يضحكن عن برد ونور أقاح

ومنهـا :

---

(١) الفخري ص٢٥٤ •

ما للمكارم مبتغى الا الاغرّ أبو محمد

ومنهـا :

وصل تقارب فيه ثم تباعد

فجعل أمره الى كاتبه السيبي ، وأمره ان يفعل ما يريد فطالبه بصلح عن ضيعته فقال : يمدح الحسن ويشكو السيبي اليه :

لك الخلائق فينا السهلة السمح

فلما سمعها بلغ له الى ما أراد ، وأزال المطالبة عنه »[١] .

والخبر المذكور يشير الى ان البحتري أنشأ في مدح الحسن عـدة قصائد ليخلصه من أمر التقسيط فأحاله هذا الى كاتبه وأمره أ نيفعل ما يريد ، فمطله الكاتب وتلكأ في مساعدته مما حمل البحتري على امتداح الحسن بقصيدة أخرى فلما سمعها رفع عنه الحيف وأزال المطالبة عنه . في حين جاء في ديوان البحتري وفي مقدمة القصيدة الأخيرة عن البحتري ما نصه : « كان المتوكل كتب الى احمد بن داود السيبي بعشرين الف درهم، فمطلني بها ، الى ان قتل المتوكل ، فطمع في المال ، فتحملت عليه بالحسن بن مخلد ومدحته ولم أزل حتى أخذت المال عن آخره بجاهه »[٢] .

والحق ان قصائد البحتري في الحسن قد خلت من ذكر كلمـــة « التقسيط » التي جاءت في اكثر من قصيدة له في عبيدالله بن يحيى بن خاقان كما مرّ .

ونعود الى الخبر المذكور لنتعرف عـــلى تدرّج القصـــائد التي أنشأها الشاعر في الحسن بهذه المناسبة ، وفيه ان البحتري امتدح الحسن بعـدة

---

(١) اخبار البحتري ص ١٠٨ ـ ١١٠ ، وانظر : الموشح للمرزباني ص ٥٢١ .

(٢) الديوان ١/٤٣٨ .

قصائد ذكر منها مصرع مطلعي قصيدتين وبيتاً من قصيدة ثالثة ، ثم أحيل على كاتب الحسن ، وحين مطله وسوّفه أنشأ في الحسن قصيدة أخرى .

ومعنى هذا ان القصائد الثلاث التي أشار اليها الخبر كانت في مدح ابن مخلد دون التعريض بكاتبه ، غير اننا نجد في القصيدة التي ذكر الخبر بيتاً منها تعريضاً بالكاتب المذكور مما يحمل على الظن ان الشاعر أنشأها بعد أن أحيل على الكاتب فمطله هذا وسوّفه .

بنو الجرّاح :

ولعل من اوائل مدائحه فيه هذه القصيدة التي انتقل فيها بعد المقدمة المألوفة الى امتداح أسرة الحسن فنعتها بالسؤدد ولسماح ، وبعراقة المحتد ، وكرم الاصل الفارسي ، وبوراثة الكتابة والفروسة عنهم ، وبأنهم يجمعون بين البطولة وحذق الكتابة ، فاستقام برأيهم اود الخلافة ، وانتظمت بسيوفهم شؤون الملك ، ثم عرّج على الممدوح فأثنى عليه وأشاد بكرمه الذي ردّ اليه ريش جناحه ، ثم انتقل الى التعريض بمعاصريه ممن كان ينتجعهم فوصفهم بالهيئات المخيلة الخالية من الطبائع المرضية ، ونعتهم بالأبدان المتمثلة المسلوبة الارواح ، وان أناساً من هذا النوع حرى بالشاعر ان يطرحهم ، ون يتجاوزهم الى رجل كالممدوح له عليه من جوده ما لا يقوم الصيّب المدرار مقامه ، وأنهى المدحة بسؤاله عن الحاجة التي يثق بانجاحها وان لم يفصح عنها :

لأُخبرنّك عن بني الجراح
وعتادهم من سؤدد وسماح
ومكانهم من فارسٍ حيث التقتْ
غُرَرُ الجياد تُعان بالأوضاح
من بيت مكرمة ، وعزّ أرومة
بسْل على المتغلبين لقاح

ورثوا الكتابة والفروسة قبلها
عن كل أبيض منهم وضاح

كتاب ملك يستقيم برأيهم
أود الخلافة أو أسود صباح

بصدور أقلام ترد اليهم
شرف الرياسة أو صدور رماح

* * *

أما الخطوب فانني غالبتها
فغلبتها بالأغلب الجحجاح

بابي محمد الذي طالت يدي
بندى يديه وتم ريش جناحي

ضحكاته بشر النوال وكفه
بحر لكف الطالب المتاح

والنائل الغمر الهني غدابنا
عن نزر أهل النائل الضحضاح

* * *

نفسي فداؤك طالما أغنيتني
فكفيتني عن هذه الأشباح

خلق مخيلة بغير خلائق
ترضى ، وأبدان بلا أرواح

فعليك دونهم يكون معولي
واليك عنهم غدوتي ورواحي

كم من بدلك لم أكن أشري بها
ربعيَّ صوب الدِّيمة السحّاح
ان سدتَ فيها المنعمين فاتني
في الشكر عنها سيِّدُ المداح
ولئن سألتك حاجتي فبعقب ما
عظمتَها ووثقتُ بالانجاح[1]

ولا يخفى ان البحتري جهد أن يرتفع في قصيدته هذه الى مستوى شعره الجيد ، لفظاً ومعنى وتصويراً .

بنو الجراح أيضا :

ويبدو ان المدحة الثانية هي هذه النونية التي نحا فيها منحى الاولى في تعداد مآثر بني الجراح أسرة الحسن ، التي تعتزى الى الفرس ، فنعتهم بالندى والتقى والمجد الموروث عن آبائهم الأكاسرة ، وبانهم ذوو شرف سام ، ومحامد معروفة ، ويحلو للبحتري ان يتغنى بمآثر الفرس القدامى بهذه المناسبة ، فيغوص في أعماق التاريخ ليقف على مساندة انو شروان لسيف بن ذي يزن ضد الاحباش ، الذين غزوا اليمن فيتخذ من هذه الفعلة مأثرة يذكر فيها سليلهم ابن مخلد ، لعله يحتذي حذوهم ، ويسير على منوالهم ، فيمد له يد العون والمساعدة ، وهو وسيع الامل ، ووطيد الثقة ، وحسن الظن به لتحقيق أمنيته ، وقضاء حاجته :

اني وجدتُ بني الجراح أهل ندىً
غمْر ، وأهل تقى في السر والعلن
قوم أشادَ بعلياهم وورثهم
كسرى بنُ هرمز مجداً واضح السنن

(١) الديوان ١/٤٧٦ ـ ٤٧٧ .

تسمو بواذخُ ما يبنون من شرف
كما سما الهضب من ثهلان أو حضن

* * *

فهل لكم في يد ينمى الثناء بها
ونعمة ذكرُها باقٍ على الزمن

ان جئتموها فليستْ بكرَ أنعمكم
ولا بديءَ أياديكم الى اليمن

أيام جَلّى أنو شروانُ جدكم
غَيابة الذل عن سيف بن ذي يزن

اذ لا تزال له خيل مدافعةٌ
بالطعن والضرب عن صنعاءَ او عدن

أنتم بنو المنعم المجْدي ونحن بنو
من فاز منكم بعظم الطَوْل والمنن

وقد وثقتُ بآمالي التي سلفتْ
وحسن ظني في الحاجات بالحسن

بارع الفضل يأوِي من شهامته
الى عزائمَ لم تضعف ولم تهن[1]

الفرات الزائد :

ولعل المدحة الثالثة في الحسن هي هذه الدالية التي لا تقل عن سابقتها جمال لفظ ، ولطف معنى ، وبراعة تصوير ، فهو حين انتهى من المقدمة انتقل الى الامتداح فتساءل هل بمقدور الثناء الخالد ان يشكر هذا الممدوح

---

(١) ٢١٥٨/٤ ــ ٢١٦٠ .

بما اولاه من نعم ، وأسداه من خير ؟ والذي وسعه بمعروفه وأكرم مثواه ، فهو واحد في الكرم والجود ، ذو سؤدد عريق يكتفي به آباؤه المرازبه ، وهو وزر للخلافة في الملمات ، وشهابها المتقد في الظلمات واتخذ من الفضيلة والاستقامة مذهباً واضحاً له ، وباشر الأمور بنفسه ، فكان يحل عويصها برأي ثاقب ، ويجلو مدلهمها بعزم ماضٍ ، فاستقام المعوّج ، وصلح الفاسد . وان الممدوح ملك الاعادي فعمّهم فضله وشملهم احسانه وكَبتهم بعفوه عنهم ، حتى كان ذلك العفو عليهم أثقل أعباء مما كانوا يتخوفونه ويتوقعونه ، وانهى قصيدته بتسفيهه من يكيد للممدوح الذي أعشاه ضوء الصباح ـ وهو الممدوح ـ حين بدا ، وغرّقه الفرات الفائض حين جرى :

هل يشكر الحسن بنَ مَخْلَد الذي
أولاه محمود الثناء الخالد

بلغت يداه الى التي لم احتسب
وثنى لأُخرى فهو بادٍ عائد

هو واحدٌ في المكرمات وانما
يكفيك عادية الزمان الواحد

غنيت بسؤدده مرازبُ فارسٍ
هذا له عمٌ وهذا والد

وَزَرُ الخلافة حين يعضل حادث
وشهابُها في المظلمات الواقد

وليَ الأمور بنفسه ، ومحلها
متقاربٌ ، ومرامها متباعد

يتكلفُ الادنى ، ويدرك رأيُهُ الـ
لأقصى ويتبعه الابى العائد

ان غارَ فهو من النباهـة منجدٌ
أو غابَ فهو من المهابـة شاهد

فقد اغتدى المعـوَجّ وهو مقـوَّمٌ
بيديـه واستوفى الصـلاح الفاسـد

ملكَ العداة ، وأسـجحتْ آلاؤه
فيهم ، وعجم فضـله المترافـد

عفو كَبتَ به العـدو ، ولم أجد
كالعفو غيظ به العدو الحاسـد

حتى كأن الصـفح أثقل محمـلاً
مما تخوّفـه المسيءُ العـامد

قـد قلتُ للسـاعي عليك بكيده
سَفهاً لرأيك من أرائك تعـاند ؟

أوفى فأعشـاك الصـباحُ بضـوئه
وجرى فغرّقك الفرات الزائـد(١)

ألمعية وسياسـة :

ويبدو ان البحتري بعد ان أنشأ القصيدتين السابقتين في الحسن أحيل على كاتبه السيبي ليتدبر النظر في أمره • ويظهر ان الكاتب المذكور تلكأ وماطل وسوّف فالتجأ الشاعر الى قريضه يعرض به في أعقاب مدائحه للحسن ، ونظم في هذه المناسبة أربع قصائد •

ولعل أول ما أتبع به البحتري المدحتين السابقتين هذه القصيدة التي

---

(٢) الديوان ١/٦٠١ ـ ٦٠٣ •

اودعها ألفاظاً رشيقة ، ومعاني لطيفة ، وتشبيهات بديعة ووزناً خفيفاً[١] . وتفنن في اسباغ الصفات الجليلة على الممدوح ، حتى ليخيل الينا انها تقف في مصاف شعره الجيد عامة .

وهذه القصيدة اطول قصائده في الحسن ، اذ تقع في (٢٨) ثمانية وعشرين بيتاً ، اقتطعت المقدمة الغزلية ثمانية أبيات ، وقد أحسن البحتري في تخلصه للغرض الاصلي ، وهو قلما يفعل ذلك في شعره .

ونرى من الاجدر ـ حفظاً على جمال القصيدة ـ أن لا نسترسل في شرح الابيات ، وان نتركها تحدثنا عن نفسها ، بيد أننا ينبغي أن ننبه الى ان البحتري قد شكا في أعقاب القصيدة من موقف كاتب الحسن منه ، ورجا ممدوحه أن يعمل ما وعده به :

قد قلتُ للركب العُفا — ة يجور هاديهم ويقصد
ما للمحامد مبتغ — الا الأغرُّ أبو محمد

واذا المحاسنُ أعرضت — فنظامُها الحسن بن مخلد
ماشئتَ من طَوْل واحسا — ن ، ومن كرم وسؤدد

ذاك المرجَّىُ والمؤمـ — ـل والمبجل والمحسد
وأخو التكرّم والتفضـ — ـل والتحلُّم والتحمد

من لا يعاتبُ في الوفا — ء ، ولا يُلام ، ولا يفند
نصح الخلائفَ جامعا — لقرائن الشمْل المبدد

وأقام من صَعَر الأمو — ر وقد أبت الا التأود
بأصالة الرأي الزنيـ — ـق ، وصحة العزم المجرد[١]

---

(١) القصيدة من مجزوء الكامل .
(٢) الزنيق : الرصين ، المحكم .

فلكل أمر حادث ضربٌ من التدبير أوحد
لا يُعمل القول المكر ر فيه والرأي المردد
ظن يصيبُ به الغيو ب اذا توخى أو تعمد
مثل الحسام اذا تألـ ـقَ ، والشهاب اذا توقد
ولي السياسة واسطاً بين التسهل والتشدد
غيرُ المغمر في الندى ولا الخلي اذا تفرد
كالسيف يقطع وهو مسـ ـلول ويُرهب وهو مُغمد
تمت لك النعمى ، ودا م لك التعلي والتزيد
فلأنت أصدقُ من شآ بيب الغمام ندى وأجود

* * *

تعقيد أحمد ضرني وإذا أمرتَ أطاع أحمد
لا أحرمنْ تعجيل ما قدمتَ من رأي وموعد[1]

القوافي السائرة :

ويبدو ان البحتري قد أردف القصيدة السابقة بهذه المدحة التي طلب الى قوافي شعره السائرة الشرود أن تثيب ممدوحه على حسن آلائه المتوالية ، ونعمه المترادفة ، ممدوحه المنتمي الى اكرم عنصر ، وأعرق محتد ، الى العنصر الفارسي ، والمرتقى ذرا المجد ، وشرف العلياء ، والذي يعد الغاية القصوى للآمال ، والعدّة العظمى للرجاء ، تستأنف النعم من جدواه ، ويعاش من فيض كرمه ، ان شح الناس وضنوا ، يتهلل للمعروف ، ويشرق محياه للعطاء ، ثم يذكّره بوعده الذي قطعه على نفسه ، وانه ليرجو الوفاء به ، بعد ان مطله كاتبه ابن داود وسوفه :

(١) الديوان ١/٦٠٤ - ٦٠٦ .

لتسرينَ قوافي الشعر معجلة
ما بين سيرِه المثلى وشرده

جوازياً حسنا عن حُسْن أنعمه
وعن بواديه في الجدوى وعوده

المقتدِي وملوك العجم خاضعة
لفرعه المعتلى فيهم ومحتده

والمرتقى شرفَ العلياء ممتثلاً
مكان جرّاحه منها ومخلده

غايةُ آمالنا القصوى وعدتنا الـ
ـعظمى لأقرب ما نرجو وأبعده

نستأنفَ النعمة الطولى العريضة من
انعامه واليدَ البيضاء من يده

ان لؤُمَ الناس عشنا في تكرمه
أو أخلقَ الناس عدنا في تجدده

* * *

يا أيها السيد المُجرى خلائقَهُ
على سوابق علياه وسؤدده

أنت الكريم ، وقد قدمتَ مبتدئاً
وَعْداً ، وكل كريم عند موعده

ولابن داودَ مطل انت تعرفه
انْ لم ترضْه وتحللْ من تعقده(١)

---

(٢) نفسه ١/٤٩٨ ـ ٥٠٠ .

مفاضلة :

وتتوالى مدائح البحتري في الحسن وشكواه من كاتبه السيبي ، منها هذه المدحة التي جعل نصفها الأول في مناضلة طريفة بين ممدوحه وبين البرق ، فادعى ان الثاني مهما أفرط في علوه ، او غمر الارض بجوده ، أو كشف الظلمات بساطع نوره ، فانه دون ممدوحه في قربه وبعده ، وفي ثناء الناس له ، وفي فيض ماله وفضيلة ضيائه ، وسمو مجده . وان شخصا له هذه المزايا لحريّ ان يفتدى بالنفس والنفيس ، وقد سارت الركبان في الخبر العجيب عن وفائه ، وتحدثوا عن نجاح وعده . ثم يتسائل الشاعر عن تردّده على باب الممدوح ـ وقد اشتهر بما اشتهر به ـ حانا له ، طالباً اقتضاءه ؟ مع انه قد أولاه بالامس معروفه ، واضفى عليه نعمه ، وينهي المدحة بالشكوى من مماطلة السيبي كاتب ابن مخلد الذي يعد تسويفه له من غير رأي الحسن :

يا برق أفرطْ في اعتلائك | اوصب بجودك وانهمائكْ
أو كشّف الظلماءَ بالنـ | ـور المُضيء من انجلائك

ما أنت كالحسن بن مخـ | ـلدَ في اقترابك وانتوائك
انـي وجـدتُ ثناءه | في الناسِ أشرفَ من ثنائك

وأرى نداه بماله | يعلو نداك لنا بمائك
وضياؤه في البشر أو | لى بالفضيلة من ضيائك

وسموُّه للمجد أز | كى من سموك وارتقائك

* * *

نفسي فداؤك انّ حظـ | ـي كونُ نفسي من فدائك
قد سارت الركبانُ بالـ | ـخبر المعجَّب عن وفائك

وتحدّثوا عن نجح وعـ ـدك في السماح وصدق وائك[1]
فعلام أغدو لاحتشا ثك أو أهجَرُ لاقتضائك

سيما وما أوليتـه بالأمس كان على ابتدائك
ويسوؤني تركُ اعتما دك والتأخرُ عن لقائك

ونقيصةُ السيبيَ سَبْـ ـبك والتمم من عطائك
بمطاله ، اني أعـ ـدّ مِطاله من غير رائك[2]

نفثة مصدور :

بعد أن أخفق الشاعر في نيل مرامه من السيبي الذي عرّض به في اكثر من قصيدة ، نفث ـ في هذه الابيات التالية ـ ما اعتلج في صدره من الآلام والتباريح ، ومهد لهجائه باربعة أبيات في امتداح ابن مخلد ثم عرّج على الكاتب السيبي الذي نعته بالمطل والبخل ، واهانة معتفيه باطراحه اياهم وقلة بشاشته لمقدمهم ، وقد أعيا على الشاعر أمره ، حين علم انه لا يفرق من الهجاء ، ولا يهش للمديح ، وانه جهد ان يصالح الشاعر عن مطلبه ، الأمر الذي نفرّ منه البحتري وعدّه ضرباً من المتاجرة او الرشوة • ولعل هذه الابيات آخر ما نظمه الشاعر في هذه المناسبة :

لك الخلائق فينا السهلة السُمُح والنَيْل يسلس للراجي وينسرح
والمكرماتُ التي بانت معالمُها مشهورةً كنجوم الليل تتضح
أما العفاة فقد حطّوا رحالهم بحيث تتسعُ الدنيا وتنفسح
فداك من لا نداه صوبُ غادية تهمي، ولا صدره للجود منشرح

* * *

أمطلقي من يد السيبيّ انت فقد كلّتْ لديه ركاب الطالب الطلح
أرى على بابه صَرْعى أقام بهم طول المطال فلا أجدى ولا نجحوا

---

(١) الوأى : الوعد •
(٢) الديوان ١/٣٣ ـ ٣٥ •

لنا مواقفُ في أفناء عَرْصَته تهان أخطارنا فيها وتطرح
نغشاه لا نحن مشتاقون منه الى أنس ، ولا هو مسرورٌ بنا فرح

اذا طلبنا بلين القول غرَّته ظلنا نعالج قفلاً ليس ينفتح
أعيا عليَّ فلا هيابة فرق من الهجاء ، ولاهش فيمتدح

يريغ كاتبُه صلحي لينقصني ولم يكن بيننا شرٌّ فنصطلح
وكم أناس ألاموا في متاجرتي وحاولوا الربح في نقصي فما ربحوا[1]

البحتري وابن المدبّر :

اتصل البحتري بعدد من عمال الخلافة ، وكان في مقدمتهم أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن عبيدالله بن المدبّر ، وهو من دَسْتُمسان[2] ، وتولى الولايت الجليلة ، ثم وزر للمعتمد لما خرج من سامراء يريد مصر ، فاراً من أخيه الموفّق كما اسلفنا .

وكان ابراهيم الى جانب حسن ادارته للاعمال التي يتقلدها أديباً فاضلاً ، وشاعراً جواداً ، ومترسلاً صاحب نظم رائق ، ونثر فائق[3] ، وكان مقرّباً من الخليفة المتوكل . ويبدو انه نكب في عهده ، باغراء وزيره عبيدالله بن يحيى بن خاقان لنفاسته عليه برأى المتوكل فيه ، وقد أنشأ في حبسه كثيرا من القصائد التي يصوّر فيها آلامه وضيق ذرعه بالسجن . ويظهر انه جارى في ذلك سجنيات علي بن الجهم الذي نفي في عهد المتوكل وحبس[4] .

---

(١) الديوان ١/٣٤٨ ـ ٤٣٩ .

(٢) هي كورة بين واسط والبصرة والاهواز ، وهي الى الاهواز اقرب (مراصد الاطلاع ٢/٥٢٦) ، وانظر : معجم الادباء ١/٢٢٨ حيث جاء فيه « سَتَمسيان » .

(٢) انظر : معجم الادباء ١/٢٢٦ .

(٤) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجرى ص١٥٦ ـ ١٥٧ .

وكان لابراهيم دار خاصة على الشاطيء في المطيرة ، احدى ضواحي سامراء ، وكثيرا ما كانت عريب المغنية التي كانت لها علاقة به تختلف اليه في داره فتقيم معه فيها[١] .

وتولى عقب نكبته وزوالها الثغور الخزرية ، فكان يكثر الاقامة بمنبج مدينة البحتري[٢] ، كما يبدو انه تولى البصرة[٣] ، قبل أن يأسره صاحب الزنج ويسجنه سنة **٢٥٧**هـ والذي استطاع الهروب منه باشارته الموكلين به في السنة نفسها[٤] .

ان الغموض ما زال يكتنف سيرة ابن المدبر ، وان ما تحدثت عنه به المراجع المختلفة ما هو الا نتف لاتلقى ضوء كاشفا على سيرته واقامته وتنقلاتـه .

ومن المحتمل ان ابراهيم كان ينتقل الى جانب ما كان يتولاه من الاقاليم بين بغداد وسامراء . وفي الاخبار المتناثرة عنه ، وفي بعض مدائح البحتري فيه ما يشير الى هذا[٥] .

وتوفى ابراهيم في سنة **٢٧٩**هـ وهو يتقلد ديوان الضياع للمعتضد[٦] .

شعر البحتري فيه :

كان ابن المدبر من ممدوحي البحتري ، فقد أنشأ فيه **(٢٢)** اثنتين

---

(١) انظر : الاغاني ١١٨/١٩ ساسي ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٢) نفسه ١٢٢/١٩ .
(٣) نفسه ١٢٤/١٩ .
(٤) انظر : الطبري ٤٧٦/٩ ، الكامل : ٢٤٢/٧ .
(٥) انظر : اخبار البحتري ص١٢٤ ـ ١٢٦ ، الاغاني ١٢٣/١٩ ، ديوان البحتري ٤٢٦/١ البيت (١١) ، ١٠٦١/٢ البيت (٣٨) .
(٦) انظر : معجم الادباء ٢٢٨/١ ، الكـامل ٤٦٠/٧ ، الاعلام للزركلي ٥٦/١ .

وعشرين قصيدة ومقطوعة ، بلغت (٥٠٣) ثلاثة وخمسمائة بيت • وقد ارتأى شارح الديوان تاريخ هذه القصائد والمقطعات بين سنة ٢٥٥هـ - ٢٥٨هـ. ويظهر ان الذي حمل الشارح على هذا هو اعتقاده ان صلة الشاعر به قد بدأت في آخر عهد المهتدي وبدء عهد المعتز[١] • غير انه يخيل الينا ان الصلة بينهما تمتد الى أبعد من هذا ، فقد قال البحتري يذكر صحبته لابناء المدبر التي تعود الى أيام الشباب مما يحمل على الظن ان هذه العلاقة ترجع الى أيام المتوكل :

هبني غنيت بوفري عن نوالهم
فكيف أصنع بالألف الذي كانا

عهد من الأنس عاقرنا الكؤوس على
بديئه ، وخبطنا فيه أزمانا

نمأز عنه كهولاً بعد كبرتنا
وقد قطعنا به الأيام شبانا[٢]

وعلى الرغم من كثرة قصائد البحتري في ابن المدبر فان الذي نرجحه ان اكثر هذه القصائد قيلت والممدوح لم يكن مقيماً في سامراء ، اذ انها خالية من أية اشارة الى ذلك ، ولكن بعضاً منها أنشئت والشاعر أو الممدوح كان مقيماً في ربوع هذه المدينة •

وعلى هذا فسنقصر كلامنا على هذا البعض الأخير فحسب •

عتاب وهجاء :

من شعر البحتري الذي أنشأه وهو مقيم في سامراء هذه القصيدة التي بناها على جملة سمعها من أبي العيناء ، وارسلها الى ابراهيم بن المدبر الذي

---

(١) الديوان ١/٣٧ الحاشية •
(٢) نفسه ٤/٢٣٣٠ •

كان آنذاك في بغداد ، وقد روت بعض المصادر قصة هذه القصيدة ، ولعل أقدم من أشار اليها الصولي في أخبار البحتري وذلك حيث قال : « حدثني أحمد بن يزيد المهلبي قال : قال لي ابراهيم بن المدبر ، اجتمع يوماً عندي الفضل اليزيدي والبحترى وابو العيناء ، فجلس الفضل يلقى على بعض الفتيان نحواً ، فقال له أبو العيناء : في اي باب هو من النحو ؟ فقال : في باب الفاعل والمفعول به ، قال : هذا بابي وباب الوالـدة ـ حفظها الله ـ فغضب الفضل وخرج ، ثم خرج البحتري من بغداد الى سر من راى وكتب اليّ شعراً اوله :

ذكرتيك روحة للشمول

فأمرت بأن يكتب اليه جواب كتابه ويوجّه اليه بمائة دينار . ودخل ابو العيناء ، فأقرأته الشعر ، فقال : أعطني نصف المائة ، فانه هجاه والله بكلامي فأخذ خمسين ، ووجهت الى البحتري بخمسين وعرّفته الخبر ، فكتب اليّ ، صدق والله ما بنيت أبياتي الاّ على معناه »(١) .

والابيات تتناول في قسمها الأول معاتبة ابن المدبر ، وقلة المامه بسامرا وظل عيشها الظليل ، وتتناول في القسم الثاني الهزء باليزيدي الذي وصمه بالاستكراه والفضول ، وثقل الروح والتطفل ، وغمزه في صحة نسبه ، وطعن عليه وضعه من الشاعرين : كثير وجميل ، وادعاءه العلم والعرفان :

ذكرتيك روحةٌ للشمول ... أوقدت غُلّتي وهاجت غليلي
ليت شعري يابن المربر هل يدنيـ ... ـك فرطُ الرجاء والتأميل
بعدَ العهد غيرَ رجع كتاب ... يصف الشوق او بلاغ رسول
أيّ شيء ألهاك عن سرّ من را ... وظل للعيش فيها ظليل

(١) أخبار البحتري ص١٢٤ ـ ١٢٦ ، وانظر : زهر الآداب ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، معجم الادباء ١٦/٢١٥ ، الديوان ٣/١٨١٥ الحاشية .

أقتصاراً على أحاديث فضل فهو مستكره" كثيرُ الفضول
لم تكن نُهْزة الوضيع ، ولا رو حك كانت لِفقاً لروح الثقيل

فعلام اصطفيت منكشفَ الزيـ ـف ، معاد المخراق ، نزر القبول
ان تزرْه تجده أخلق من شيـ ـب الغواني ، ومن تعفى الطلول
رائح" مغتدٍ وما متع الصبـ ـح ادلاجاً للشحذ والتطفيل

* * *

مدعَ نسبةً متى صح يوماً كان فيها مولى أبي البهلول
قد أتاني عنه ، وما خلتُ حقاً وضعه من كثير وجميل
ويحه لمْ يقول ما يفسد الذهـ ـن ، ويزرى بالفهم والتحصيل
جلَ ما عنده التعمقُ في الفا عل من والديه والمفعول[1]

غلام البحتري وحاجب ابراهيم :

والقصيدة الاخرى التي يحتمل ان تكون حوادثها وقعت في سامراء هي هذه النونية التي روى ابن البحتري سبب انشائها فقال : « حدثني ابراهيم بن المدبر، قال: كان البحتري يشرب عندي ليلة من الليالي بسرمن رأى ومع دابته غلامه (نائل) فعثر عليه « بشر » حاجبي في أمر من الامور فضربه خمسين مقرعة ، والبحتري لا يعلم ، فلما انصرف أخبره الغلام بما ناله فغضب ، ثم لم يكن بأسرع من ان عثر (جعلان) العيار على بشر حاجبي في ليلة أخرى في سبب من الاسباب فضربه خمسين مقرعة فكتب اليَ البحتري »[2] .

والقصيدة تشتمل الى جانب ذكر الحادثة على عتاب الشاعر لابراهيم الذي كان منحرفاً عنه ، مغاضباً له .

---

(١) الديوان ٣/١٨١٥ ـ ١٨١٨ .

(٢) الديوان ٤/٢٣١٥ ـ ٢٣١٧ .

ويبدو ان هذه القصيده من أواخر ما قاله في ابراهيم بدليل تذكيره بمدائحه التي غنت بها الرواة ، وسارت الركبان ، وينهى الابيات بما نال حاجب ابن المدبر على يد جعلان العيار :

نفســـي فداؤك ايُّها الغضبانُ … ما هكذا يتعاشرُ الاخوانُ
صدر الاصادق عن ذراك وحظهم … منك الوصال ، وحظي الهجران
ومنعتُ انصافاً وسعتَ به الورى … دوني ، فجدٌ داك أم حرمان
ينْسى كتابُكَ من تقادم عهده … وتمرُّ دون رسولك الازمان
فعلامَ يُنسى أو يضاع على النوى … ودّى الرخيصُ وشعرى المجان
أو ليس قد غنتْ ـ بما حبّرتُهُ … فيك ـ الرواةُ ، وسارت الركبان
مدَحٌ يموت عليك أكثر دينها … ويُذال عندك حرهـا ويهان
دع ذا وأخبرني بشأن صديقنا … « بشر » ، وهل يُرضَى لبشرٍ شان
زعقتْ مغاربةُ الخميس وراءه … فكأنمـا نعقتْ بـه الغربـان
فوددت أني لو بصُرتُ عشيـة … بالعلْج وهـو مقلقلٌ عجلان
فأرى السمين الفدم كيف تمضه … قطع القنا ، وترضّه القضبـان
أهونْ بمصرعه عليَّ وبينهم … عبدٌ تناصى دونـه العبدان
فالله أكبرُ قد أقيد بجرمه … بشـرٌ ، وثار بنائل جُعلان(١)

البحتري والخضر التغلبي :

وممن اتصل بهم البحتري من عمال الخلافة العباسية ايضاً الخضر بن أحمد بن عمر بن الخطاب التغلبي الموصلي الذي استعمله المعتمد على الموصل في سنة ٢٦١هـ ، وقد امتدحه بعدة قصائد منها هذه القصيدة التي انشأها ـ كما يبدو ـ فيه وهو مقيم في سـامراء ، بدليل البيتين الاول والسادس ، وقد افتتحها بالغزل الذي شكا فيه من الزمن الذي عاجل حبيته بنكثه وريبه فلامته على مكوثه وثوائه في سامراء حيث المرتع الجشب ،

---

(١) الديوان ٤/٢٣١٥ ـ ٢٣١٧ .

والعيش المنصب ، وحيث ضياع الشريف ، وقلة الاكتراث به والحدب عليه• وفي هذا دلالة على تذمر الشاعر واطراح الممدوحين له في هذه المدينة التي لقي فيها في عهود الفتح والمتوكل والمعتز ما لم يلقه شاعر قبله من الاكرام والاحتفاء والتقريب •

والبحتري الذي يمتدح في هذه القصيدة عربياً قحاً يحلوله أن يتغنى بالأصل العربي وبمشاهد العرب • فهذه حبيبته تزجيه الى ان يعمد لظل من نزار فيستذري به أو يجتبي أحدا من ابناء يعرب فيقيم في كنفه مهما كانت البلدة التي يأوون اليها ، ويحلون فيها ، لانهم ذوو الحسب الزاكي ، والنسب القريب • ثم يجيب البحتري حبيبته قائلا : ترفقي وانتظرى ، فان في هذه المدينة (سامراء) سيدا كريم الطبائع ، عظيم المنصب ، فياض الجود • وهذا ما يدفعنا الى الاعتقاد بان الممدوح كان آنذاك في هذه المدينة، ولعله كان مقيماً فيها قبل أن يولّى الموصل •

ويمضى البحتري يثني على الخضر ، مشيداً بمجده وعراقة سنخه ، وبسالة أسرته ، وقدم سؤدده ، وحصافة رأيه ، ومضى عزيمته ، ومناعة جانبه ، وتهلل وجهه •

وينهى المدحة ــ بعد رفعها اليه ، عابقة كالأريج ، زاهية كاللآلىء ــ طالباً رفده ، عائذاً بذراه ، من زمن كالح ، حديد المخلب :

قالت : أراك بسرَّ من را ثاوياً … في مرتعٍ جشبٍ وعيشٍ منصب
في حيث لا يُلقى الشريفُ مناسباً … يحنو عليه برأفةٍ وتحدّب

فاعمد لظلِّ من نزارَ فانهم … أهلُ النُهى، أو جانبٍ من يعرب
وانهض لأيّةِ بلدةٍ حلّوا بها … في الارض ان قربتْ وان لم تقرب

فهنالك الحسب الصميم، وحيث لا … يعريك من نسب قريب المطلب
قلتُ : اربعي في سرَّ من را سيدٌ … كرمت ضرائبُه عظيم المنصب

خضرُ بن احمد طود عزٍّ شامخٌ راس دعائمه ، أمين المكب
كهفٌ اذا استذرى العناة بظله لجأوا الى كنفٍ رحيب مخصب

* * *

كم من اب لك ذي مناقب جمة حامٍ ، وجدّ ذي مكارم منجب
وعُلاً تقاصرت المساعي دونه فسمتْ بذكركم سموّ الكوكب

* * *

يا خضرُ انت مسوّدٌ في سادة من كل محتضر الرواق محجب
قد سدتَ في حال الحداثة يافعاً ولبستَ أبهة الجليل الاشيب

وأرتك أعقاب الأمور روية من حازم ماضي العزيم مجرب
فلأنت أنفذ حين تدهم خطةٌ من مرهف شهرته كفك مقضب

ولأنت أنفح بالنوافل والندى من واكف مستحضَر متصلب
وكأن وجهك حين تسأل مُشْرِب من حسنه ماءَ الحسام المذهب

* * *

خذها اليك وسيلةً في راغبٍ متقربٍ ، متوصل ، متسبب
جاءتك من طيب التحية تجتنى من منبتٍ أنِقٍ وروض معشب

أوفى بها كالعقد فُصّل نظمُهُ بالدرّ الا انه لم يثقب
هذا وليُّكَ مستجيراً عائذاً بذُراك من زمن حديد المخلب

قد شامَ برقاً من نداك أحبته اذ كان برق يديك ليس بخلب(١)

---

(١) الديوان ١/٣٤٠ ـ ٣٤٢ .

الفصل السـابع

ثروة البحترى وشـكواه

أشرنا في القسم الاول من هذا البحث الى شيء يتصل بهمة البحتري ومضاء عزيمته وتطوافه في الآفاق منتجعاً مسترفداً قبل أن يحط عصا ترحاله في سامراء ، واستشهدنا بنماذج من شعره في هذ الصدد[١] •

ونعود هنا لنوضح ما يتعلق بثروته بعد اتصاله بخلفاء هذه المدينة ورجالها • لقد كسب الشاعر من مدائحه للخلفاء وغيرهم من رجال الدولة الكثير من الأموال ، واستطاع الهيمنة على ما أصابه من أعطيات وهبات ، ولم ينفقها في وجوه الملذات كما فعل غيره من الشعراء • وكان شغوفاً باقتناء الضياع ، وظهر ذلك منذ مطلع حياته[٢] •

والبحتري كان محباً للمال الى درجة بعيدة ، لا ترويه المنح ، ولا تحد من نهمه اللُّهى ، وقد صدق حين قال :

أرد البحر لا الثماد ، فمثلي   لا يروّيه جدول وقليب[٣]

وقد عظمت ثروته بما انهال عليه من المال الوفير ، حتى أصبح له قهارمة وكتاب[٤] • وغدا يركب في موكب من عبيده[٥] •

---

(١) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ص١٣ـ١٤ •

(٢) نفسه ص١٧ •

(٣) الديوان ١/٣٥٢ •

(٤) العمدة لابن رشيق ١/٢٢ •

(٥) نفسه ٢/١٨٥ •

لقد اقتنى الشاعر كثيراً من الضياع ، وكان اقتناؤه لها ، اما عن طريق الشراء ، واما عن طريق اقطاعه اياها من ضياع الآخرين .

قال الصولي : وكانت أمل جارية الفتح بن خاقان تنازع البحتري في ضياع أقطعها من ضياع الفتح ، فصارت الى ابراهيم بن المدبّر ، وهو يلي الناحية ، فخاف أن يعينها عليه ، فكتب اليه :

لتصدقني وما أخشاك تكذبني ماذا تأملت أو أملت في أمل »[١]

وقد مرّ الحاح الشاعر والحافه في الحصول على ضيعة لعبدالله بن المعتز كانت مجاورة لضياعه في عهد أبيه[٢] .

وكان الى جانب امتلاكه للضياع الكثيرة ، يعمد الى اسقاط الخراج عنه ، ويجهد ان يعفى من دفع الضرائب ، فقد روى الصولي عن أحدهم انه قال : « كان البحتري يلزم ابراهيم بن المدبر في كل سنة أن يسقط أكثر خراجه أو يؤدّيه عنه ، فأراد شراء ضيعة ، واستماح ابراهيم ، فلامه لكثرة ضياعه ، وقال : تكفيك ضياعك فقد كثرت وعظمت فأنشده :

سفاهاً تمادى لومها ولجاجها

الى ان بلغ الى قوله :

وما زالت العيس المراسيل تبري فيقضى لدى آل المدبرّ حاجها

فأمر لها باتمام ماله »[٣] .

ومن أبيات القصيدة هذه قوله :

ولم لا أغالي بالضياع وقد دنا
عليّ مداها واستقام اعوجاجها

---

(١) اخبار البحتري ص١١٨ .

(٢) انظر : ص١٠٨ من هذا البحث .

(٣) اخبار البحتري ص١١٩ .

اذا كان لي تربيعها واغلالها
وكان عليك كلَّ عام خراجها(١)

وشكا البحتري في شعره كثيراً ، شكا في مطلع حياته العوز والخصاصة ، وشكا قلة عطاء الممدوحين له ، ولكن هذه الشكوى لم تبلغ من الكثرة والمرارة ما بلغته في السنوات الاخيرة من مكوثه او تردده على الممدوحين في العراق .

لقد شكا من الخراج بعد أن تجمع لديه ما تجمع من عظام الضياع ، وشكا من استيلاء ابن طولون على أملاكه وضياعه في فترة من الزمن ، وشكا من الزمن الذي حربه ونال منه ، وشكا من اطراح الممدوحين له وتلكؤهم في امداده بالعطايا والهبات . كل هذه الشكويات بثها الشاعر في تضاعيف مدائحه أو أهاجيه التي أنشأها في غضون هذه الحقبة الأخيرة من حياته .

والحق ان البحتري قد لقي من الحفاوة والتكريم في عهود الخلفاء ما لم يلقه شاعر آخر ، ولعل خير ما يصوّر ذلك قوله من قصيدة له :

ومن الأقارب من يُسَرُّ بميتتي
سفهاً ، وعزُّ حياتهم بحياتي

ان أبقَ أو أهلك فقد نلتُ التي
ملأت صدورَ أصادقي وعداتي

وغنيتُ ندمانَ الخلائف نابهاً
ذكرى ، وناعمةً بهم نشواتي

وشفعت في الأمر الجليل اليهم
بعد الجليل ، فأنجحوا طلباتي

(١) الديوان ١/٤٢٧ .

وصنعت في العرَب الصنائع عندهم
من رفد طلاّب وفكَّ عناة[1]

وكان حريّاً به أن يذكر ذلك ويحن الى أيامه الزاهرة ، ومكانته المرموقة ، بيد ان هذه المكانة الرفيعة ، والجاه العريض قد انتكسا في العهود الأخيرة من حياته ، فبعد ان كان يرى العراق معقل عزه ، ودار اقامته في عهد المتوكل والفتح :

تلفت من علْيا دمشقَ ودوننا
للبنانَ هضْبٌ كالغَمامِ المعلَّقِ

الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما
ذممتُ مقامي بين بصرى وجلّق

الى معقلي عزّي ، وداريْ اقامتي
وقصد التفاتي في الهوى وتشوّقي[2]

اذا به يعدّ نفسه في غضون سنة ٢٧٠هـ ضيف العراق :

فهل لضيف العراق من صَفَد عند عميد العراق يرتقبه[3]

وقد مرت بنا ثورة الشاعر حين طولب بمال التقسيط ، وما دبجه من قصيد بهذه المناسبة[4] . كما مرّ بنا استنجاده بابن المدبر في اسقاط الخراج عنه ، وقد لجأ كذلك الى اسماعيل بن بلبل وزير المعتمد يسأله المعونة في التخفيف عنه من هذا الأمر فقال :

---

(١) الديوان ١/٣٦٥ .
(٢) الديوان ٣/١٥٠٩ ــ ١٥١٠ .
(٣) نفسه ١/٢٧٨ .
(٤) انظر ص١٦٥ وما بعدها .

يا أبا الصقر كم يدلك عندي
ذاتِ عَرْض في المكرمات وطول

كشفاء السقام في عُقْبِ يأسٍ
من تلافيه ، أو شفاءِ الغليل

اكفني دقة اللئام بتخفيـ
ـفك ما آدَ من خراجي الثقيل[1]

ويسير ابن طولون الى الشام فيحتلها ، ويصادر أموال الشاعر ، فتقوم قيامته ، ويرتفع صراخه منددا وهاجيا فيقول :

أرقَتْ جناياتُ المضلّل ثروتي
فلا نشب بعد العُبيد ولا وفر

وقد زعموا مصر معانٌ من الغنى
فكيف أسفَتْ بي الى عدمٍ مصر[2]

ويقول :

وما زلتُ أخشى مذ تبدّى ابنُ يَلْبَخٍ
على سَعَةٍ من أن تدال بضيق

وما كان مالي غير حَسْوةِ طائرٍ
أُضيفَ الى بحر بمصرَ عميق[3]

ويقول :

واذا ما اعتبرتُ ظاهرَ أمري
كان خَطْباً من الخطوب الجليله

---

(١) الديوان ٣/١٨٠٤ .
(٢) نفسه ٢/٨٧١ .
(٣) نفسه ٣/١٥٢٩ .

أطلب المال في البلاد ومالي
في حرورية ابن طولون دُولَه[1]

وتعرض احدى ضياعه لأمر من الأمور فاذا به يستصرخ احد وراء المعتمد ولعله صاعد بن مخلد ، يلتمس اليه اسعافه وانقاذه مما هو فيه فيقول :

قل للوزير الذي مناقبُه
شائعةٌ في الأنام مشتهره

وفقكَ اللهُ للسداد ، ولا
زلتَ مع الحقِّ تقتفي أثرَه

ان انتظاري لما ابتدأت به
أبلغَ افراطَهُ امرؤٌ عذَرَه

وحائزُ الشيءِ ممسكٌ يدَهُ
يختار بين الايثار والأثره

وقد غدت ضيعتي منوَّطةً
بحيث نيطتْ للناظر الزُهره

أرومُ بالشعر أنْ تعودَ فما
أقطعُ فيما أرومه شعره

حكْمٌ من الله أرتضيه ولا
ترتابُ نفسي في أنَّهُ خيَرَه

ان ردَّها السعيُ والدؤوبُ فقد
وفيتُ في السعي أشهراً عشره

---

(١) الديوان ٣/١٦٤٠ .

وان قضى اللهُ أن تبينَ فقـد
كانت فبانتْ من أهلها البصره[1]

ويبدو ان ممدوحي الشاعر قد ضجروا من الحاجه والحافـه ، فأخذوا يماطلونه ويسوّفونه ويملونه ، وحين يشعر بذلك يرفع عقيرته صارخاً :

وذي مَلّةٍ أوشكتُ عنه ترحُلي
فلم يُحذه الدهرُ الطويلُ مثالي

وأكثرُ فتيان الزمان أراذلُ
موازينُهم في السرّ غيرُ ثقـال

وما آفتي في خَلّتي وبدوّها
سوى خُلَلٍ لم تعط فضل خلال

تواكلني الاخوانُ حتى تضعضعتْ
قوايَ وخاف المشفقونَ وكالـي

وما زال خذلُ الدهر حتى توقعتْ
يميني غداة النصر خذل شمالي[2]

* * *

زمنٌ تلعبُ بـي أحداثُـهُ
لعبَ النكباءِ بالرُمح الخَطِلْ

وأرى العُدْمَ فلا تحفِلْ بـه
عقبةً تقضى وكَلْماً يندمل

أكبرتْ نفسي وكرْهاً أكبرتْ
أن تلقّى النيل من كفّ الأشل

(١) الديوان ٢/١٠٠٨ ـ ١٠٠٩ .
(٢) نفسه ٣/١٧٠٢ ـ ١٧٠٣ .

وإذا الحُرُّ رأى اعراضَــةً
من صديق صدَّ عنه او رحل
أخلقَ الناسَ الأخيرون كأنْ
لم يُنبَوا جدَّةَ الناس الأُوَل
كلما أغرقتُ فــي مدحهمُ
أغرقوا في المنع منهم والبخل
أنـا مـن تلفيق ما مزَّتــه
مرتجوهـم فـي عناء وشـغل[1]

وينحى الشاعر باللائمة على الزمن الذي طوّح بـه ، ونال من مكانته ، ويشكوه قائلاً :

تعتبتُ دهـراً فلمَّا رجعـ ـتُ الى حاصل الطمع الكاذب
بكيت على عمرىَ المنقضِي ونحتُ على شعرىَ الخائب[2]

ثم يثوب الشاعر الى نفسه فيعلن بقوة انه يقف بكل حزم أمام محاربة الأيام له ، ومصارعة الدهر اياه ، فيقول :

حاربتني الأيام حتى لقد أصبح حربي من كنت اعتدَّ سـلمي
غير أني أدافع الدهر عني باحتقاري لصرفه المستذم[3]

وحين يرى ان تجارته كسدت ، وشعره الذي سكب فيه عصارة ذهنه لم ينفعه ، وان من يقصدهم ويسترفدهم لم يحسنوا اليه ، يعود فيتأسف على

---

(١) الديوان ١٧١٦/٣ ، وانظر ايضا المصدر نفسه ٢٢٦/١ ، ٤٣٨ ، ٦٨١/٢ ، ٢٢٩٣/٤ .

(٢) نفسه ٢٦٠/١ .

(٣) نفسه ١٩٤١/٣ .

انتقاص الدهر له ، ووضعه في غير موضعه ، ويأسى على ما آل اليه مصيره وهو الشاعر الكبير الذي أتقن صنعته ، وأحكم فنه ، فعرض على ممدوحيه أغلى جواهره ، وأبهى لآلئه ، ولكنهم لم يقدروا عرضه ، ولم يحسنوا حمده :

أيذهبُ هذا الدهرُ لم يَرَ موضعي
ولم يدرِ ما مقدار حلى ولا عقدي

ويكسدُ مثلي وهو تاجرُ سؤددِ
يبيعُ ثمينـاتِ المكارم والحمد

سوائر شـعرٍ جامعٍ بددَ العلا
تعلقنَ من قبلـي وأتعبن من بعدي

يقدَّرُ فيهـا صـانع متعمّـل
لاحكامهـا تقدير داودَ في السرد

خليلي لو في المَرْخ أقدحُ اذْ أبى
رجـالٌ مؤاتاتي اذاً أكبا زندى

وما عارضتني كُدْيةٌ دون مدحهم
فكيف أراني دون معروفهم أُكدي

أأضـربُ أكبادَ المطـايا اليهم
مطالبـةً منـي وحاجاتهُم عندي

أبى ذاك أني زاهد في توالِ من
أراه بنقص الرأى يزهد في حمدي[1]

(١) الديوان ٧٤٧/٢ ٠

ويضيق البحتري ذرعاً بما يراه من اطّراح الممدوحين له واجحاف الزمن بحقه فتضطرب الاشجان في نفسه ، وتعتلج الآلام في صدره ، ويتذكر ما كان عليه من التبجيل والتجلة في عهود خلفاء سامراء ورجالها ، فيرى نفسه ازاء ايوان كسرى فيقف عنده ويبثه آلامه واحزانه قبل ان يمضي في نعته ونعت ما فيه من فن رفيع ، وصنعة عجيبة :

صنتُ نفسي عما يدنسُ نفسي
وترفّعتُ عن جَدا كلِّ جبس

وتماسكتُ حين زعزعني الدهـ
ـرُ التماساً منه لتعسي ونكسي

بُلَغٌ من صبابة العيش عندي
طففتها الأيامُ تطفيفَ بخس

وبعيدٌ ما بين وارد رِفْه
عَلَلٍ شربُهُ ، ووارد خِمس

وكأنَّ الزمان أصبح محمو
لاً هواه مع الأخسِّ الأخس

واشترائي العراقَ خطةَ غبنٍ
بعد بيعي الشامَ بيعةَ وكس

لا ترزني مزاولاً لاختباري
بعد هذي البلوى فتنكر مسّي

وقديماً عهدتني ذا هَنات
آبياتٍ على الدنيّات شُمْس

ولقد رابني نبوُّ ابنِ عمّي
بعد لينٍ من جانبيهِ وأنس[١]

ويحسن بنا أن نشير في أعقاب هذا الفصل الى ان هناك شيئاً من التشابه بين حياة البحتري الاولى وبين السنوات الاخيرة منها ٠ وقد مرّ بنا انه بدأ حياته بامتداح أصحاب البصل والباذنجان في اسواق مدينته ، ثم ارتأى الرحلة والتطواف فلمّ القواد والعمال والولاة في مدنهم وأقاليمهم ، يمتدحهم ويقرظهم وينال هباتهم وعطاياهم ، حتى تهيأ له ان يحط رحاله في ربوع الحاضرة العباسية « سامراء » ، وان يصبح - بعد لأي شاعر البلاط حقبة من الزمن[٢] ٠

وفي غضون السنوات الاخيرة من عمره نراه يعيد ما بدأ به حياته الاولى ، فأخذ يضرب في الارض منتجعاً الوزراء والقواد والعمال وصغار الكتاب يمتدحهم ويلتمس جدواهم[٣] ، بل نراه يؤم حتى عمال الطساسيج بعد ان ضاق من المقام ببغداد :

فأصبحت في بغداد لا الظلّ واسع
ولا العيش غضّ في غضارته رطب

أأمدح عمّال الطساسيج راغباً
اليهم ، ولي بالشام مستمتع رغب[٤]

لم تعد سامراء في هذه الحقبة المدينة الوحيدة التي يؤمها ويقيم فيها ، فقد ظهرت في شعره أسماء مدن أخرى كان يرتادها ويتردد اليها ، منها بغداد ،

---

(١) الديوان ٢/١١٥٢ ـ ١١٥٤ ٠
(٢) انظر : البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل ٠
(٣) انظر : ص٢٠٢ ـ ٢٠٣ من هذا البحث (الهامش) ٠
(٤) الديوان ١/١٢٣ ٠

وواسط ، ورأس عين ، وجبل ، والموصل ، ودير العاقول وغيرها . فهو يقول من قصيدة في مدح أبي الصقر اسماعيل بن بلبل :

ولو أنجحت بغداد موعد واسطٍ لما عدمت مني على نجحها حمدا(١)

ويقول من أخرى في امتداح احدهم :

ملامك في صدودي واجتنابي ونأيي بالمشارق واغترابي
فقد جعلت دواعي الشوق تدعو الى حلل بواسط أو كتاب(٢)

ويقول في مدح ابي العباس ابن بسطام :

وأطريتَ لي بغدادَ اطراءَ مادحٍ
وهذي لياليها ، فكيف شهورها ؟

وكنت متى تحطط عجالُ ركائبي
الى الارض لا يُحجبْ عليَّ أميرها

توقّعني الدار الشّطون أحلّها
ويبهج بي أهلُ البلادِ أزورها

لئن أوحشتني (جُبّلٌ) وخِصاصها
لما آنستني (واسطٌ) وقصورها(٣)

ويقول أيضاً :

---

(١) الديوان ٥٣٦/١ .

(٢) نفسه ٢٧٤/١ .

(٣) نفسه ٩٩٩/٢ ـ ١٠٠٠ .

ما ديـــر عاقولكـــم بالبعد مانعنا   من أن نجيئك من بغداد عوّادا[1]

وكان يرضى في مطلع حياته بالعطايا الصـــغيرة ، وهو يفعل مثل ذلك في أواخر حياته ايضاً ، فهو يقول من قصيدة في أحد من ينتجعهم :

أرى مائتي تعذّر مبتغاها   وكان الحق أن اعطى المئينا

ويقول من أخرى :

المائـــة الدينار منـــية   في عِدة أشـبعتها خلفا[3]

---

(١) الديوان ١/٦١٠ ·

(٢) نفسه ٤/٢٢٩٣ ·

(٣) نفسه ٣/١٣٩٥ ·

الفصل الثامن

البحتري وشعراء عصره

من الطبيعي ان شاعراً موهوباً كالبحتري ـ لقي من الاقبال عليه ، والشغف بشعره ، والاسناء في جوائزه ، والتقريب من مجالس الخلفاء والأمراء ما لقي ـ يكون محسَداً من قبل أصحابه الشعراء • وهـذا ما حدث ، ففي ديوان الشاعر أهاجٍ في طائفة ممن عاصره منهم •

ان آراء الدارسين القدامى والمحدثين في علاقة الشاعر بشعراء عصره تنقسم الى قسمين :

قسم يرى ان هذه العلاقة كانت حسنة ، وان البحتري كان يثني على كل شاعر يذكر له ، سواء كان محسناً او غير محسن • ولعل أقدم من أشار الى ذلك الآمدي حيث يقول : « قال أبو علي محمد بن العلاء : كان البحتري اذا شرب وأنس أنشد شعره وقال : ألا تسمعون ؟ ألا تعجبون ؟ قال : وكان ـ مع هذا ـ من أحسن الناس ادب نفس ، لا يذكر له شاعر محسن او غير محسن الا قرّظه ، ومدحه ، وذكر أحسن ما فيه ••• »[1] •

وجاء الدكتور البصير من المحدثين فبنى على هذا الخبر المذكور حكماً جماعياً على حسن سلوك الشاعر فقال : « ويتجلى حبه الشديد للخير أيضاً في موقفه الودي ممن عاصره من الشعراء ، فمؤرخو الادب القديم (مجمعون) على انه كان حسن السلوك حيالهم يثني عليهم جميعاً ،

---

(١) الموازنة ١/١٣ •

ويقرظهم ويذكر محاسن أشعارهم ، وفي ذلك ما فيه من ايثار التفاهم والتقارب ونبذ الخصومات والعداوات »[١] .

وقسم آخر يشير الى ان العلاقة بينه وبين شعراء عصره لا تخلو من الجفاء والتوتر ، وقدعلق شارح ديوانه على احدى أهاجي البحترى في الخثعمي الشاعر قائلاً : « حددنا لها سنة ٢٤٨هـ ، ويبدو ان الشاعر كان في هـــذه الفترة يقاسي حملات من شـعراء آخرين كابن الجهم والخثعمي ... »[٢] .

ويقول الدكتور أحمد بدوي : « هذه العلاقة بين البحتري وابى تمام هي التي جعلته يتبرم بباقي شعراء عصـره ، ويعدهم أصحـاب قريحة مضطربة ، ومعان مستحيلة ، فيرثى أبا تمام ودعبلاً الخزاعي بقوله :

قد زاد في حزني ، وأوقد لوعتـي   مثـوى حبيب يومَ مــات ودعبل

وبقاء ضـرب الخثعميّ وشبهه   من كلّ مضطرب القريحة مهمل

أهل المعـاني المسـتحيلة ان همُ   طلبـوا البراعـة بالكلام المقفل[٣]

والحق ان علاقة الشاعر لم تكن حسنة دائماً مع شعراء عصره ، كما نقل ذلك الآمدي ، وكما بنى عليه الدكتور البصير حكماً عاماً لا نظنه يقوم على سند حقيقي .

لقد هجا البحتري عدداً من الشعراء في عصره منهم : الحارثي[٤] ،

---

(١) في الادب العباسي ص٢٤٠ الطبعة الثانية .

(٢) الديوان ٣٦/١ الحاشية .

(٣) حياة البحتري وفنه ص٥٤ .

(٤) له فيه أربع مقطعات وقصـــيدة ، الديوان ١٢٧/١ ـ ١٢٨ ، ١٠٢١/٢ ، ١٢٩٢ ، ١٧٠/٣ ، ٢٢٢٤/٤ .

وأبو العنبس الصيمري[١] ، وأبو عمارة[٢] ، والخزّاز[٣] ، والخثعمي[٤] ، وعلي بن الجهم[٥] ، وابو الدردام[٦] ، وأحمد بن أبي طاهر[٧] .

وهناك ناحية أخرى تتصل بعلاقة البحتري بشعراء عصره نراها جديرة بالذكر ، وهي اسقاطه او احراقه دواوين خمسمائة شاعر !

ولعل اول من أشار الى ذلك الآمدي أيضاً المتوفى سنة ٣٧٠هـ ، فقد ذكر في الموازنة عن أبي علي محمد بن العلاء أنه قال : « كان البحتري اذا شرب وأنس أنشد شعره وقال : الا تسمعون ؟ ألا تعجبون ؟ قال : وكان ـ مع هذا ـ من أحسن الناس ادب نفس ، لا يذكر له شاعر محسن أو غير محسن الا قرظه . ومدحه ، وذكر أحسن ما فيه ، قال ابو علي : ولم لا يفعل ذلك ؟ وقد (أسقط) في أيامه اكثر من خمسمائة شاعر ، وذهب بخبزهم ، وانفرد بأخذ جوائز الخلفاء والملوك دونهم ، فلو لم يفعل ذلك الا استكفافاً وحذراً من بيت واحد يندر فيبقى على الزمان ـ لكان من الحظ له أن يفعله »[٨] . وتبعه في ذلك الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢هـ

---

(١) له فيه مقطوعتان ٢/١٢٨٢ ، ٣/١٩٢٤ .

(٢) له فيه مقطعة واحدة ٢/١٠٩٥ .

(٣) له فيه مقطعة واحدة ٢/١٠١٥ ، وانظر : اخبار البحتري ص١٢٦ ، معجم الادباء ٣/٤ .

(٤) له فيه أربع مقطعات وقصيدة : ١/٦٣ ، ٣/١٣٧٣ ، ٣/١٤٣٢ ، ٣/١٧٩٠ ، ٣/١٨٢١ .

(٥) له فيه ثلاث مقطعات ، واحدة منها مختلف في نسبتها : ١/٣٢٥ ، ٢/٧٩٨ ، ١٠٣٩ وانظر : العمدة ١/١٠٨ .

(٦) له فيه مقطعة واحدة : ٤/٢٢٨٤ .

(٧) له فيه مقطعة واحدة ١/٥٣٧ . والجدير بالذكر ان لابن أبي طاهر كتاباً اسمه « سرقات البحتري من أبي تمام » . معجم الادباء ٣/٩١ . ويبدو ان هذا هو السبب في هجائه له .

(٨) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ١/١٣

فقال في الوساطة : « ... فاما اليقين الثقة ، والعلم والاحاطة ، فمعاذ الله أن أدعيه ! ولو ادعيته لوجب أن لا تقبله مع علمك بكثرة الشعراء واختلاف الحظوظ ، وخمول أكثر ما قيل ، وضياع جلّ ما نقل ، وأظنك قد سمعت أو انتهى اليك أن البحتري (أسقط) خمسمائة شاعر في عصره »[1] .

وجاء العميدي المتوفى سنة ٤٣٣هـ فذكر في « الابانة عن سرقات المتنبي » ما قاله الجرجاني بعد ان أبدل الفعل أسقط بالفعل (أحرق) ، فقال : « وذكر القاضي ابو الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني ان البحتري على ما بلغه (أحرق) خمسمائة ديوان للشعراء في أيامه حسداً لهم لئلا تشتهر أشعارهم ولا تنشر في الناس محاسنهم وأخبارهم »[2] .

ثم جاء ابن رشيق فأضاف الى البحتري أبا تمام وقال : « وليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن ابي نواس ثم حبيب والبحتري ، ويقال (انهما أخملا) في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم (مجيد)[3] .

وعلى الرغم مما أشارت اليه المصادر المتقدمة من اسقاط البحتري لهذا العدد الضخم من الشعراء او احراقه لدواوينهم ، فان الشك يساورنا في صحة هذا الخبر الذي تناقلته هذه المصادر .

وواضح ان الخبر الذي أشار اليه الآمدي اولاً قد تعرّض الى التحريف والاضافة ، فقد اورد الآمدي وتبعه في ذلك الجرجاني ان الشاعر (أسقط) خمسمائة شاعر في عصره ، ثم جاء العميدي فحرّف الفعل أسقط الى (أحرق) ، ثم جاء بعدهم ابن رشيق فغير الفعل أسقط الى (أخمل) ،

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص١٣٥ .
(٢) الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي ص٢٣ ، وانظر : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي للبديعي المتوفى سنة ١٠٧٣هـ حيث ذكر النص الذي اورده العميدي في الابانة ، الصبح المنبي ص ١٨٥ .
(٣) العمدة ١/١٠٠ .

واشرك مع البحتري في هـذه العملية أبا تمام ، وادعى ان كل اولئك الشعراء المخملين كانوا مجيدين •

ويبدو ان دارسي البحتري من المحدثين قد تجاوزوا هـذا الخبر ولعلهم وجدوا فيه تلفيقاً او مبالغة لا تقوم على أساس ، فأعرضـوا عن الخوض فيه أو الاشارة اليه •

ويخيل الينا ان احداً فقط من الدارسين المحدثين قد أخذ به ، وأشار اليه وهو أمين الحداد الذي كتب سلسلة من المقالات عن البحتري في مجلة الضياء ، وقد ألمح في ايراد فحوى الخبر الى كتاب الموازنة الذي كان اول من ذكره[1] •

وانه لمن الغريب أن تقع كل دواوين اولئك الشعراء الخمسمائة ـ اذا صح ما ذكره العميدي ـ في يد البحتري الذي عمد الى احراقها حسداً لهم من أن تشتهر أشعارهم وتسير بين الناس أخبارهم ومحاسنهم • وربما كان أكثر غرابة أن يعمد البحتري الى اسقاط اولئك الشعراء خشية ان يشتهر لهم بيت واحد فيبقى سائراً خالداً على مرّ الزمان كما يقول الآمدي •

ونعود الى الخبر مرة أخرى ونقف عند الرقم « خمسمائة » لنرى هل كان حقاً هناك في عهد البحتري ـ هذا العدد من الشعراء المجيدين الذين كانوا يزاحمونه ويضايقونه فأسقطهم أو أخملهم وذهب بخبزهم ، وانفرد بجوائز الخلفاء والملوك دونهم ؟

الحق ان الحقبة التي عاشها البحتري لم يظهر فيها من الشعراء المجيدين الا عدد ضئيل جدا ، وان البحتري كان يقف في طليعة ذلك العدد

---

(١) مجلة الضياء العدد ١٣٧/٦ السنة السادسة مصر ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ •

الضئيل ولو اردنا ان نستقرىء المراجع الأدبية التي عنيت بتسجيل أسماء الشعراء في عهد البحتري – وهو عهد ليس بالقصير – لما وقفنا الا على عدد يقل كثيرا جدا عما ذكرته المراجع السابقة[1] .

وعلى الرغم من ان ابن رشيق حاول ان يلطف من الخبر المذكور بادخاله ابا تمام فيه ، فاننا ما نزال نراه بعيدا عن الحقيقة والواقع أيضاً .

ومعلوم ان أبا تمام – على اشتهاره ونباهته – لم يستطع أن ينال من الجوائز ما ناله غيره من الشعراء ، وهناك اكثر من حادثة تؤيد ما نذهب اليه[2] .

ومع كل ما في الخبر من المبالغة والتلفيق فانه يحمل في ثناياه عداء البحتري لغيره من الشعراء ، الأمر الذي لا يمكن معه الادعاء بانه كان حسن السيرة والسلوك حيال معاصريه كما يقول بعضهم !

---

(١) يقول الدكتور طه حسين في كتابه « من حديث الشعر والنثر ص٥٣ » ، وفي معرض كلامه على عدد الشعراء النابهين في القرن الثالث : « فبعد ان كنا نعد في القرن الاول للهجرة شعراء كثيرين ، وبعد ان كنا نعد من فحول الشعراء جريراً والفرزدق والاخطل ، بعد ان كنا نعد الشعراء في القرن الثاني فنجد بشاراً ومطيعاً ، وحمّاد عجرد ، وابا نواس ، ومسلم بن الوليد ، أصبح النابهون في القرن الثالث من الشعراء قليلين جدا ، وأصبح الذين يفرضون أنفسهم على الناس فرضا لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ، فيظهر في اوله ابو تمام والبحتري ، ثم يظهر في آخره ابن المعتز وابن الرومي » .

(٢) انظر : سامراء في ادب القرن الثالث الهجري ص١٠٦ – ١٠٩ .

الفهارس

١ ـ فهرس الأعلام والامم والقبائل

أ

ب

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ق

ك

م

ن

٢ ـ فهرس الامكنة والبقاع

أ

ب

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

هـ

و

ي

٣ ـ فهرس المصادر والمراجع

١ ـ الابانة عن سرقات المتنبي : تأليف ابي سعيد محمد بن أحمد العميدي • تحقيق : ابراهيم الدسوقي البساطي ـ دار المعارف بمصر •

٢ ـ أخبار أبي تمام لابي بكر محمد بن يحيى الصولي ـ الطبعة الاولى (١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م) ، مطبعة لجنة التأليف والرجمة والنشر ـ القاهرة •

٣ ـ أخبار البحتري : لابي بكر محمد بن يحيى الصولي ـ الطبعة الاولى ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م دمشق • تحقيق الدكتور صالح الاشتر •

٤ ـ اعجاز القرآن للباقلاني • تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي • الطبعة الاولى ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م ـ مطبعة ـ صبيح ـ القاهرة •

٥ ـ الاعلام : لخيرالدين الزركلي ـ الطبعة الثانية •

٦ ـ الأمالي : لابي علي القالي •

٨ ـ امراء الشعر العربي في العصر العباسي : لأنيس المقدسي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت • الطبعة السابعة ١٩٦٧ •

٩ ـ الاغاني ـ لابي الفرج الاصبهاني ـ طبعة ساسي ـ مطبعة التقدم ـ مصر •

الاغاني ـ طبعة دار الكتب المصرية •

١٠ـ البحتري : تأليف نديم مرعشلي • منشورات دار الشرق الجديد • بيروت • الطبعة الاولى ١٩٦٠ •

١١- البحتري في سامراء حتى نهاية عصر المتوكل : يونس أحمد السامرائي • مطبعة الارشاد ١٩٧٠م •

١٢- البلدان لأحمد بن واضح اليعقوبي • الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م • المطبعة الحيدرية في النجف •

١٣- تاريخ الادب العربي : تأليف بروكلمان • ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار - دار المعارف - مصر ١٩٦١م •

١٤ تاريخ الادب العربي : لأحمد حسن الزيات ط ٢٥ - القاهرة •

١٥- تاريخ الامم والملوك - الطبري - الطبعة الاولى - المطبعة الحسينية المصرية •

تاريخ الامم والملوك - طبعة دار المعارف •

١٦- تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت •

١٧- تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان - دار الهلال •

١٧- تاريخ الخلفاء للسيوطي • تحقيق : محمد محيي‌الدين عبدالحميد - الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - ١٩٥٩م •

١٩- تاريخ اليعقوبي - أحمد بن واضح اليعقوبى - منشورات المكتبة الحيدرية - النجف - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ •

٢٠- التنبيه والاشراف - للمسعودي • تحقيق : عبدالله الصاوى مطبعة الشرق الاسلامية - القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م •

٢١- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب : للثعالبي ، تحقيق : أبو الفضل ابراهيم دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م •

٢٢ جمع الجواهر في الملح والنوادر لابي اسحاق الحصري القيرواني •

تحقيق علي البجاوي ـ الطبعة الاولى ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م • دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ •

٢٣ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم الاندلسي • تحقيق عبدالسلام محمد هارون ـ دار المعارف ـ بمصر ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م •

٢٤ـ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : لآدم ميتز • ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٧م •

٢٥ـ حياة البحتري وفنه • للدكتور أحمد أحمد بدوي ـ مكتبة الانجلو المصرية ـ مطبعة لجنة البيان العربي •

٢٦ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ مطبعة الاعتماد ـ الدكتور : عبدالحميد يونس •

٢٧ـ دلائل الاعجاز : لعبدالقاهر الجرجاني ـ القاهرة ١٣٨١ ـ ١٩٦١م •

٢٨ـ الديارات : للشابشتي : تحقيق كوركيس عواد ـ الطبعة الثانية مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م •

٢٩ـ ديوان ابن الرومي ـ شرح الشيخ محمد شريف سليم ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت •

٣٠ـ ديوان البحتري : تحقيق حسن كامل الصيرفي ـ مطبعة دار المعارف مصر •

ديوان البحتري : طبعة بيروت ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م •

٣١ـ ديوان علي بن الجهم : تحقيق : خليل مردم ـ المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م •

٣٢ـ ديوان ابن المعتز : تحقيق • ب ـ لوين • مطبعة المعارف • استانبول ١٩٤٥ منشورات جمعية المستشرقين الالمانية •

٣٣ـ ذيل الأمالي والنوادر • لابي علي القالي ـ الطبعة الثالثة •

٣٤ـ زهر الآداب وثمر الالباب : لأبي اسحاق الحصري القيرواني • شرح الدكتور : زكي مبارك ـ الطبعة الثالثة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م مطبعة السعادة ـ مصر •

٣٥ـ سامراء في أدب القرن الثالث الهجري : يونس أحمد السامرائي ـ مطبعة الارشاد ـ ١٩٦٩م •

٣٦ـ شاعرية الوليد ـ لحمدي علي ـ مطبعة السعدي ـ بغداد ١٩٥٥م •

٣٧ـ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ للبديعي ـ تحقيق : مصطفى السقا ومحمد شتا ـ دار المعارف ـ مصر •

٣٨ـ طبقات الشعراء لابن المعتز : تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ـ دار المعارف ـ مصر •

٣٩ـ الطرائف الادبية ـ تحقيق : عبدالعزيز الميمني • مطبعة لجنة التأليف والترجمة ـ والنشر ـ القاهرة ١٩٣٧ •

٤٠ـ العقد الفريد : لابن عبد ربه ـ الطبعة الثالثة ـ مطبعة لجنة التأليف ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م •

٤١ـ العمدة : لابن رشيق • تحقيق محمد محيي‌الدين عبدالحميد ـ الطبعة الثالثة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م ـ مطبعة السعادة ـ مصر •

٤٢ـ الفرج بعد الشدة : لابي علي المحسن التنوخي ـ الطبعة الاولى ـ دار الطباعة المحمدية ـ القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م •

٤٣ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . للدكتور شوقي ضيف ـ الطبعة الثالثة مكتبة الاندلس ـ بيروت ١٩٥٦ .

٤٤ـ فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي . تحقيق : محمد محيي‌الدين عبدالحميد مطبعة السعادة ـ مصر .

٤٥ـ في الادب العباسي ـ للدكتور محمد مهدي البصير ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة السعدي ـ بغداد ١٩٥٥ .

٤٦ـ الكامل في التاريخ . لابن الاثير ـ الطبعة الاوربية .

٤٧ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة ـ القلقشندي ـ تحقيق ـ عبدالستار أحمد فراج ـ الكويت ١٩٦٤ .

٤٨ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الاثير . تحقيق : الدكتور أحمد الحوفي والدكتور طبانة ـ مطبعة نهضة مصر ـ الطبعة الاولى ـ ١٣٧٩ ـ ١٩٥٩ .

٤٩ـ الضياء ـ مجلة علمية أدبية . للشيخ ابراهيم اليازجي السنة السادسة ـ مصر ـ ١٩٠٣ ـ ١٩٠٤ .

٥٠ـ المحاسن والمساوىء : للبيهقي ـ دار صادر ـ بيروت ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م .

٥١ـ محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الاصبهاني ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦١م .

٥٢ـ محاضرة الأبرار ومسامرة الاخيار لمحيي‌الدين بن عربي ـ المطبعة العثمانية سنة ١٣٠٥هـ ـ مصر .

٥٣ـ مراصد الاطلاع : لابن عبدالحق . تحقيق : على البجاوي ـ دار احياء الكتب العربية ـ عيسى الحلبي ـ الطبعة الاولى ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م .

٥٤- المستطرف في كل فن مستظرف : للابشيهي - مطبعة الاستقامة القاهرة •
٥٥ معجم الادباء - لياقوت الحموي - الطبعة الاخيرة - تحقيق : أحمد فريد رفاعي - مصر •
٥٦- معجم الشعراء للمرزباني : تحقيق : عبدالستار أحمد فراج - دار احياء الكتب العربية - ١٣٧٩ - ١٩٦٠ •
٥٧- مقاتل الطالبيين - لابي الفرج الاصبهاني : تحقيق ابراهيم الزين • دار احياء علوم الدين ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م بيروت •
٥٨- من حديث الشعر والنثر - للدكتور طه حسين - دار المعارف - مصر ١٩٥٧ •
٥٩- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري : للآمدي : تحقيق السيد أحمد صقر - دار المعارف مصر ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م •
٦٠- الموازنة بين الشعراء : للدكتور زكي مبارك • دار الكتاب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٨ •
٩١- الموشح للمرزباني - تحقيق : علي البجاوي - دار نهضة مصر ١٩٦٥ •
٦٢- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - لابن تغري بردي - مصر •
٦٣- نساء الخلفاء - لابن الساعي البغدادي - تحقيق - الدكتور مصطفى جواد - دار المعارف - مصر •
٦٤- الوساطة بين المتنبي وخصومه لابي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني • تحقيق - أحمد عارف الزين - مطبعة صبيح - القاهرة•
٦٥- وفيات الأعيان لابن خلكان - تحقيق - محمد محيي‌الدين عبدالحميد مكتبة النهضة المصرية - الطبعة الاولى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م •

٤ ـ فهرس القوافي

أ

ب

ت

ج

ح

د

اخطاء مطبعية

يرجى تصحيح الاخطاء التالية التي وقعت في أثناء الطبع ولم يكن بالوسع تلافيها .

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
الشعر	الشاعر	٣	٤
بالطبيين	بالطالبيين	٢١	١١
القديم	النديم	١٩	١٥
وأخشى	او أخشى	٢٣	٢٣
الى يمر	الى أن يمر	١٩	٢٦
من الشاعر الممدوح	الشاعر من الممدوح	٢٧	٣٨
لبعد الله	لعبدالله	١٣	٣٩
بمسرح	بمسرع	١٣	٤٠
القت	الغيت	١	٤١
ادشا	أنشأ	١٤	٤٧
خرر	خزن	١١	٤٨
فاتباع	فابتاع	٣	٤٩
وكل	وكم	١٥	٥١
بن عبدالله	يحذف	٣	٥٢
وزجها	زوجها	١١	٥٢
لضع	ليضع	١	٥٤
هامش (٤)	يحذف	١٦	٥٥
يجد	يجدر	٤	٥٦
فيها البذخ	فيها من البذخ	١٤	٦٠
ثلث	ثلب	١	٦٩
عجرا	عجزاً	١٦	٧٢
الشاعر هؤلاء	الشاعر على هؤلاء	٦	٧٥

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
المتالف	المتالق	٢٥	٧٥
بد	يد	١٩	٧٨
النعوب	النعوت	١٢	٨٠
صرائبه	ضرائبه	١	٨١
الديون	الديوان	٢٣	٨٢
والقر	والقرم	٧	٨٦
البلا	البلاد	١٦	٩٢
صفة	صفقة	٥	٩٤
الخائن	الحائن	١	٩٨
مستقلٌ	مستقلٌ	١٩ ، ٣	١٠٠ ، ١٨١
٥٢٤هـ	٢٥٤هـ	٩	١٠٦
ابن أبي	ان ابن أبى	١١	١٠٦
ينس	ينسى	١٨	١١٢
كتاب	كتائب	١٠	١١٥
كم	كل	٩	١١٦
واجد	واجدا	٣	١٢٧
لخا	اذا	٢	١٢٨
بسامهم	بسهامهم	١١	١٣٢
اقرباؤ	اقرباؤه	١٢	١٣٣
فرعوى	فرعون	٩	١٣٩
اكبار	اكباراً	١٦	١٤٠
عبرها	منبرها	١٧	١٤١
حلكَ	حلكُ	١٢	١٤٦
الوشيح	الوشيج	٢٤	١٤٩
قمنٌ	قمنٍ	١٨	١٥٠
ثانية	ثانيه	٥	١٥٣
ناصر	ناصى	٣	١٥٥

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
كان	كاني	٤	١٥٦
المعروضة	المعروفة	٩	١٧٥
(٢)	(١)	٢٢	١٨٠
يتدركوا	يتداركوا	١٣	١٨٦
تحشيه	تحاشيه	١٧	١٨٨
فصارت	فصار	٥	١٩٣
ضنا	حسناً	٦	٢٠٨
الجبل	الخيل	٣	٢١٠
مساور والشاري	مساور الشاري	١٥	٢١١
فانيا	قانيا	١	٢١٢
الخردق	الخروق	١٠	٢١٦
قلونا	خلونا	١٦	٢١٦
نصيرة	نصرة	١٣	٢٢١
انفق	اتفق	١٤	٢٢٥
لطفٌ	لطفٍ	٣	٢٢٦
او أخيه	أواخيه	١٨	٢٢٧
تحمّلُ	تحمّلَ	١٠	٢٣٤
النتح	الفتح	٣	٢٣٨
عاذلون	غاذلوه	١٤	٢٣٨
اشرفاً	اشرافا	١٣	٢٣٩
بلل	بلبل	١٣	٢٤١
وما	ولما	٢١	٢٤١
وفتك	وفاتك	٢١	٢٥٣
نفف	نتف	٩	٢٥٦
غليل	غليلي	١٨	٢٥٨
حد وراء	أحد وزراء	٣	٢٦٨

٥ – فهرس الموضوعات

الفصل الرابع

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٠٨ لسنة ١٩٧١

٨٣/١٠٠٠/٢/١٠/١٩٧١

صمم الغلاف الاستاذ
كاظم حيدر

طبع الغلاف فى مطبعة الايمان
بغـــداد